الطائف

في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

تأليف
الدكتورة نادية حسني صقر



الدكتورة نادية حسني صقر
الطائف


الطائف
في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

الطبعة الأولى

١٩٨١م - ١٤٠١هـ



للنشر والتوزيع والطباعة

جدة - المملكة العربية السعودية - تليفون: ٦٤٢٦٦١٠ - ص.ب: ٤١٤٦ - س.ت: ٨٤٢٨ - برقيا: مشكاتنا

الطائف

في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

تأليف
الدكتورة نادية حسني صقر
دكتوراه في التاريخ الإسلامي بمرتبة الشرف الاولى
واستاذ التاريخ الاسلامي المساعد بجامعة الملك عبدالعزيز
بمكة المكرمة


للنشر والتوزيع والطباعة
برقيا : مشكاتنا - ص.ب : ٤١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء ...

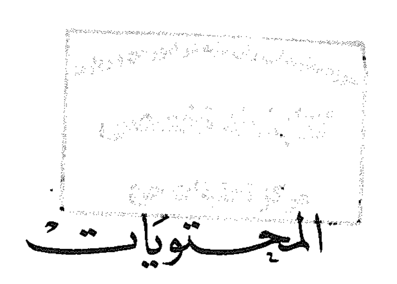
إلى من أعطاني الدّفعة القويّة

لإنجاز هذا العمل ...

إلى زوجي تقديرًا وعرفانًا ...

الدّكتورة
نادية حسيني صقر





المحتويات

(الباب الأول)

مدينة الطائف في العصر الجاهلي

صفحة

(الباب الثاني)

تاريخ مدينة الطائف في عصر النبي

(الباب الثالث)

مدينة الطائف في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذه هي دراسة عن تاريخ الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ودراسة تاريخ المدن من أبرز موضوعات البحث التاريخي . وقد رأيت أن أختار مدينة عربية من مدننا ذات التاريخ العريق ، لتكون موضوعاً لبحثي . وقد نالت معظم مدننا العربية اهتمام الباحثين والمؤلفين . ولاحظت أن مدينة الطائف لم تنل بعد حقها من الدراسة العلمية المنهجية ، فرأيت أن أقوم بواجبي العلمي ، والقومي ، نحو مدينتنا العربية القديمة الأصيلة .

ونالت مدن الحجاز الأخرى ، وخاصة مكة والمدينة المنورة ، اهتماماً كبيراً واسعاً ، فهما المدينتان العربيتان العريقتان ، وهما المركزان الإسلاميان المقدسان . وطغت دراسة تاريخ تلك المدينتين الشريفتين ، على دراسة سائر مدن الحجاز ، وخاصة الطائف ولذا ما زالت مكتبتنا العربية الحديثة في حاجة إلى دراسة علمية منهجية حول تاريخ مدينة الطائف .

ورأينا ألا نقتصر في دراستنا لتاريخ الطائف على العصر الجاهلي فقط ، أو على عصر صدر الإسلام فحسب ، فقد أردنا أن نلمس التغييرات الجذرية العميقة التي أحدثها الإسلام في تاريخ هذه المدينة العربية الحجازية وفي حضارتها . فقد كان ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وثبة بالإنسانية لم يعرف التاريخ لها نظيراً ، قمة لم يرتفع إليها البشر أبداً إلا في ظل هذا المنهج الرباني . ونهضة حضارية كبرى ، منحت العالم مثلاً عليا راقية في السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والفكر . وكانت دراستنا لتاريخ الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، توضح الإنطلاقة الحضارية التي انطلقتها الطائف ، فقد خرجت من القوقعة الجاهلية التي عاشت فيها دهراً ، لتصبح جزءاً

من العالم الإسلامي ، تشارك في أحداثه السياسية ، وفي تقدمه الحضاري . فقد عاشت الطائف في جاهليتها وراء أسوارها المنيعة ، فاتصفت اتجاهاتها بالمحلية والاقليمية ، ولكن الإسلام الذي حطم أسوار الجاهلية ، وحائط الوثنية ، خرج بالطائف إلى الآفاق العالمية ، فأخذت وأعطت في مجالات الحضارة ، وأصبح للطائف دورها البارز في تاريخنا الإسلامي المجيد .

ووجدنا صعوبات في دراستنا لتاريخ مدينة الطائف ، سواء في العصر الجاهلي أو في العصر الإسلامي . أما عن العصر الجاهلي ، فقد ركزت مصادرنا القديمة الاهتمام بمكة وبقبيلتها قريش ، وبالرؤساء القرشيين باعتبارهم أجداد النبي عليه الصلاة والسلام . كما نالت الكعبة الشريفة وما يرتبط بها من مناسك ومواسم حج ، وأسواق ، اهتمام المؤرخين . ثم كان الاهتمام بتاريخ يثرب ، التي أصبح اسمها المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية ، فقد أصبحت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية في صدر الإسلام ، ومركزاً للأحداث . وتاريخ الطائف في الجاهلية تاريخ غامض ، نتيجة عدم اهتمام المؤرخين القدامى ، ولعدم توافر الوثائق أو الآثار أو النقوش القديمة . كما انعكست مظالم بعض الثقفيين المخلصين للدولة الأموية ، وخاصة الحجاج الثقفي ، على تاريخ قبيلة ثقيف ، صاحبة السيادة في الطائف ، فأساءت إلى تاريخها .

أما الصعوبات التي واجهناها في دراستنا لتاريخ الطائف في العصر الإسلامي ، فترجع إلى أن الطائف أصبحت جزءاً من اقليم الحجاز الذي أصبح بالتالي جزءاً من الدولة الإسلامية الكبرى . كما أن الطائف انصرفت إلى نشاطها الاقتصادي ، ولم تشارك في الأحداث السياسية في الدولة العربية ، المشاركة العميقة حتى أن علي بن أبي طالب ضم حكم الطائف إلى ولاية مكة . كما أن كثيراً من أبناء ثقيف نزحوا عن الطائف ، إلى العراق والشام ، ليتولوا المراكز القيادية والمناصب الحكومية المختلفة . ولذا أصبح تاريخ الطائف في العصر الإسلامي هو تاريخ هؤلاء الثقفيين البارزين ، أما الطائف نفسها ، كمدينة ، فقد ظلت تعيش على أمجاد الماضي ، تجتر الذكريات المجيدة السالفة .

وكان تبويبنا لبحثنا حتمياً ، فرضته طبيعة الموضوع ، فقسمنا بحثنا إلى ثلاثة أبواب ، يدرس الباب الأول تاريخ مدينة الطائف في العصر الجاهلي ، فلهذا العصر خصائصه المتميزة وحضارته الخاصة ، وقد تناولنا في هذا الباب نشأة مدينة الطائف ،

ثم درسنا جوانب الحياة المختلفة في مدينة الطائف ، سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية . وعنينا بعقد دراسات مقارنة بين الطائف وكل من مكة ويثرب واهتممنا بالروابط التي كانت تربط بين الطائف ومكة .

ورأينا أن نخصص الباب الثاني لدراسة تاريخ مدينة الطائف في عصر النبي عليه الصلاة والسلام . فهي فترة تحول وانتقال خطيرة في تاريخ هذه المدينة الحجازية . فرأينا موقف الطائف من ظهور الإسلام ، وعوامل موقف العداء والعناد ، وتحدثنا عن مشروع الهجرة النبوية إلى الطائف . وشرحنا أسباب رفض الطائف لهذه الهجرة الشريفة . ثم رأينا انتصار الرسول والمسلمين على ثقيف وحلفائها في موقعة حنين ، والحصار الإسلامي لمدينة الطائف ، ثم شهدنا إسلام الطائف طواعية واختياراً في العام التاسع بعد الهجرة ، بعد أن لمست أنها أصبحت الجيب الوثني الوحيد وسط جزيرة عربية واسعة يعتنق أهلها الإسلام ، ونلحظ في هذا الباب الثاني ، التحول الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي الخطير في تاريخ مدينة الطائف . فقد دالت فيها دولة الأصنام ، لترتفع رايات الإسلام ، وأصبحت الطائف قلعة إسلامية ، بعد أن كانت معقلاً أخيراً للوثنية .

ثم كان الباب الثالث دراسة لتاريخ مدينة الطائف ، في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين ، فدرسنا فيه موقف الطائف من حركات الردة ، وهو موقف مشرف ، إذ تمسكت ثقيف باخلاصها للإسلام ، بعد ذلك العناد القديم فشاركت في مناهضة حركات الردة ، التي هددت الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية للجماعة الإسلامية . كما درسنا أيضاً دور ثقيف في الفتوحات الإسلامية فقد ساهمت ثقيف في حمل لواء الإسلام ونشر الحضارة الإسلامية ، وخاصة في الأراضي الفارسية . ثم قدمنا دراسة متطورة متتابعة لتاريخ الطائف في عصور الراشدين والأمويين ، ورأينا دور الطائف في الأحداث الهامة في الدولة الإسلامية ، أو انعكاسات هذه الأحداث على حياتها . ثم قمنا بإبراز دور الثقفيين في تاريخ العصر الأموي . فقد أصبحت قبيلة ثقيف شريكة لقبيلة قريش في حمل المسؤوليات السياسية والحضارية في الدولة الإسلامية في العصر الأموي . وقد اختلفت اتجاهات هؤلاء الثقفيين السياسية ، فمعظمهم قد أصبح من عمد الحكم الأموي ، بينما وقف المختار الثقفي موقف المعارضة الشديدة للدولة الأموية . وبرز معظمهم في مجالات السياسة والإدارة ، وظهرت عبقرية بعضهم العسكرية ، وخاصة محمد بن القاسم الثقفي ، فاتح السند .

وفي ختام هذا الباب ، قدمنا صورة تاريخية لحياة الأسرة العباسية في مدينة الطائف ، فقد أصبحت الطائف مركزاً لنشاط ديني فكري قام به العباسيون ، ومكاناً يبتعد فيه العباسيون ، في العصر الأموي ، عن السياسة وما يرتبط بها من مشاكل وتيارات . ولكن الأقدار شاءت أن ينتقل العباسيون من الطائف بالحجاز إلى الحميمة بالشام ، مما مهد فيما بعد لقيام الدعوة العباسية التي انتهت بقيام خلافة عظمى تولاها بنو العباس .

حرصنا على المنهج العلمي في البحث التاريخي ، واهتممنا بفلسفة التاريخ ، ومناقشة النصوص القديمة ، وبعقد الدراسات المقارنة ، وبالربط بين الموضوعات ، كما حرصنا على أن يكون بحثنا وحدة فكرية متسلسلة متكاملة إلى جانب عنايتنا بالأسلوب ، وبعدم الإسراف في ذكر النصوص التاريخية ، وربطنا بين الزمان والمكان ، فوضحنا أثر الظروف الطبيعية في تاريخ الطائف . واتجهنا بدراستنا اتجاهاً موضوعياً مع العناية بالتسلسل الزمني .

أرجو أن يكون التوفيق قد حالفني في تقديم هذا البحث ، وأن أكون قد توصلت إلى النتائج العلمية التي قصدتها وأردتها .

وختاماً ، وفقنا المولى سبحانه وتعالى جميعاً إلى رفعة الإسلام ، وتاريخه ، وحضارته ، انه عز وجل ولي التوفيق .

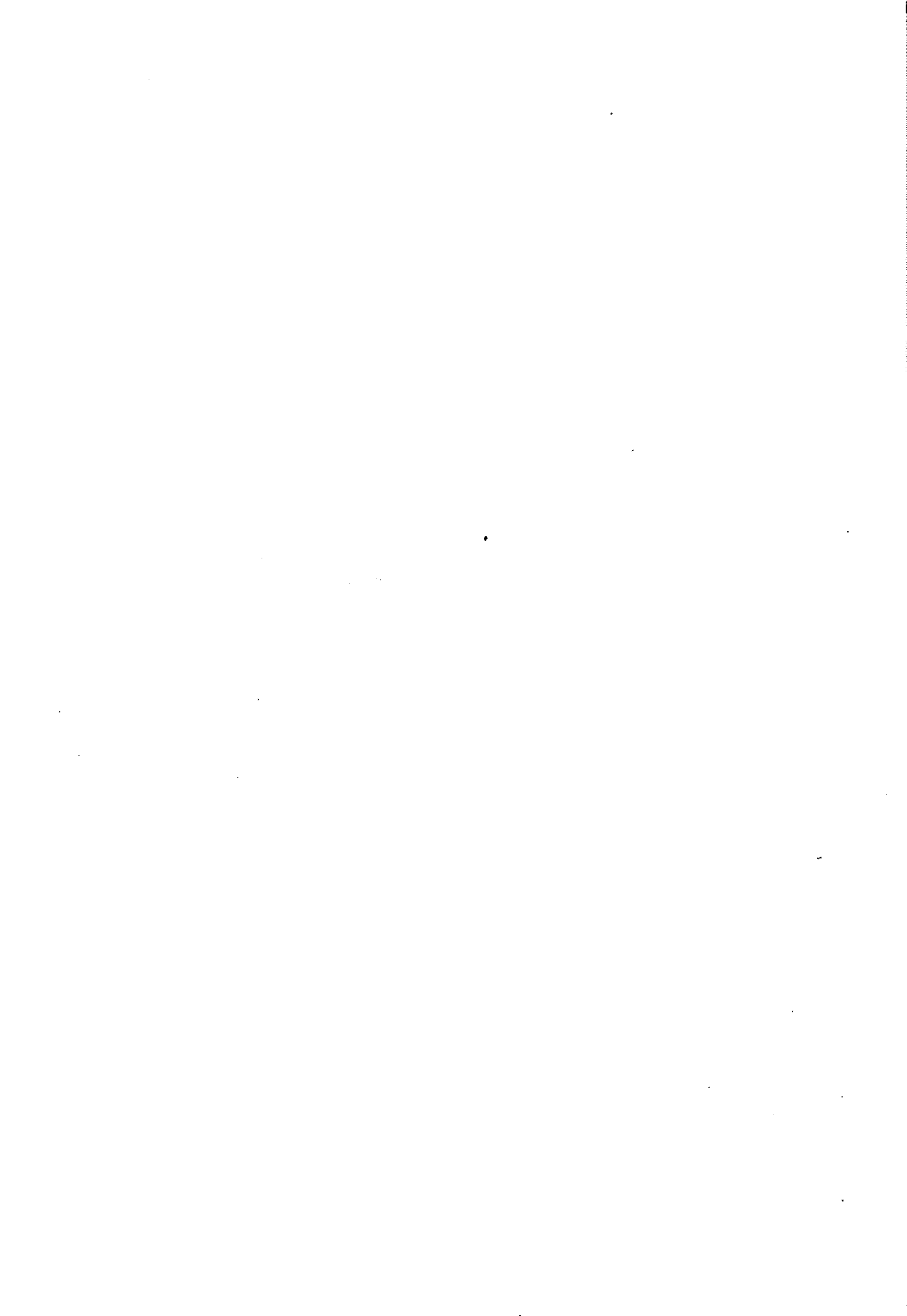
الدكتورة
نادية حسني صقر

مكة في ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ
٢٨ فبراير ١٩٨٠ م

البَابُ الأوّل

مدينة الطائف في العصر الجاهلي

١ – نشأة مدينة الطائف
٢ – الحياة السياسية في مدينة الطائف
٣ – الحياة الاقتصادية
٤ – الحياة الدينية
٥ – مجتمع الطائف



بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

مدينة الطائف في العصر الجاهلي

١ ـ نشأة مدينة الطائف

الإنسان ، طوال تاريخه ، في صراع دائم مع البيئة ، وكلما ارتقت درجة حضارته أمكن له التغلب على حتميات البيئة أولاً ، ثم تسخير امكانيات هذه البيئة لتحقيق مصالحه . أما الإنسان الذي لا يزال في أول طريق الحضارة ، فهو واقع تماماً تحت تأثير البيئة الطبيعية ، والعوامل الجغرافية ، بحيث تصبح حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية انعكاسات واضحة لملامح البيئة .

ونستطيع أن نقرر أن الجزيرة العربية في عصر الجاهلية ، كانت متأثرة تماماً بظروف البيئة الطبيعية ، وكان تنوع أشكال وملامح الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أرجاء هذه الجزيرة العربية ، نتائج حتمية لتنوع معالم البيئة .

وقامت في الجزيرة العربية ثلاثة أشكال للحياة السياسية ، أرقاها شكل الدولة في اليمن ، حيث تسقط الأمطار الموسمية الصيفية الوفيرة(١) ، فتوفر إمكانيات الزراعة . ورغم وعورة سطح اليمن وانتشار الجبال ، فقد استفاد اليمنيون من أمطارهم الغزيرة ، فحولوا جبالهم إلى مصاطب ومدرجات ، زرعوا عليها أنواعاً متعددة من الغلات

(١) تصطدم الأمطار الموسمية بالقرن الأفريقي ، ثم تنحرف إلى اليمن لتسقط أمطار غزيرة في الصيف .

الموسمية[1] ، التي أصبحت أساساً لقيام صناعات مختلفة ، صدرتها اليمن إلى دول العالمين القديم والوسيط[2] .

وأدى الاشتغال بالزراعة في اليمن ، إلى قيام تجمعات سكانية ومجتمعات زراعية متطورة ، بدأت بالمحفد[3] ، ثم بالمخلاف[4] وانتهت بقيام الدولة وتوالت على اليمن ثلاث دول كبرى هي : المعينية[5] ، والسبئية[6] ، والحميرية[7] ،

أما الشكل الثاني للحياة السياسية في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، فهو شكل المدينة ، كوحدة سياسية ، وقد ظهر في بلاد الحجاز ، فنصيب الحجاز من الأمطار قليل ، بالقياس بأمطار اليمن ، مما يترتب عليه أيضاً قلة المياه الجوفية . ولذا قامت عدة مدن حول الواحات الخصبة المتناثرة في بلاد الحجاز ، تتفاوت في السعة والأهمية ، وأشهرها يثرب[8] والطائف وخيبر وفدك وتيماء[9] .

وقد تطورت هذه الواحات ونمت حتى أصبحت مدناً عامرة ، وتنتشر بين هذه المدن صحارى وبوادي يعيش أهلها على الرعي وما يرتبط به من حرف أخرى . ولم تنجح هذه المدن المتناثرة في توحيد كلمتها بحيث تقيم دولة واحدة كبرى ، كما حدث في اليمن . واختلفت الحياة في كل مدينة منها ، فقد حتمت الظروف الطبيعية

---

(١) وأشهرها : التوابل ، والبخور ، والأعشاب الطبية ، والفاكهة التي تنمو في البيئات الموسمية .

(٢) كانت معابد العالمين القديم والوسيط محتاجة إلى البخور لمعابدها ، والتوابل للطعام .

(٣) المحفد : يضم عدة قصور ، وكان القصر يشبه القلعة أو الحصن ، ويحيط به سور منيع ، ويقيم فيه شيخ أو أمير ذو (الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٣) .

(٤) المخلاف : هو مجموعة محافد ويتولاه أمير يسمى قيل .

(٥) قامت الدولة المعينية (١٣٠٠ – ٦٥٠ ق . م) في منطقة الجوف بين نجران وحضرموت
O'Leary: Arabia before Muhammed, P. 95.

(٦) الدولة السبئية (٩٥٠ – ١١٥ ق . م) وهي التي أنشأت سد مأرب (سد العرم) ، ولها حضارة عظيمة . (جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام) .

(٧) الدولة الحميرية (١١٥ ق . م – ٥٢٥ م) وسقطت نتيجة الغزو الحبشي (ابن هشام : كتاب التيجان في ملوك حمير) .

(٨) تقع شمال مكة ويحدها جبل أحد من الشمال ، وأرضها خصبة مستوية ، سكنها العماليق ثم اليهود ثم الأوس والخزرج (الأصفهاني : كتاب الأغاني حـ ١٩ ص ٩٤) .

(٩) استقرت القبائل اليهودية بعد نزوحها من فلسطين سنة ٧٠ م في أخصب واحات الحجاز ، ومنها خيبر وفدك وتيماء ، وأعطتها طابعها حتى ظهر الإسلام .

والبيئة أنواعاً مختلفة من الحياة ، ولذا أصبح لكل مدينة طابعها وشكلها السياسي .

أما الشكل السياسي الثالث ، فهو أكثرها بدائية وفطرية ، إذ أصبحت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية أيضاً ، وظهر الشكل القبلي في الصحارى العربية حيث الجدب والقحط ، فالأمطار نادرة ، والآبار قليلة ، ولا تسمح بحياة زراعية ، وإنما تغطي الأرض بالأعشاب والكلأ مما ترعاها الأغنام والإبل ، فعاشت قبائل الصحراء في طور الرعي ، مما حتم عليها حياة التنقل والترحال ، فلم تقم المنازل الثابتة ، وأصبح من المستحيل قيام قرى أو مدن أو دول .

وعاش هؤلاء البدو في نطاق القبيلة ، تحميهم وتنظم العلاقات بين أفرادها ، وأصبحت القبائل في صراع دائم حول موارد المياه ومناطق الرعي ، وانطبعت كل قبيلة بطابع خاص ميزها عن غيرها[(١)] .

هذه هي الأشكال السياسية الثلاثة التي ظهرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام . ولنخصص الدراسة الآن عن بلاد الحجاز ، حيث تقع مدينتنا الطائف .

شهدت بلاد الحجاز مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو أكثر ، وقد تزداد كميات الأمطار ويشتد نزولها فتتخذ شكل السيول [(٢)] . وليس في شمال الحجاز أرض يمكن للإنسان سكناها سوى الواحات المنعزلة ، ولا تزيد مساحة أكثرها عن عشرة أميال مربعة ، ولذا أصبح خمسة أسداس سكان الحجاز من البدو ، وأصبح اقتصاد الحجاز غالباً هو اقتصاد رعي وتنقل[(٣)] .

وتختلف الحدود الجغرافية للحجاز عن حدوده القديمة ، كما اختلف الجغرافيون والمؤرخون الأقدمون في التحديد الجغرافي للحجاز ، فالاصطخري[(٤)] يجعل بلاد الحجاز تشغل ثلثي « ديار العرب » . ويذكر الألوسي أن « الحجاز هو ما بين نجد وتهامة ، وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام ، وسمي حجاز الحجزة بين نجد وتهامة »[(٥)] .

---

(١) الخربوطلي : تاريخ العالم الإسلامي ص ٨ – ٩ .

(٢) خصص البلاذري في كتابه فتوح البلدان فصلاً عن سيول مكة (ص ٥٣ – ٥٥) .

(٣) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ٢٠ .

(٤) الاصطخري : المسالك والممالك ص ٢١ .

(٥) الألوسي : بلوغ الأرب حـ/١ ص ١٨٧ ، أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم حـ ١ ص ٨٠ .

وتختلف دوافع وظروف قيام المدن ، فهناك مدن تقوم نتيجة ظروف البيئة ، وتطور الحياة الاجتماعية ، وقيام التجمعات السكانية التي لا تلبث أن تنمو وتتزايد ، تحقيقاً لاحتياجات الإنسان ، وحاجاته للحياة في مجتمع ، فالإنسان مدني بطبعه . فيصبح قيام هذه المدن نابعاً من البيئة واحتياجات السكان . ومن أمثلة هذه المدن مدن اليمن ، وبعض مدن الحجاز .

وهناك مدن أخرى تقوم نتيجة ظروف سياسية ، أو عوامل دينية . وخير مثال للنوع الأول مدينة (سامراء) [1] التي قامت في بلاد العراق ، نتيجة تحول الخليفة العباسي الثامن المعتصم من الاعتماد على الفرس إلى الاعتماد على الأتراك ، وضيق أهالي بغداد لهؤلاء الأتراك ، فأنشأ (سامراء) كعاصمة سياسية جديدة للدولة العباسية يعيش فيها مع أتراكه . وهذا النوع من المدن لا يعيش طويلاً ، فإذا زالت الضرورة السياسية ، سارعت المدينة إلى التدهور ، ولذا تضاءلت مدينة سامراء بعد نحو ٦٨ سنة فحسب .

أما المدن التي تقوم نتيجة دوافع دينية ، فخير مثال لها مدينة مكة . فقد قامت مكة كمدينة نتيجة بناء الكعبة [2] . رغم أن المكان الذي قامت فيه مكة لا تتوفر له إمكانيات الحياة ومقومات الحضارة الطبيعية . فقد قامت مكة في واد غير ذي زرع ، لا تتوفر له حاجات أهلها من موارد المياه ، ولذا ظلت مشكلة المياه دهراً طويلاً [3] . وازدادت المشكلة بعد اندثار بئر زمزم ، المورد الرئيسي للمياه في مكة [4] .

ولا بد لبقاء ونماء المدن من توفر وسائل الحياة لسكانها ، وتواجد أسس الحضارة ، مما يحقق التقدم والرخاء . وقد رأينا العباسيين حين أنشأوا بغداد [5] ، والفاطميين حين

---

(١) أنشأ الخليفة العباسي الثامن المعتصم بالله مدينة سامراء ليقيم فيها مع جنوده الأتراك بعد شكوى أهل بغداد من خشونة الأتراك . والاسم الأصلي هو (سرور من رأى) وأصبح يطلق عليها بعد خرابها اسم (ساء من رأى) إذ انتقل الخلفاء العباسيون مرة أخرى إلى بغداد (ياقوت : معجم البلدان ، مادة سامراء) .

(٢) اختار الله عز وجل هذا المكان الطاهر لقيام بيته الحرام كما جاء في الآية الكريمة (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) . وقال الطبري في تاريخه (حـ ١ ص ١٧٩) «وأوصى الله إلى ابراهيم أن يأتي مكة وليس يومئذ بمكة بيت» .

(٣) المسعودي : مروج الذهب حـ ٢ ، ص ٤٦ .

(٤) أعاد عبد المطلب بن هاشم الكشف عن بئر زمزم .

(٥) أنشأ الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ ، واعتنى باختيار مكان بنائها .

أنشأوا القاهرة [١] ، يهتمون باختيار المكان ذي التربة الخصبة الصالحة ، وبتوفر موارد المياه ، وبطيب المناخ على مدار السنة ، مع توفر وسائل التحصين والحماية .

أما مدينتنا ، أي مدينة الطائف ، فقد قامت نتيجة ظروف البيئة الطبيعية ، وتوافر وسائل الحياة والحضارة والتجمع السكاني . فأصبحت الطائف «هبة الله» أو «منحة الطبيعة» . فقد ظللت الرعاية الإلهية السامية هذه البقعة من أرض الحجاز ، لتكون مكاناً لمدينة جميلة ، زاهرة بسكانها وبحضارتها ، معتزة بخيراتها ورخائها .

أما عن موقع الطائف ، فهي تقع على مسافة خمسة وسبعين ميلاً تقريباً إلى الجنوب الشرقي من مكة [٢] . وتقع الطائف «على ظهر جبل غزوان» [٣] ، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل نحو ستة آلاف قدم[٤] .

وأدى هذا الارتفاع في السطح ، إلى اعتدال المناخ ، وإلى برودته أحياناً ، وهناك نظرية جغرافية معروفة تربط بين درجة الحرارة ، ودرجة الحضارة ، فتجعل انخفاض درجة الحرارة من عوامل التقدم الحضاري . فلا غرو إن أصبحت مدينة الطائف من أكثر بلاد العرب حضارة .

فيذكر الأصطخري[٥] عن جهل غزوان الذي تقع عليه الطائف : «وليس بالحجاز – فيما علمته – مكان هو أبرد من رأس هذا الجبل ، ولذا اعتدل هواء الطائف ، وبلغني أنه ربما جمد الماء في ذروة هذا الجبل ، وليس بالحجاز مكان يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع» . ويصف الألوسي [٦] جو الطائف بأنه «شديد البرد» . ولذا أصبحت الطائف مصيفاً لأهل مكة ، يلجأون إليها هرباً من الصيف

(١) قام جوهر الصقلي ، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بارساء قواعد مدينة القاهرة بعد دخوله مدينة الفسطاط ، وكان يطلق عليها أول الأمر اسم (المنصورية) نسبة إلى المنصور والد المعز ، وحين قدم المعز إلى مصر بعد أربع سنوات من الفتح الفاطمي أطلق عليها اسم القاهرة .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٢ .
ويذكر ياقوت (معجم البلدان حـ ٤ ص ٨) أن بين الطائف ومكة اثنا عشر فرسخاً .

(٣) الاصطخري : المسالك والممالك ص ٢٤ .

(٤) حتي : تاريخ العرب ص ١٢٤ ، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية في مادة (طائف) ان الارتفاع ٥٤٠٠ قدم .

(٥) الاصطخري : المسالك والممالك ص ٢٤ .

(٦) الألوسي : بلوغ الأرب حـ ١ ص ١٩١ .

القائظ ، وأصبح لأشراف مكة قصور فخمة في الطائف يقضون فيها شهور القيظ [1] .

ولا شك أن اعتدال المناخ خير ما يجذب سكان الجزيرة العربية إلى هذه البقعة ، وخير ما يعين على النشاط البشري . كما أنه يؤثر في أخلاقهم وأحوالهم النفسية ، مما سندرسه في فصل الحياة الاجتماعية .

وإن كانت مناسبة المناخ قد ساعدت على التجمع السكاني ، فقد تعاون على ذلك أيضاً وفرة الخيرات الطبيعية مما أفاض في وصفه الجغرافيون [2] والمؤرخون الأقدمون . ومما سنفصله نحن في فصل الحياة الاقتصادية .

وقد وصف ياقوت[3] الطائف بأنها « ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكه وبها مياه جارية وأودية » ، وتحدث الألوسي[4] عن « كثرة البساتين التي تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال » .

وهكذا اجتمع للطائف طيب المناخ ، ووفرة وسائل الحياة ، من مياه وغلات متنوعة . ولندرس الآن قيام تلك المدينة وتطورها في العصر الجاهلي .

وليس من اليسير على الباحث دراسة التاريخ القديم لمدينة الطائف ، لقلة الحقائق التاريخية ، واضطراب روايات المؤرخين الأقدمين . وخير ما يؤيد رأينا هذا ، ما قاله المؤرخ المعاصر جواد علي[5] ، وهو من خيرة علمائنا العرب الذين تعمقوا في تاريخ العرب قبل الإسلام ، إذ قال : وتاريخ مدينة الطائف تاريخ غامض ، لا نعرف من أمره شيئاً ، إذ لم تمس تربتها أيدي علماء الآثار بعد ، كما أن السياح لم يجدوا في الطائف كتابات قديمة بعد . ولكن مكاناً مثل الطائف لا بد أن يكون له تاريخ قديم ، ولا يعقل أن يكون من الأمكنة التي ظهرت ونشأت قبيل الإسلام . وليس لنا من أمل الحصول على شيء من تاريخ الطائف إلا بقيام العلماء بمناجاة تربتها

---

(١) Lammens: Taif a la Veille de l'Hegire, P. 45.

(٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٨ ، الاصطخري : المسالك والممالك ص ٢٤ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣٩ ، البكري : معجم ما استعجم حـ ٣ ص ٣١ .

(٣) معجم البلدان حـ ٤ ص ٨ .

(٤) بلوغ الأرب حـ ١ ص ١٩١ .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٢ – ١٤٣ .

واستدراجها لتبوح لهم بما تكنه من كتابات مسجلة في الألواح فتحدث عن تاريخ هذا المكان المهم .

وإن كانت الآثار هي خير وثائق الماضي وأصدق أسس الدراسة التاريخية ، إلا أن الآثار القليلة التي اكتشفها علماء الآثار لم توضع بعد موضع الدراسة العلمية فقد عثر الباحثون على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بمدينة الطائف الحديثة ، وفي مواضع غير بعيدة عنها ، وقد تبين أن بعضاً منها بالنبطية ، وبعضاً آخر بالثمودية ، وأن بعضاً بأبجدية أخرى ، وأن بعضاً بأبجدية القرآن الكريم ، أي بقلم إسلامي . ولا يستبعد عثور العلماء في المستقبل على آثار تكشف عن تاريخ من سكن الطائف قبل ثقيف . وهذه الآثار القليلة التي اكتشفت لم تدرس حتى الآن .[1]

ولذا أصبح من واجبنا العلمي ، أن نعتمد في دراستنا للتاريخ القديم لمدينة الطائف على المؤرخين القدامى . ويحلو دائماً لهؤلاء المؤرخين أن يراجعوا تواريخ المدن القديمة إلى عصور سحيقة ، وينسجوا حولها روايات هي أقرب إلى الأساطير ، كما يحاولون أيضاً إضفاء صفات دينية حولها . وقد رأينا في مصادرنا القديمة مثل هذه الأساطير حين الحديث عن تاريخ الطائف ، وعن تاريخ مكة . ونجد كثيراً من الروايات الخيالية عن بناء الكعبة قبل ابراهيم عليه السلام ، وتتصف هذه الروايات بالتناقض ، فضلاً عن مخالفتها للكتب السماوية .[2]

وسار المؤرخون الأقدمون في ذكرهم لتاريخ مدينة الطائف على هذا النهج ، فنجد روايات متناقضة ، تختلف في عصورها ، وتفاصيلها ، وشخصياتها .

ويمكننا أن نقرر أن تسمية (الطائف) مأخوذة من ذلك (السور) أو (الحائط) الذي يحيط ويطوف بالمدينة .

وقد فسر ياقوت [3] لفظ (الطائف) لغوياً وتاريخياً فقال : «الطائف العاس

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عقد الدكتور علي حسني الخربوطلي فصلاً في كتابه (الكعبة على مر العصور ص ٧–١٠) بعنوان (روايات حول الكعبة قبل ابراهيم) ، وذكر روايات للمؤرخين تنسب بناء البيت إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ، ومن المؤرخين من نسب بناءها إلى آدم أو إلى ابنه شيث . ثم يقول الدكتور الخربوطلي : وهذه الروايات لا تستند إلى مصدر أصلي قديم ، وجميع الشواهد تؤكد أن وادي مكة قبل نزوح ابراهيم واسماعيل كان غير ذي زرع ، لا يسكنه أحد لعدم توافر وسائل الحياة .

(٣) معجم البلدان حـ ٤ ص ٨ .

بالليل ، وأما الطائف التي بالغور فسميت طائفاً بحائطها المبني حولها المحدق بها ، والطائف والطيف في قوله تعالى : (إذا مسهم طائف من الشيطان) ما كان كالخيال والشيء يلم بك ، وقوله تعالى : (فطاف عليها طائف من ربك) ، لا يكون الطائف إلا ليلاً ولا يكون نهاراً ، وقيل في قول أبي طالب بن عبد المطلب : نحن بنينا طائفاً حصيناً ، قالوا : «يعني الطائف التي بالغور من القرى» والطائف هو وادي وج وهو بلاد ثقيف .

ولكن – كما ذكرنا – يحلو لمؤرخينا القدامى إضفاء لون ديني على رواياتهم التاريخية . فذهب بعضهم أن قيام مدينة الطائف هو من نتاج دعوات ابراهيم ، وأنها قطعة من أرض ذات شجر كانت حول الكعبة ، ثم انتقلت إلى مكانها بدعوة ابراهيم فطافت حول البيت ، ثم استقرت في مكانها ، فسميت الطائف ، وذهبت روايات أخرى إلى أن جبريل عليه السلام اقتطع هذه البقعة من فلسطين ، وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت ثم أنزلها حول الطائف .[1]

ولنقدم نصاً نعتبره نموذجاً لروايات الأقدمين ، فيروي ياقوت [2] : «وقال ابن عباس : سميت الطائف لأن ابراهيم عليه السلام لما أسكن ذريته مكة وسأل الله أن يرزق أهلها من الثمرات ، أمر الله عز وجل قطعة من الأرض أن تسير بشجرها حتى تستقر بمكان الطائف ، فأقبلت وطافت بالبيت ، ثم أقرها الله بمكان الطائف ، فسميت الطائف لطوافها بالبيت» .

ويعلق المؤرخ العربي المعاصر جواد علي [3] على هذه الروايات بقوله : وهكذا أكسبت هذه الروايات الطائف قدسية ، وجعلت لها مكانة دينية ، وهي روايات يبدو أنها وضعت بتأثير من سادات ثقيف المتعصبين لمدينتهم ، والذين كانوا يرون أن مدينتهم ليست بأقل شأناً من مكة أو يثرب ، وقد كان بها سادات وأشراف كانوا أصحاب مال وثراء .

كان العمالقة هم السكان القدامى لمدينة الطائف . وكان الاسم القديم لهذه

---

(١) المقدسي : البدء والتاريخ حـ ٢ ص ١٠٩ ، ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٤٢٠ ، جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص١٤٣ .

(٢) معجم البلدان حـ ٤ ص ٩ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٣ – ١٤٤ .

المدينة هو (وج) نسبة إلى وج بن عبد الحي ، وهو من أبرز العماليق الذين نزلوها ، وهو أخ أجا الذي سمي به جبل طيء [1] وقد ذكر علي بن عراق عن صاحب كتاب المطالح «أن وادي وج هو أرض الطائف جميعها» [2] بينما يذكر الألوسي [3] أن اسم (وج) يطلق على واد من وديان الطائف ، وهو الذي ينشد فيه الثقفي :

سقيا لوج وجنوب وج   واحتله غيث دراك الثج

وإن كانت هذه الرواية هي التي يأخذ بها معظم المؤرخين المحدثين ، إلا أن مصادرنا القديمة حفلت بكثير من الروايات التي تتحدث عن التاريخ الأول لمدينة الطائف ، وعن الفترة التي توسطت بين سيادة وج بن عبد الحي وسيادة قبيلة ثقيف .

فنجد رواية تجعل أقدم سكان الطائف هم بنو مهلاليل بن قيتان ، وقد نزلوها قبل الطوفان ، ثم هلكوا خلاله ، فسكن الطائف بعدهم بنو هانئ بن هذلول بن هوذلة بن ثمود ، فأعادوا تعميرها ، حتى قدمت جماعة من الأزد على عهد (عمرو بن عامر) فأخرجوهم عنها ، وأقاموا مكانهم ، ثم توالى عليها العرب حتى سادت عليها ثقيف [4] .

وتذكر بعض الروايات أن قوم ثمود هم الذين نزلوا الطائف بعد العماليق ، فانتزعوها منهم ، وذلك قبل نزوحهم إلى وادي القرى ، بسبب منازعة القبائل لهم [5] ومن ثم ربط رواة هذه الأخبار نسب ثقيف بثمود ، وقد جعل بعض أهل الأخبار ثقيفاً مولى من موالي هوازن ، ونسبهم آخرون إلى إياد [6] .

ويروي ابن الأثير [7] : «كانت أرض الطائف قديماً لعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر ، فلما كثر بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان ، غلبوهم على الطائف بعد قتال شديد ، وكان بنو عامر يصيفون بالطائف ويشتون بأرضهم من نجد» .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٩ .

(٢) علي بن عراق : نشر اللطائف في قطر الطائف (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ) ص ٨ .

(٣) بلوغ الأرب حـ ١ ص ١٩١ .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب حـ ١ ص ٣١٢ وجواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر حـ ٢ ص ٦٤١ .

(٦) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٦ .

(٧) الكامل حـ ١ ص ٤٢٠ .

وهكذا اضطربت الروايات قبل سيادة قبيلة ثقيف على مدينة الطائف ، وكانت ثقيف تقيم بالطائف . وروى البكري [١] وياقوت [٢] رواية طويلة حول تسمية ثقيف بهذا الاسم ، ملخصها ، أن قسياً بن منبه بن بكر بن هوازن ، لما رحل عن وادي القرى إلى (وج) التي عرفت فيما بعد باسم الطائف ، قابل رئيسها عامر بن الظرب العدواني [٣] وطلب منه تزويجه من ابنة له ، فولدت له ثلاثة أولاد [٤] ، ثم ماتت ، فتزوج أختها [٥] ، وكان قسي خلال رحلته ، قد نزل على امرأة يهودية عجوز ، عطف عليها ، فأصبح منها بمنزلة الابن ، حتى إذا حضرتها الوفاة أعطته عيداناً من العنب ، وطلبت منه أن يغرسها في أرض تتوفر لها المياه . وغرس قسي هذه العيدان في وادي وج فأنبتت ، فقال له أهالي وج : قاتله الله ما أثقفه ، حين ثقف عامراً حتى أمّنه وزوّجه ، وأنبت تلك القضبان حتى أطعمت فسمي ثقيفاً منذ ذلك الحين .

وتكاثر أولاد ثقيف ، وأقاموا مع بني عامر ، حتى ازداد عددهم ، وتضخمت قوتهم ، فرأوا اجلاء بني عامر والانفراد بالطائف . فروى ابن الأثير [٦] : « كانت أرض الطائف قديماً لعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر ، فلما كثر بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ... غلبوهم على الطائف بعد قتال شديد ... فرأت ثقيف البلاد فأعجبهم نباتها وطيب ثمرها ، فقالوا لبني عامر : إن هذه الأرض لا تصلح للزرع ، وإنما هي أرض ضرع ، ونراكم على أن آثرتم الماشية على الغرس ، ونحن أناس ليست لنا مواش ، فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع بغير مؤونة ، تدفعون إلينا بلادكم هذه فنثيرها ونغرسها ونحفر منها الأطواء ولا نكلفكم مؤونة ، نحن نكفيكم المؤونة والعمل ، فإذا كان وقت إدراك الثمر كان لكم النصف كاملاً ولنا النصف بما عملنا .

---

(١) معجم ما استعجم حـ ١ ص ٦٥ – ٦٦ .
(٢) معجم البلدان حـ ٤ ص ٩ – ١٠ .
(٣) يصفه البكري (حـ ١ ص ٦٥) بأنه « سيد قيس وحكمها » .
(٤) تسمى هذه الزوجة (زينب) وأنجبت عوفا وجشم ودارسا .
(٥) وهي آمنة وأنجبت ولداً هو ناصر وبنتاً هي المسك .
(٦) الكامل حـ ١ ص ٤٢٠ . جاءت هذه الرواية في صورة أخرى في معجم البلدان لياقوت حـ ٤ ص ١٠ – ١١ وفي كتاب الأغاني للأصفهاني حـ ٤ ص ١٠ .

«فرغب بنو عامر في ذلك وسلموا إليهم الأرض ، فنزلت ثقيف الطائف ، واقتسموا البلاد وعملوا الأرض وزرعوها من الأعناب والثمار ، ووفوا بما شرطوا لبني عامر حيناً من الدهر . وكان بنو عامر يمنعون ثقيفاً ممن أرادهم من العرب ، فلما كثرت ثقيف وشرفت حصنت بلادها ، وبنوا سوراً على الطائف وحصنوه ، ومنعوا عامراً مما كانوا يحملونه إليهم عن نصف الثمار . وأراد بنو عامر أخذه فلم يقدروا عليه ، فقاتلوهم فلم يظفروا» .

وفي ذلك ذكر ياقوت فلما اشتدت شوكة ثقيف وكثرت عمارة وج اتهم العرب بالحسد وطمع فيهم من حولهم وغزوهم فاستغاثوا ببني عامر فلم يغيثوهم فأجمعوا على بناء حائط يكون حصناً لهم ... ثم جاءهم بنو عامر ليأخذوا ما تعوّدوه فمنعوهم عنه وجرت بينهم حرب انتصرت فيها ثقيف وتفردت بملك الطائف فضربتهم العرب مثلاً .

وهكذا تحقق النصر لقبيلة ثقيف ، وانفردت بالسيادة في الطائف ، وأصبحت من أعظم القبائل العربية ، التي يضرب بقوتها وثروتها المثل . فقد أنشد أبو طالب ابن عبد المطلب :

منعنـــا أرضنـــا من كل حـــي ... كمـــا امتنعت بطـائفهـا ثقيف

أتـــاهم معشر كي يسلبوهـــــم ... فحالت دون ذلكـمُ السيوف [1]

وهكذا بدأت قبيلة ثقيف تطرق أبواب التاريخ ، فيكون لها شأنها السياسي والديني والاقتصادي في العصر الجاهلي ، ثم تقوم بدورها المرموق المؤثر في العصر الإسلامي .

٢ ـ الحياة السياسية في مدينة الطائف

نجحت ثقيف – كما رأينا – في انتزاع السيادة في مدينة الطائف ، وإن كانت الحياة الدول ، فقد عفا الزمان على عناصر السكان القديمة في الطائف . ولما كانت الطائف ذات مكانة اقتصادية ممتازة ، فقد بدأت ثقيف سيادتها السياسية بالسيطرة

---

(١) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ١٠ .

الاقتصادية على مدينة الطائف . والاقتصاد دائماً هو مفتاح كل سيادة سياسية ، وأساس كل نظام سياسي ناجح . كما كانت مدينة الطائف أكثر مدن الحجاز ثراء ورخاء ، مما يجعلها مطمعاً للقبائل البدوية الضاربة في الصحراء ، ولذا كان هذا الحائط المنيع ، الذي يطوف بالمدينة ، أمراً محتماً ، لحمايتها من غارات البدو [1] .

وقد كان لوقوع الطائف على مرتفع ، ولحائطها المزود بأبراج واستحكامات الفضل في صد الأعراب ومنعهم من غزوها ونهبها . ويبدو أن أهل الطائف قد حاكوا أهل اليمن في وسائل الدفاع عن مدنهم وقراهم ، حيث كانوا يبنوها على المرتفعات غالباً ، ثم يحيطون ما يبنونه بأسوار ذات أبراج لمنع العدو من الدنو فيها ، ولا سيما الأعراب ، وأخذها على غرة حيث تقفل أبواب الأسوار وتغلق ليلاً ، وخاصة في أوقات الخطر ، فلا يكون في استطاعة أحد ولوجها . ولذلك صارت هذه التحصينات سداً منيعاً أمام الأعراب البدو [2] . بل أن الجيش الإسلامي بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو جيش نظامي ، وهو أيضاً جيش الإيمان ، وجد صعوبات في حصار هذا الحائط أو في اختراق تحصيناته كما سنرى في الباب الثاني من بحثنا هذا .

وأصبح لقبيلة ثقيف السيادة السياسية والدينية والاقتصادية في مدينة الطائف ، واحتفظت بهذه السيادة إلى ما بعد ظهور الإسلام .

واختلفت قبيلة ثقيف عن سائر قبائل الجزيرة العربية ، وقبائل الحجاز . فقد أصبحت قبيلة حضرية ، بكل ما تحمله كلمة «حضرية» من مفاهيم وأبعاد . وقد بدأت سيادتها السياسية عن طريق فلاحة الأرض واستثمارها ، كما مر بنا . وأصبحت الزراعة هي الحرفة الأولى التي تشتغل بها ثقيف ، ولم تجد عناء في احترافها الزراعة ، فالأرض خصبة ، والمياه وفيرة ، والمناخ معتدل [3] . وتستطيع الطائف أن تصبح

---

(١) ذكر ياقوت (معجم البلدان حـ ٤ ص ٩) أن مسعود بن معتب الثقفي حين قام ببناء الحائط قال : «... وأبني لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لا يصل اليكم أحد من العرب ...» .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٨ .

(٣) يقول ياقوت (معجم البلدان حـ ٤ ص ٩) عن الطائف : «وهي طيبة الهواء شمالية ، ربما جمد فيها الماء شتاء» .

« بستان الحجاز » الذي يمده بحاجاته من الغلات الزراعية [١] .

والمجتمع الزراعي يختلف في حياته السياسية عن سائر المجتمعات ، فهو في حاجة إلى حكومة منظمة ، تنظم العلاقات بين أصحاب الأراضي فيما بينهم ، كما تحدد الحقوق والواجبات بين الفلاحين وملاكي الأراضي وتقوم بمشاريع الري ، وتقيم الجسور والقنوات . وتشرف على تصدير هذه الغلات ، بعد إعدادها للتصدير ، وتعمل على تحسين أنواع الأشجار ، بجلب الأنواع الجديدة منها من البلاد التي تشتهر بها . وتدل دراستنا للحياة الاقتصادية لمدينة الطائف قبل الإسلام ، وما تمتعت به هذه المدينة من رخاء اقتصادي على الدور السياسي والإداري الذي قامت به حكومة ثقيف ، في تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وفي ضبط الأمن [٢] ، وتحقيق الاستقرار الاجتماعي . فضلاً عن نجاح ثقيف في توفير وسائل حماية الطائف من الاغارات الخارجية ، والاهتمام بتحصينها ، وتدريب أبنائها على حمل السلاح والقتال ، دفاعاً عن رخائهم الاقتصادي ، فقد كانوا يدركون أن ثراء الطائف يجعلها مطمع كل طامع .

ولذا أصبحت الطائف في العصر الجاهلي دويلة أو جمهورية صغيرة لها تنظيماتها الحكومية الداخلية الدقيقة ، ولها اتصالاتها الخارجية ، ولها جيشها الدفاعي ، وقد أصبح الاقتصاد المستقر المزدهر أساساً لحياة سياسية راقية [٣] .

ولم تجد ثقيف منافسة من قبائل أخرى داخل الطائف حول السيادة السياسية في هذه المدينة . وكان عدد أبناء هذه القبيلة قليلاً لا يزيد على سبعين ألف نسمة ، بينما الطائف ذات رخاء اقتصادي وفير ، يحول دون التنافس الاقتصادي أو الصراع الاجتماعي . وأدت قلة عدد أبناء القبيلة ، إلى الاعتماد على الحصون والأبراج للدفاع عن المدينة ، نتيجة قلة حملة السلاح ، مع العناية بتدريب كل قادر على القتال عسكرياً ، هذا بينما كانت قبائل قريش في مكة ، والأوس والخزرج في يثرب ، تعتمد

---

(١) ويذكر ياقوت (معجم البلدان حـ ٤ ص ٩) عن الطائف أيضاً : « ... وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك من العنب اللذيذ ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ... وفواكه أهل مكة منها ... »

(٢) يقول ياقوت (معجم البلدان حـ ٤ ص ٩) عن الطائف : « ... وكانت ملجأ للخائف إذا جاءها أمن » .

(٣) كانت ثقيف تفخر بما وصلت اليه من استقرار ورخاء فيقول ياقوت (المصدر السابق) : « .... وقد افتخرت ثقيف بذلك بما يطول ذكره ... » .

على أبنائها في الدفاع عن مصالحها وكيانها . بينما رأينا يهود يثرب [١] ، ويهود خيبر [٢] ، يعتمدون على الحصون والقلاع في الدفاع عن أنفسهم ضد الاغارات .

ولم تكن ثقيف في حاجة إلى تلك التنظيمات الحكومية والإدارية التي شهدناها في مكة في العصر الجاهلي . فقد كانت حكومة من النوع الذي يسميه علماء الاجتماع «الباترياركا» أي تتبع نظام الأبوة أو سيادة الرجل ، فكان لمكة أو لقريش زعيم بارز يخضع له الجميع [٣] .

ولم نجد مثل هذا النظام في قبيلة ثقيف ، فهي لم تعرف الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش ، وإنما كان في ثقيف نفر من «السادة» أو «الزعماء» يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبي ، وكان أعظم أولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم ، وواجباته كثيرة ولكنها ليست محددة . أما في مكة ، فقد كانت هناك الكعبة وما يرتبط بها من مواسم حج وعمرة ، ومن أسواق ضخمة ، مواسم يأتي فيها الحجيج من أنحاء شبه الجزيرة في الأشهر الحرم القعدة والحجة والمحرم . وهناك أيضاً قوافل قريش الكبيرة ، فكان لا بد من تنظيم آخر لأمور الجماعة . وتنافست قبائل مكة حول سدانة الكعبة [٤] حتى انتهت إلى قريش ، ثم تنافست بيوتات قريش حول هذه المناصب الشرفية ، من سدانة ورفادة وسقاية ، لصفاتها الدينية والروحية ، التي تكسب من تولاها نفوذاً أدبياً وسياسياً واسعاً .

ولم نشهد في الطائف تلك المناصب الكبيرة التي عنيت قريش بتوزيعها بالعدل والقسطاس لترضي كل بطونها وحتى لا يدب التنافس والتنافر بينها . وقد بلغ عدد هذه المناصب خمسة عشر منصباً . [٥]

---

(١) كانت هناك قلاع حصينة ليهود بني قينقاع ، وبني النضير وبني قريظة ، في يثرب ، وقد حاصر الرسول والمسلمون هذه القلاع ، وأجلوا هذه القبائل قبيلة بعد أخرى .

(٢) تجمع يهود المدينة في خيبر بعد اجلائهم عنها وتحصنوا في قلاع يهود خيبر حتى نجح الرسول والمسلمون في فتحها .

(٣) حاشية في كتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان حـ ١ ص ٣٦ .

(٤) سدانة الكعبة ، أو حجابتها ، هي الإشراف على الكعبة ، وعلى فتحها واغلاقها ، وتنظيم الدخول اليها والخروج منها .

(٥) هذه المناصب هي : (١) السدانة (٢) السقاية أي توفير المياه للحجاج (٣) الرفادة أي توفير الطعام للحجاج (٤) الراية ويحملها أحدهم (٥) القيادة أي امارة الركب في القتال أو التجارة (٦) الاشناق أي الاشراف =

ولم تكن ثقيف في حاجة إلى كثير من المناصب الكبرى التي شهدتها مكة . فالسقاية وهي توفير المياه للحجاج ، والرفادة وهي توفير الطعام لهم ، والعمارة وهي منع الكلام بصوت عال في الكعبة . كلها مناصب تختص بمكة ونابعة من ظروفها المحلية الخاصة . كما لم تكن ثقيف في حاجة إلى المناصب التي ترتبط بالقوافل ، فهي ليست قبيلة تجارية . كما أن ثقيف لم تصل إلى تلك المرحلة البعيدة من الشورى والديموقراطية التي وصلتها قريش ، فلم يكن لثقيف مثيل لدار الندوة [1] التي كانت لقريش والتي كانت تضم شيوخ قريش ممن تجاوزوا الأربعين من عمرهم للتشاور في أمورهم العامة وإصدار قرارات تشريعية وتنفيذية .

كما تفوقت قريش على ثقيف في مجالات السياسة الدولية ، فقد ظلت ثقيف قبيلة محلية ، ولم يكن لها مثل تلك الاتصالات الدولية التي كانت لقريش . فقد ارتبطت قريش بمعاهدات سياسية واقتصادية بالدول العظمى المعاصرة ، وكان توقيع هذه الدول لهذه المعاهدات هو بمثابة اعتراف الدول بقريش كوحدة سياسية لها كيانها وقوامها واقتصادها . [2]

وارتبطت مكة بالطائف برباط وثيق ، نتيجة التقارب المكاني من جهة ، وتبادل المصالح والمنافع من جهة أخرى . فالطائف أقرب مدن الحجاز لمكة . وكان جدب

= على الديات (٧) القبة أي الاشراف على المهمات الحربية (٨) الأعنة أي تولي شؤون الخيل وقت الحرب (٩) الندوة وهي دار الشورى يجتمع فيها كبار رجالات قريش . (١٠) المشورة وصاحبها يستشار في الأمور الهامة (١١) السفارة (١٢) الأيسار وهي الأزلام التي يستخيرونها (١٣) الحكومة أي الفصل بين الناس إذا اختلفوا (١٤) الأموال المحجرة وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم (١٥) العمارة أي منع الكلام بصوت عال في الكعبة (ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ١ ص ٢٣٨ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي حـ١ ص ٣٩) .

(١) دار الندوة : هي دار حكومة مكة ، وتقع في جنوب غربي الكعبة ، بناها قصي بن كلاب مؤسس أمجاد قريش سنة ٤٤٠ م ، وكانت تنطلق منها قوافل قريش ، وتصدر قرارات سياسية واقتصادية واجتماعية ، بل كانت تنظر في زواج فتيات قريش (ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص ١٣٨ الخربوطلي : عبد المطلب جد الرسول ص ٢٣-٢٤) .

Lammens: La Meque à la Veille de L'Hegire, P. 148.

(٢) عقد هاشم بن عبد مناف مع الامبراطورية الرومانية معاهدة حسن جوار ومودة ، وتعهد الامبراطور بالسماح لتجار قريش بالترحال في أراضي الامبراطورية في سلام . وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع نجاشي الحبشة . وعقد نوفل والمطلب معاهدة سياسية مع الدولة الفارسية ، ومعاهدة تجارية مع الدولة الحميرية العربية في بلاد اليمن . ورأى العرب أن هاشماً وعبد شمس ونوفل وعبد المطلب قد «جبر الله بهم قريشاً فسموا المجبرين» ، (الطبري حـ ٢ ص ١٣ ، الخربوطلي : عبد المطلب ص ٢٢) .

مكة وفقرها في موارد المياه والإنتاج الزراعي ، وخصوبة الطائف وانتشار البساتين فيها ووفرة غلاتها ، مما يحقق التكامل بين المدينتين الحجازيتين الكبيرتين ، والتعاون بين مجتمع مكة التجاري ، ومجتمع الطائف الزراعي . حتى أصبح يطلق على المدينتين اسمي (المكتين) و(القريتين) ، ويرى المفسرون أن كلمة (القريتين) المذكورة في القرآن الكريم تعبر عن مكة والطائف ، إذ قال تعالى : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [١] . قال ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدّي ومحمد القرظي وابن زيد ، وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وعن مجاهد : يصفون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف ، وقال السدّي : عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عمرو الثقفي . [٢]

واتخذت الصلات بين مكة والطائف صورتين متناقضتين ، صورة تعاون وتكامل وصورة تنافر وبغضاء .

أما الصورة الأولى ، فقد شهدناها في ارتباط سكان المدينتين بمصالح مشتركة ، وفي تعاون اقتصادي ، فقد جمع تجار قريش الأثرياء ثروات ضخمة من اشتغالهم بالتجارة الدولية [٣] ، ومن الأسواق المنعقدة في مكة في مواسم الحج [٤] أرادوا استثمارها ، في مدينة أخرى قريبة وفي مشروعات تتصف بالضمان ، فكانت الطائف خير مجال لهذا الاستثمار ، فامتلك كثير منهم البساتين والعقارات . وأراد هؤلاء الأثرياء والأشراف الهرب من قيظ مكة صيفاً ، فأقاموا القصور الفاخرة لاقامتهم في الطائف باعتبارها المصيف الطبيعي القريب لمكة . وأهل الزراعة دائماً في حاجة إلى قروض عند بدايتهم عمليات الحرث والبذر ، على أن يسددوها وقت الحصاد ، وتقدم أثرياء مكة إلى أهالي الطائف يقرضوهم حاجتهم من المال ، وبالربا أيضاً [٥] .

---

(١) سورة الزخرف آية ٣١ .

(٢) ابن كثير : مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ٢٨٩ .

(٣) أصبح القرشيون وسطاء تجاريين بين إقليم البحر المتوسط المعروف بغلاته المتميزة المتوافرة في الشام وفلسطين وآسيا الصغرى ، وبين الاقليم الموسمي في جنوب الجزيرة العربية الذي يشتهر بغلات كان العالم القديم يحتاج إليها مثل التوابل والبخور (الخربوطلي : عبد المطلب جد الرسول ص ٣١) .

(٤) أشهر هذه الأسواق : عكاظ ، ومجنة ، وذو مجاز .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٦٠ .

كما أصبحت مكة هي السوق الطبيعي لحاصلات الطائف الزراعية ، فالمسافة قريبة ، فلا تفسد الفاكهة أو الغلات . ومكة الجدباء ، التي تستقبل في كل عام آلاف الحجاج ، وتعجز عن رفادتهم ، في حاجة ماسة لإنتاج الطائف الزراعي .

وقبيلة قريش لها عراقتها في مجالات التجارة الداخلية والخارجية ، وأخفقت سائر القبائل العربية واليهودية في منافستها ، ورحلت قوافلها في سلام وأمان ، مستفيدة من نفوذ قريش الروحي باعتبارها المشرفة على الكعبة والحج ، وأصبح من المحتم على الطائف أن تعتمد على قوافل قريش في تصريف إنتاجها الزراعي إلى أرجاء الجزيرة العربية أو إلى خارجها ، أو لاستيراد حاجاتها الصناعية مما لا تنتجه الطائف .

وهكذا أصبح لقريش يد طولى في اقتصاديات الطائف . والاقتصاد دائماً هو مفتاح السياسة ، فأصبح لقريش في الطائف ، المركز الممتاز ، مادياً وأدبياً ، اقتصادياً وسياسياً .

ويشير المؤرخ العربي المعاصر جواد علي [1] إلى نفوذ قريش في الطائف ، فيقول : تمكن أهل مكة من التغلغل إلى الطائف ومن بسط سلطانهم عليها ، بإقراض سادتها الأموال ، وبشراء الأرضين . فبسطوا بذلك سلطانهم عليها ، وأقاموا بها أعمالاً اقتصادية خاصة ومشتركة . وهكذا استغل أذكياء مكة هذا الموضع المهم ، وحولوه إلى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش .

وأصبح تعاون ثقيف مع قريش ضرورة حتمية ، فقريش تستطيع أن تضرب اقتصاديات الطائف في عنف وقوة ، متى شاء لها ذلك ، وتستطيع أن تفرض عليها عزلة أو حصاراً اقتصادياً ، مما ينعكس حتماً على سيادتها السياسية في الطائف .

وهكذا أخفقت ثقيف في منافسة قريش في ميادين الاقتصاد ، واضطرت للخضوع إلى الأمر الواقع ، والاعتماد على قريش في كثير من جوانب حياتها الاقتصادية [2] . وإذا كان الاقتصاد من أسس السياسة قديماً وحديثاً ، فقد كان الدين في ذلك العصر من أبرز الدعائم السياسية . فرأت ثقيف منافسة قريش في مجالات

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٥٣ .

(٢) نسب المؤرخ (فلهاوزن) ارتقاء مكة إلى تفوق قريش ، فقد تأثرت نهضتهم الحضارية بالعلاقات الاقتصادية مع الساميين الشماليين ، فالمقطوع به أن التجارة التي امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب الجزيرة العربية قد حملت إليهم مؤثرات ومطامح جديدة .

الدين وأرادت أن تجعل وثنها (اللات) منافساً لكعبة مكة ، فأقامت حوله حرماً على مثيل حرم الكعبة ، وأحاطته بنفس مظاهر التقديس وشعائر الدين ، وحاولت ثقيف أن تجذب الحجاج ليحجوا إلى اللات بدلاً من حجهم إلى الكعبة ، فقد كان موسم الحج بمثابة دخل سنوي ثابت لقريش تعتمد عليه في مواردها ، وازدياد عدد الحجاج يؤدي بالتالي إلى نشاط اقتصادي يتمثل في تلك الأسواق الكبيرة التي تعقد في مواسم الحج . كما أرادت ثقيف أيضاً أن تنتزع من قريش جزءاً من تلك القداسة وذلك النفوذ الروحي الذي اكتسبته نتيجة إشرافها على الكعبة والحج [١] . فتجمع ثقيف كما جمعت قريش ، بين الدين والدنيا . وأخفقت كل محاولات ثقيف ، على النحو الذي سنفصله في فصل الحياة الدينية في هذا الباب ، فقد أصبح الحج إلى الكعبة عبادة قومية ، وتقليداً ثابتاً ، رغم تحول الكعبة إلى بيت للأصنام .

وأصبح من نكد الدنيا على ثقيف أن ترى منافستها قريش وليس من صداقتها لها بد . وأصبح ما بين ثقيف وقريش ، هو هدنة ، أو تهادن ، حتى تحين الفرصة المناسبة لإشفاء الغليل ، أو للتحرر الاقتصادي والسياسي من النفوذ القرشي . وحانت تلك الفرصة في حملة الفيل سنة ٥٧١ م .

وترتبط حملة الفيل بالسياسة العالمية حينئذ حيثما حاولت الدولتان الفارسية والرومانية بسط نفوذهما على الجزيرة العربية والسيطرة على طرق التجارة البحرية الموصلة للمحيط الهندي . ورأت الدولتان اتخاذ الدين كتمهيد لبسط النفوذ السياسي ، وأصبح اليهود في اليمن عملاء سياسيين للفرس والمسيحيون عملاء سياسيين للروم ، وانتهزت الدولة الرومانية فرصة اضطهاد الملك العربي الحميري الأخير ذي نواس للمسيحيين في اليمن إذ قام بمهاجمة نجران أكبر مركز للمسيحيين في اليمن سنة ٥٢٣ م ، وخيَّر أهلها بين نبذ المسيحية أو القتل حرقاً ، فآثروا الاستشهاد ، فحفر لهم أخاديد أحرقهم فيها وأحرق إنجيلهم . وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج إذ يقول تعالى : «قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف : «كانت لقريش رحلتان ، يرحلون في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم» .

وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود» . [١] انتهزت الدولة الرومانية تلك الفرصة لتطلب من حليفتها دولة الحبشة المسيحية إرسال حملة تأديبية نجحت في القضاء على الدولة الحميرية وبدأت فترة من الاستعمار الحبشي الروماني لليمن [٢]

وبدأ تنفيذ المخطط الروماني وهو نشر المسيحية في الجزيرة العربية كلها لربط العرب بالولاء السياسي بالامبراطورية الرومانية ، وتحقيقاً لهذه السياسة قام أبرهة الأشرم الحاكم الحبشي ببناء كنيسة ضخمة فخمة في صنعاء [٣] وحاول عبثاً جذب الحجاج العرب إليها ، بدلاً من حجهم إلى كعبة مكة .

وهكذا تشابهت سياسة ثقيف في الطائف مع سياسة أبرهة في صنعاء ، كل منهما يحاول جذب الحجاج . ويتفق الطرفان في الاستفادة المادية من قدوم آلاف الحجاج ويختلفان في الهدف ، فأبرهة يرمي إلى نشر المسيحية وما يتبعها من نفوذ سياسي ، وثقيف تريد كسب نفوذ روحي على سائر القبائل العربية .

ويرى المؤرخ الغربي المعاصر الدكتور فيليب حتي [٤] أن الأحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد ، وخلق منافس لمكة الوثنية ، التي كانت مركز الحج في الشمال ، لأن الحج كان مورد دخل عظيم لأولئك الذين يسكنون في تلك المدينة التي كان يسافر إليها الحجاج ، أو على مقربة من الطرق التي كانت تؤدي إليها .

عبث أحد العرب [٥] بحرمة هذه الكنيسة ، فغضب أبرهة غضباً شديداً ، وأقسم ليهدمن الكعبة ، وليرغمن العرب على الحج إلى كنيسته بالقوة . وكان لهذا القسم صداه في كل أرجاء الجزيرة العربية ، فقال ابن هشام [٦] : «وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام» .

---

(١) د . سيد عبد العزيز سالم : العرب قبل الإسلام ص ٦١ .

(٢) أنظر تفاصيل هذه الأحداث في سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٤٠ وما بعدها ، وتاريخ الطبري حـ ٢ ص ١٠٨ وما بعدها ، والكامل لابن الأثير حـ ١ ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٣) هي كنيسة القلّيس مأخوذة عن اليونانية ومعناها الكنيسة وقد أرسل الامبراطور الروماني الرخام والفسيفساء والمهندسين .

(٤) حتي : تاريخ العرب ص ٧٦ .

(٥) وهو رجل من بني مالك بن كنانة وقد عبث بأثاث الكنيسة .

(٦) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٤٥ .

ولم يشذ عن هذا الإجماع على مقاومة أبرهة ، غير ثقيف في الطائف ، فقد وجدت في خروج أبرهة في حملة الفيل فرصة ساقتها الأقدار ، للخلاص من منافسة الكعبة لوثنها اللات ، فيضعف شأن قريش ، ويرتفع ذكر ثقيف .

وحاولت كثير من القبائل العربية اعتراض طريق أبرهة ، وهو في زحفه من اليمن إلى مكة [١] ، واستبسلوا في قتال أبرهة والأحباش ، مع الفارق الكبير في العدد والعتاد ، بين هؤلاء العرب والجنود الأحباش . وخاصة أن أبرهة حشد عدداً من الأفيال في مقدمة جيشه لإثارة رعب خيول العرب [٢] .

وانفردت ثقيف بموقف التأييد لقدوم أبرهة ، فقد بلغ أبرهة مدينة الطائف فخرجت إليه قبيلة ثقيف بزعامة مسعود بن معتب ، يعلنون لأبرهة ولاءهم وميلهم إلى السلام ، وغالوا في استضعاف أبرهة فقالوا : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد – يعنون اللات – إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه [٣] .

وبعثت ثقيف مع أبرهة أبا رغال [٤] يدل الأحباش على الطريق إلى مكة ، فقادهم إلى المغمس على مشارف مكة ، وهناك فارق أبو رغال الحياة ، ودفن في هذا الموضع ، وأصبح ملعوناً من جميع العرب ، حتى اعتادوا رجم قبره [٥] .

وأرادت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر العرب قتال الأحباش ، فرأوا أنه لا طاقة لهم بهم . وتدخلت العناية الإلهية فأحاطت ببيت الله الحرام ، فكان هلاك الجيش الحبشي كما صورته سورة الفيل [٦] .

وكانت نجاة مكة وقريش من الغزو الحبشي ، ضربة نفسية ومعنوية أصابت ثقيفاً ، التي شعرت بخيبة أمل شديدة ، وقد كانت بالأمس تمني نفسها بالآمال

---

(١) خرج رجل من أشراف اليمن يدعى (ذو نفر) لقتال أبرهة ، فلحقت به الهزيمة . وفي تهامة اليمن ، خرج بنو خثعم واستبسلوا في قتال أبرهة (سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٤٦) .

(٢) المسعودي : مروج الذهب حـ ٣ ص ١٢٥ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٤٧ ، الطبري حـ ٢ ص ٦٣٠ والمسعودي : مروج الذهب حـ ٢ ص ١٣٦ .

(٤) يذكر ابن سعد في طبقاته (حـ ١ ص ٣١٢) أن أبا رغال كان اسمه زيد بن مخلف .

(٥) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٢٦٠ .

(٦) قال الله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) .

والأحلام ، بحيث ترث مكانة قريش بين القبائل العربية ، وقد ضمنت سكوت أبرهة عنها بما أبدته له من ولاء وخضوع . وزادت مرارة ثقيف ، حين ارتفع شأن قريش في الجزيرة العربية كلها ، فيقول ابن الأثير [١] : «ولما رد الله الحبشة عن الكعبة وأصابهم ما أصابهم ، عظمت العرب قريشاً وقالوا أهل الله ، قاتل عنهم» .

ويروي ابن الأثير [٢] أنه كان مع عبد المطلب خلال هذه الغزوة الحبشية أحد زعماء ثقيف ، وهو أبو مسعود الثقفي ، فيقول : «ولما أهلك الله الحبشة وعاد ملكهم ومعه من سلم منهم ، ونزل عبد المطلب من الغد اليهم لينظر ما يصنعون ، ومعه أبو مسعود الثقفي ، لم يسمعا حساً ، فدخلا معسكرهم فرأيا القوم هلكى ، فاحتفر عبد المطلب حفرتين ملأهما ذهباً وجوهراً له ولأبي مسعود ، ونادى في الناس فتراجعوا فأصابوا من فضلهما شيئاً كثيراً ...» .

لم تقدر ثقيف حقيقة أبعاد هذه الحملة الحبشية ، ونظرت إليها نظرة ضيقة محدودة ، واعتبرتها عامل خلاص يخلصها من منافسة الكعبة لوثنها اللات . ولم تفطن ثقيف إلى أهداف الأحباش البعيدة التي ترمي إلى نشر المسيحية في الحجاز تمهيداً لبسط النفوذ الاستعماري الحبشي الروماني . وسبب هذا الضيق في الأفق الفكري ، انشغال ثقيف بالانتاج الزراعي ، مما جعل أفكارهم واتجاهاتهم محلية إقليمية ، وأدى عدم اشتغالهم بالتجارة على نطاق واسع ، إلى قلة اتصالهم بالعالم خارج دائرة الحجاز . هذا بينما كانت قريش واقفة على خطورة الغزو الحبشي لبلاد اليمن ، وحينما قامت الحركة التحريرية التي قادها سيف بن ذي يزن لتحرير اليمن من الاحتلال [٣] الحبشي رحل عبد المطلب إلى اليمن ليهنئ سيفا .

واستمرت ثقيف على نظرتها الضيقة إلى جلائل الأمور ، وسنرى في الباب الثاني من هذا البحث أن ثقيفا ستقف موقف المعارضة الشديدة من الإسلام لأن صاحب الدعوة إليه قرشي هاشمي ، ورغم ما علمته ثقيف من عداء قريش الشديد للرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد رفضت السماح له وللمسلمين بالهجرة إلى الطائف ، فقد انعكس بغضها الأعمى لقريش على النبي الكريم ، ولم تفطن ثقيف – بضيق أفقها –

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المسعودي : مروج الذهب حـ ٣ ص ١٣٠ وما بعدها .

أنه رسول الله إلى العالمين . وقد كان من البديهي أن الطائف ستستفيد حتماً من هذه الهجرة النبوية الشريفة .

وكما اختلفت الطائف في حياتها السياسية عن مكة ، فقد اختلفت أيضاً عن يثرب ، ثالث المدن الكبرى في الحجاز . وقد يكون وجه التشابه هو البيئة الزراعية وما يرتبط بها من نشاط اقتصادي وصورة اجتماعية . ولكن المدينتين تختلفان تماماً في تاريخهما ، وفي عناصر سكانهما ، وفي حياتهما السياسية .

وكان العماليق هم السكان الأصليين لكل من يثرب والطائف[١] ، ولكن يثرب بعد ذلك شهدت تدفق القبائل اليهودية بعد سنة ٧٠ م ، وبعد اضطهاد الروم لهم في فلسطين ، وتحطيم معابدهم في أورشليم[٢] ، وقام اليهود بدور رئيسي في حياة يثرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، مما لا تشهده في مدينة الطائف .

ونجح اليهود في التغلب على العماليق ، وقد وصف الأصفهاني[٣] ، هؤلاء العماليق بأنهم «أهل غزو وبغي شديد» ونجح اليهود في امتلاك معظم أراضي يثرب ، وزرعوها على نظام الزراعة الواسعة ، وعوضوا نقص الأيدي العاملة بإنشاء مصانع تنتج الآلات الزراعية ، كما أنتجوا الأسلحة التي كان العرب في حاجة إليها نتيجة اشتباكاتهم القبلية المتعددة الدائمة[٤] . وقدمت قبيلتا الأوس والخزرج من اليمن بعد انهيار سد مأرب[٥] وسمح اليهود باقامتهما ليتخذوا من أبنائهما أيدي عاملة في ضيعات اليهود . ونجح الأوسيون والخزرجيون بعد فترة في الاستقلال بنشاطهم الاقتصادي ، مما ترتب عليه صدام عسكري مع اليهود ولم ينتصر هؤلاء العرب إلا بالاستعانة بغساسنة الشام[٦] ولكن هذا الانتصار أدى إلى صراع فيما بين الأوس والخزرج ، ودارت سلسلة

---

(١) ابن رستة : الأعلاق النفسية ص ٦٢ .

(٢) Margoliouth: The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, p.58-60.

(٣) الأغاني حـ ١٩ ص ٩٤ .

(٤) Lammens: Le Berceau de L'Islam p.154.

(٥) انهار هذا السد في أواخر عهد الدولة السبئية ، وترتب على انهياره هجرة كثير من القبائل ، كان منهم بنو لخم وهاجروا إلى الحيرة ، والغساسنة وهاجروا إلى أطراف الشام . وأصبحوا يؤرخون أحداثهم بهذا الحدث التاريخي الهام .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٢٩٤ .

من الحروب انتصرت فيها الخزرج ، فاستعانت الأوس بأعداء الأمس اليهود فحققوا أول انتصار على الخزرج . واتفقت القبيلتان على قيام حكومة مشتركة في يثرب ، يرأسها زعيم الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول(١) ، وبينما يستعد لتتويجه هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة . وقد رأى فريق من أهل يثرب عدم جدوى هذه الحكومة المشتركة ، ورأوا اعتناق الإسلام ودعوة الرسول الكريم إلى يثرب ، ليكون الرئيس والقائد والزعيم ، إلى جانب كونه رسول الله(٢) .

أما اليهود ، فقد كانوا قلة قليلة بالنسبة لعرب الطائف ، وخاصة قبيلة ثقيف ، فلم يكن لهم دور في الحياة السياسية في مدينة الطائف في العصر الجاهلي كما كان يهود يثرب يعيشون في نطاق قبلي ، ويتشبهون بالقبائل العربية في تنظيماتها القبلية ، بل اتخذوا اسماء عربية ، وعاشوا في قلاع وحصون ، وكان لكل قبيلة زعيمها ، وحيها وسوقها(٣) . وناهضت القبائل اليهودية عرب يثرب وخاصة قبيلتي الأوس والخزرج ، وحاولت اخضاع العرب لسيطرتهم الاقتصادية والسياسية . ولم ينتصر العرب إلا بمعاونة من خارج يثرب ، كما رأينا . حتى إذا كانت الهجرة قام اليهود أيضاً بتأثيرات في الحياة السياسية في المدينة المنورة وعانى الرسول والمسلمون من عدائهم وأحقادهم(٤) . وهذا الدور السياسي ليهود يثرب ، في الجاهلية والإسلام ، لا تشهده في الطائف ، في العصرين على السواء فقد أصبح يهود الطائف في العصر الجاهلي رعايا سياسيين لقبيلة ثقيف صاحبة النفوذ في الطائف .

من صور الحياة الاجتماعية والسياسية ، التي شهدها العصر الجاهلي ، انقسام القبيلة إلى فرعين كبيرين ، حين تتسع هذه القبيلة ويزداد عدد أبنائها . وكثيراً ما يتحول الفرع الكبير إلى قبيلة ، لها زعاماتها واتجاهاتها ومواطنها ، وقد تقع الحرب بين الفرعين بعد الانقسام واستقلال كل فرع بحياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى حـ ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

(٢) تحول اسم يثرب بعد الهجرة إلى (المدينة المنورة) كما أصبح يطلق على مسلمي الأوس والخزرج (الأنصار) – (المقريزي : أمتاع الأسماع حـ ١ ص ١١٠ وما بعدها) .

(٣) كان سوق قبيلة بني قينقاع اليهودية أشهر أسواق يثرب ، وتخصص في تجارة الذهب (المقريزي : أمتاع الأسماع حـ ١ ص ١٠٥) .

(٤) أنظر كتاب (الرسول في المدينة) للدكتور علي حسني الخربوطلي تجد كثيراً من التفاصيل (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) .

وقد انقسمت قبيلة ثقيف إلى فرعين كبيرين ، أو – كما يذكر ابن الأثير [1] – إلى بطنين ، وهما : الأحلاف ، وبنو مالك . وقام تنافس بين الفريقين ، انتهى إلى صراع اجتماعي وسياسي ، ثم إلى صدام عسكري ، وشهدت الطائف يوماً من «أيام العرب» [2] ، وهو «يوم الطائف» .

وازداد ثراء الأحلاف ، وكثرت خيلهم [3] ، وسيطروا على أرض كانت لبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، مما أثار غضب بني نصر ، فأعلنوا الحرب على الأحلاف . وكان يتزعم بني نصر ، عفيف بن عوف بن عباد النصري ، ثم خلفه اليربوعي . بينما كان زعيم الأحلاف هو مسعود بن معتب .

وانتهز بنو مالك فرصة الصراع بين أعدائهم الأحلاف ، وبين بني نصر ، فأعلنوا الحرب على الأحلاف ، وتحالف زعيم بني مالك ، جندب بن عوف مع بني يربوع ، للوقوف في وجه الأحلاف .

وبدأت حرب «يوم الطائف» بين الأحلاف ، وبني مالك وحلفائهم من بني نصر . وانتهت الحرب بانتصار الأحلاف ، واجلاء بني مالك إلى واد وراء الطائف يسمى (لحب) . وفقد بنو مالك وبنو يربوع كثيراً من أرواح أبنائهم في جبل (الأبان) حيث دارت المعركة .

وشعر بنو مالك بضعفهم إزاء الأحلاف ، ورأوا الإستعانة بقوى خارجية ، فحالفوا أولاً دوس وخثعم وغيرهما من القبائل ، ثم خرج مسعود بن معتب إلى يثرب يطلب المعونة ضد الأحلاف . فقدم على أحيحه بن الحلاج ، وهو من بني عمرو بن عوف من قبيلة الأوس ، وطلب الحلف ، ولكن أحيحه رأى ألا يزج بقومه في هذه الحرب الأهلية في الطائف ، فنصح مسعوداً بمصالحة بني مالك ، واكتفى بتزويده بالأسلحة والزاد ، كما أمده بغلام يحذق بناء الأسوار ، فأقام سوراً منيعاً حول الطائف ، حماها من غارات البدو . وهدأت العلاقات بين بني مالك والأحلاف فلم تقم حروب تذكر . وأصبح «يوم الطائف» محوراً لنشاط أدبي واسع ، فقد أنشد فيه

---

(١) الكامل حـ ١ ص ٤٢١ .

(٢) أطلق تعبير (أيام العرب) على الحروب الكبيرة الشهيرة التي تقع بين القبائل العربية (أنظر كتاب أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين) .

(٣) كان امتلاك الخيل في الجاهلية مظهراً للثراء .

الشعراء كثيراً من القصائد العصماء[1] .

وقد استمر انقسام قبيلة ثقيف ، إلى هذين البطنين الكبيرين حتى ظهور الإسلام . وكان من أشهر زعماء الأحلاف في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . غيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد يا ليل ، والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وربيعة بن عبد يا ليل ، وشرحبيل بن غيلان بن ربيعة . وكان هؤلاء ضمن الوفد الذي قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام واعتنق الإسلام أما بنو مالك ، فقد رحل نفر منهم مع وفد الأحلاف . وضرب الرسول الكريم لبني مالك قبة في المسجد ، بينما نزل الأحلاف ضيوفاً على المغيرة بن شعبة ، وهو ثقفي أيضاً . وهكذا افترق أبناء البطنين أيضاً ، خلال اقامتهم جميعاً في المدينة المنورة[2] .

٣ ـ الحياة الاقتصادية

حبت الطبيعة مدينة الطائف ، فأغدقت عليها كثيراً من هباتها ، فشهدت رخاء اقتصادياً واضحاً ، نعم به أهلها في العصرين الجاهلي والإسلام . وإذا كان الجغرافيون يطلقون على بلاد اليمن تعبير « بلاد العرب السعيدة » لاعتدال مناخها ، ووفرة مياهها ، وكثرة خيراتها ، فنحن نطلق على مدينة الطائف تعبير « مدينة الحجاز السعيدة » ، فقد كانت لا تقل خيرات أو رخاء عن بلاد اليمن .

كانت ظروف البيئة الطبيعية تحقق للطائف كل مقومات حياة اقتصادية نشيطة غنية . فالطائف تقع على ظهر جبل غزوان ، وهو أكثر جبال الحجاز برودة حتى أن مياهه تجمد في الشتاء[3] ، حتى إذا أتى الصيف وذابت الثلوج ، انهمرت المياه على سفوح الجبل ، إلى وادي نعمان الأراك المجاور ، فتوفر المياه لبساتين الفاكهة الكثيرة المنتشرة في هذا الوادي الخصب[4] .

وتحيط بالطائف أودية خصبة ، توفر لها كثيراً من الفرص للانتاج الزراعي الواسع ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٤٢١ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٤ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٢٤ ، الأصطخري : المسالك والممالك ص ٢٤ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣٩ ، البكري : معجم ما استعجم حـ ٣ ص ٨٨٥ وما بعدها .

فهناك وادي (الوهط)، ويتصف باستواء الأرض وانبساطها، وتنتشر بها البستاتين التي تنتج أنواعاً عديدة من الفاكهة وخاصة الأعناب. وقد كان عمرو بن العاص يمتلك بستاناً كبيراً في هذا الوادي. وهناك وادي (ليه) شرقي الطائف وأعلاه لثقيف وأسفله لبني نصر بن معاوية بن هوازن[١].

وتوافرت للطائف موارد المياه وخصوبة الأرض، واعتدال المناخ[٢] وهي كلها من أسس النشاط الاقتصادي. ويذكر ياقوت[٣] والقلقشندي[٤] أن ثمار الطائف تشبه ثمار الشام، وكأن الطائف بقعة من أرض الشام انتقلت إلى بلاد الحجاز. ويؤكد الرحالة الحديث (رتر Rutter) هذه الحقيقة، فيقول: رأيت في بساتين الطائف، ما لم أره في سائر أرجاء الجزيرة العربية، فقد شاهدت أشجار اللوز والخوخ تزدحم بالأزهار المتفتحة، وعجبت لجمال الربيع في هذه البقعة من الجزيرة العربية المحرقة المجدبة، حتى قلت لرفيقي إن ما يزعمه أهل مكة عن الطائف بأنها كانت فردوساً من رياض الشام، حمل على أجنحة الملائكة إلى الحجاز، حقيقة واقعة[٥] ويذكر الرحالة (بركهارت)[٦] أيضاً عن الطائف أنها أكثر مكان رآه، جمالاً وبهجة وبهاء، خلال رحلته من لبنان إلى الحجاز[٧].

وأدت كثرة البساتين، وانتشارها على سفوح ووديان الجبال حول الطائف إلى كثرة انتاج الفاكهة، وتنوعها وأمكن لأهل الطائف زراعة أشجار فاكهة المناطق الباردة، وفواكه المناطق المعتدلة والحارة، على السواء. وخاصة الفاكهة التي تحتاج في أثمارها وجودة أنواعها إلى كمية كبيرة أو متوسطة من المياه.

ومن أبرز أنواع الفاكهة في الطائف: الرمان، والكمثرى، والبطيخ، والموز،

---

(١) تاج العروس حـ ١٠ ص ٣٣٤، جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٢.

(٢) Lammens: Le Berceau de L'Islam p.93.

(٣) معجم البلدان حـ ٤ ص ٢٤.

(٤) صبح الأعشى حـ ٤ ص ٦٥.

(٥) Rutter: Holy Cities of Arabia, p.331.

(٦) ولد جون لويس بركهارت السويسري عام ١٧٨٤، وسافر إلى الحجاز سنة ١٨١٤ حيث تجول بين ربوعه، ثم عاد إلى القاهرة حيث توفي سنة ١٨١٦ ونشر كتابه في لندن سنة ١٨٢٩ (أنظر حاشية في كتاب تاريخ الإسلام العام ص ١٢٠).

(٧) Burkhardt: Travels in Arabia, p.65.

والتين ، والعنب ، والخوخ ، والسفرجل ، واللوز [1] ، إلى جانب أشجار النخيل ، المعتاد نموها في سائر أرجاء الجزيرة العربية [2] .

وكان العنب أبرز أنواع الفاكهة في الطائف . ونحن نستنبط من الروايات القديمة ، ما يجعلنا نعتقد أن اليهود كانوا يقومون بزراعته ، ثم تجفيفه وتصنيعه إلى زبيب . ونحن نعلم أن هؤلاء اليهود قد قدموا من الشام بعد اضطهاد الرومان لهم سنة ٧٠ م [3] ، ولا شك أنهم هم الذين أدخلوا زراعة العنب في الطائف ، أو على الأقل أدخلوا أجود أنواعه ، أو أنواعاً جديدة . فالعنب من أبرز حاصلات إقليم البحر المتوسط .

ونستنبط من هذه الروايات القديمة أيضاً ، أن بعض اليهود كانوا يحتفظون بعيدان العنب (مما نسميه اليوم بالشتل) ، لتجديد شباب شجيرات العنب إذا أدركتها الشيخوخة ، أو لتحسين أنواعها .

ومن هذه الروايات القديمة ، تلك الرواية التي مرت بنا في فصل الحياة السياسية ، فقد رأينا قسي بن منبه بن بكر بن هوازن ، الجد الأكبر لقبيلة ثقيف ، يقدم مهاجراً إلى وادي القرى ، سعياً للرزق ، فينزل على امرأة يهودية عجوز لا ولد بها ، فتصبح له بمنزلة الأم .

ولنترك لياقوت الحموي [4] أن يكمل الرواية ، فقد قال : «فلما حضرها الموت قالت له : يا هذا انه لا أحد لي غيرك وقد أردت أن أكرمك لالطافك إياي أنظر إذا أنا مت وواريتني ، فخذ هذه الدنانير فانتفع بها ، وخذ هذه القضبان ، فإذا نزلت وادياً تقدر فيه على الماء فاغرسها فإني أرجو أن تنال من ذلك فلاحاً بيناً» .

وكانت هذه «القضبان» التي حدثنا ياقوت عنها ، هي عيدان العنب ، ويكمل ياقوت الرواية فيقول : «وغرس قسي تلك القضبان بوادي وج فنبتت ، فلما أثمرت قالوا : قاتله الله كيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء . فسمي ثقيفاً من يومئذ» . وحينما ازداد نسل قسي (أو ثقيف) ، واستولوا على (وج) كان أول ما فعلته جماعة

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٨ . وابن بطوطة : تحفة النظار حـ ١ ص ٣٠٤ .

(٢) يقول ياقوت (معجم البلدان حـ ٤ ص ٢٤) عن الطائف : «انها ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفاكهة ، وبها مياه جارية وأودية ...» .

(٣) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧ وما بعدها .

(٤) معجم البلدان حـ ٤ ص ٩-١٠ .

ثقيف فيها أن « غرست فيها كرومها »[1] وأصبحت ثقيف كما يقول ياقوت أصحاب حدائق ، بينما كانت الجماعات الأخرى المجاورة أهل ابل وماشية ، وخاصة بني عامر .

وحينما تنازعت ثقيف مع بني عامر ، طلبت ثقيف من بني عامر أن تسلمها أرضها ، على أن تقوم ثقيف بالزراعة وتعطي بني عامر نصف المحصول « فرغب بنو عامر في ذلك ، وسلموا إليهم الأرض فنزلت ثقيف الطائف واقتسموا البلاد وعملوا الأرض وزرعوها من الأعناب والثمار ، ووفوا بما شرطوا لبني عامر حيناً من الدهر ... »[2] .

وظلت ثقيف تعتز بأعنابها طوال العصر الجاهلي ، وحتى ظهور الإسلام ، وحينما حاصر الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون مدينة الطائف ، بعد فتح مكة سنة ٨ هـ ، اعتصمت ثقيف وراء أسوار مدينتها المنيعة ، وأخذت تلقي على المسلمين قطع الحديد المحمية ، فهددهم الرسول باتلاف بساتينهم وتحريق كرومهم ، وهو عليه الصلاة والسلام يعرف مدى اعزاز ثقيف لكرومها ، ولم تستجب ثقيف لهذا التهديد ، فبدأ المسلمون في تنفيذ وعيدهم ، فبعثت ثقيف من يطلب من الرسول الكف عن ذلك وجاء في حديثه أن الرسول إذا قطع ذلك العنب فانه « لم يعمر أبداً » ، ثم عرضت ثقيف على الرسول أن « يأخذه لنفسه أو يدعه لله والرحم »[3] وهذه الرواية تصور لنا أن العنب كان أبرز انتاج الطائف الزراعي ، كما كانت شجيرات الكروم تمثل الثروة الزراعية الحقيقية لثقيف في العصر الجاهلي .

وإن كانت الزراعة هي الأساس الأول للحياة الاقتصادية في الطائف في العصر الجاهلي ، فاننا نجد أهل الطائف يشتغلون أيضاً بكثير من الصناعات . وان أبرز هذه الصناعات ، هي صناعة الخمور ، التي كانت الجزيرة العربية في حاجة إليها ، والتي كان شربها يمثل جزءاً من الحياة الاجتماعية الجاهلية . واللغة العربية غنية بأسماء الخمور ، وأوصافها وقد عني عرب الجاهلية بالخمر ومعاقرتها ، وتفننوا في استخراجها وتعليلها . وكانوا يطيبون الخمر بالأفاوية ويعتقوها ويبردوها ، ويغلونها حتى يذهب نصفها أو

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٤٢٠-٤٢١ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢٩ .

ثلثاها . ومن أشهر أنواع الخمر (الصهباء) وهي الخمر المعصورة من العنب الأبيض ، وقد أطلقوا عليها أيضاً اسم (ابنة الكرم) أو (ابنة العنب) . وكان الحضر أكثر شرباً للخمر من البدو ، وخاصة في مكة ويثرب والطائف وأصبحت الخمر محور كثير من القصائد الجاهلية[1] .

واعتمدت حانات مكة على الخمر المستوردة من الطائف ، رغم أن قوافل قريش التجارية ، كانت تجلب أنواعاً عديدة من الخمر ، من كل مكان في العالم ، لإرضاء أذواق سادات وأثرياء مكة . فقد كانت خمر الطائف أقل ثمناً من الخمور الأجنبية المستوردة[2] .

وإلى جانب صناعة الخمور من العنب ، كانت هناك صناعة الزبيب . وقد اشتهرت الطائف بأسرار صناعة تجفيف العنب ، حتى أنتجت أجود أنواع الزبيب ، ويشيد ياقوت[3] بجودة زبيب الطائف الذي «يضرب بحسنه المثل» ، ويعتبر الأصطخري[4] أن الزبيب أبرز انتاج الطائف .

وكان معظم انتاج الطائف من الزبيب يذهب إلى مكة ، لحاجة أهلها إليه لتحلية مياه الآبار التي تزداد فيها نسبة الملوحة . وكان المتولي منصب السقاية ، أي توفير المياه للحجاج ، يستورد كميات ضخمة من الزبيب قبل موسم الحج ليحلي به الماء الذي يشرب منه الحجاج . فكان يقيم أحواضاً ضخمة يملأها بمياه زمزم وغيرها من الآبار ، ويضع فيها كميات ضخمة من الزبيب للتحلية[5] وكان مـد الزبيب يبلغ ثمنه درهماً واحداً[6] كما ذكر السمهودي[7] أن أول غنيمة غنمها المسلمون بعد الهجرة ، كانت الاستيلاء على قوافل لقريش قادمة من الطائف تحمل زبيباً ، وكان المسلمون قد تربصوا لهذه القافلة في وادي نخلة .

---

(١) عمر أبو النصر : العرب قبل الإسلام ص ١٩٤ .

(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ١٣٤ .

(٣) معجم البلدان حـ ٤ ص ٥٩ .

(٤) المسالك والممالك ص ٢٤ .

(٥) كانت هذه الحياض من الجلد ، ويضعها صاحب السقاية في فناء الكعبة ، وكانت السقاية في بني هاشم (سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٣٠ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص ٣٨) .

(٦) السمهودي : وفاء الوفا حـ ١ ص ٥٤١ .

(٧) المرجع السابق .

وكذلك اشتهرت الطائف بتربية النحل وما يترتب على ذلك من استخراج العسل . فقد كان العسل أحد مصادر ثروة الطائف . ولقد كان أصحاب النحل يؤدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل عشر قرب عسل قربة . ثم انقطعوا عن أدائها بعد وفاته فكتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أصحاب النحل لا يؤدون إلينا ما كانوا يؤدون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون مع ذلك أن نحمي لهم أوديتهم ، فاكتب إليّ برأيك في ذلك . فكتب إليه عمر : «إن أدوا إليك ما كانوا يؤدون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاحم لهم أوديتهم ، وإن لم يؤدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلا تحم لهم» [1] .

ومن المعروف أن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر . أما إذا كان في أرض الخراج وفي المفاوز والجبال وعلى الأشجار وفي الكهوف فلا يؤخذ عليه العشر لأنه يكون بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر [2] وكان العرب يعتبرون العسل من أشهى الأطعمة وكان عسل الطائف مما يُهادى به في مكة . وكان عسل الطائف يطلب في سائر أنحاء بلاد العرب في الجاهلية [3] وكانوا يستخرجونه من بيوت الجبال ومن الشجر وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله : «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون» [4] .

ومن أشهر الصناعات في الطائف في العصر الجاهلي ، صناعة دبغ الجلود وقد استفادوا من جلود الحيوانات التي ترعاها القبائل البدوية المجاورة لهم ، واستخدموا بعض الأعشاب التي تلزم في عمليات الدبغ . يقول الهمداني [5] : «الطائف مدينة قديمة جاهلية ، وهي بلد الدباغ ..» ويبدو أن عدد المدابغ كان كثيراً ، وكانت تقام غالباً في المناطق المرتفعة حتى أن المياه كانت حينما تنساب إلى الوادي تنبعث منها روائح كريهة مؤذية [6] .

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٦ – البلاذري : فتوح البلدان حـ ١ ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ .

(٣) د . سيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام . ص ٣٢٥ .

(٤) سورة النحل ٦٨ .

(٥) صفة جزيرة العرب ص ١٢٠ .

(٦) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٥٣ .

كما اشتهرت الطائف أيضاً بصناعة العطور ، وكان يصدر غالباً إلى مكة حيث كانوا يطيبون به الكعبة الشريفة ، فضلاً عن حب أثرياء قريش لاستخدام الطيب . وكانت بساتين الطائف تزخر بالأزهار والورود التي تصلح لاستخراج العطور منها . وكان ماء زمزم المخلوط بماء الورد هو المستخدم عادة في غسل الكعبة[(١)] .

واختلف أهل الطائف عن غيرهم من أهل الحجاز في ميلهم إلى الحرف اليدوية مثل الدباغة والنجارة والحدادة ، وهي حرف مستهجنة في نظر العربي يأنف من الاشتغال بها . ولكن أهل الطائف احترفوها ، وربحوا منها ، وشغلوا رقيقهم فيها ، وقد استفادوا من خبرة الرقيق ، فتعلموا منهم ما لم يكن معروفاً عندهم من أساليب الزراعة وأعمال الحرف ، فجددوا وأضافوا إلى خبرتهم خبرة جديدة[(٢)] .

وأجاد أهل الطائف صناعة البناء ، وسور الطائف التاريخي ، والذي اكتسبت منه المدينة اسمها ، خير نموذج لإجادة أبنائها فنون البناء . وكان بناء هذا السور (أو الحائط الكبير) حدثاً في بلاد الحجاز ، لم تعرفه سائر المدن وقد نجح هذا السور في حماية الطائف طوال العصر الجاهلي ، فاستعصى على الأعداء ، وعلى القبائل البدوية وقد عانى الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون من حصار هذا السور المنيع ، بعد فتح مكة ، فقد أصبح السور كما وصفه بانيه « درءاً للعرب »[(٣)] .

وامتدت فنون البناء لتشيد كثيراً من القصور الفخمة ، فقد ابتنى أثرياء قريش ووجوهها قصوراً في الطائف كانوا يقضون فيها شهور الصيف القائظة الحرارة وتروي الروايات لنا أنه كان للعباس بن عبد المطلب كثيراً من العقارات بالطائف فضلاً عن امتلاكه بساتين للكروم[(٤)] وقد اشتهرت بيوت الطائف بأنها بيوت جيدة منظمة[(٥)] .

وشمل نشاط أهل الطائف الاقتصادي ، التجارة أيضاً . وقد زاد موقع الطائف

---

(١) الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ١٢٤ .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٥٢ . ومما يذكر في هذا المجال أنه لم يكن في مكة نجارون ، حتى أن أهلها اعتمدوا على نجار رومي وعلى أخشاب سفينة رومية غارقة لتجديد بناء الكعبة (ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٢١٥) .

(٣) تاج العروس حـ ١ ص ١٨٤ .

(٤) الأزرقي : أخبار مكة حـ ١ ص ٦٥ – تولى العباسي مهمة السقاية في مكة ، وكان يقوم باستيراد الزبيب من الطائف .

(٥) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٥١ .

الطبيعي من أهميتها كمركز تجاري ، فيمر بها طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلى شمالها ، ومن العراق إلى اليمن [١] .

استثمر أهل الطائف ثرواتهم الطبيعية ، وجعلوها أساساً لتجارة واسعة واستفادوا من جدب وقحط معظم مناطق الحجاز ليصدروا لهم انتاجهم من الفاكهة والحبوب وغيرها من الغلات الزراعية . وأصبحت مكة ، خاصة ، تعيش على الإنتاج الزراعي لمدينة الطائف .

وقد كان بين أهل مكة وأهل الطائف في ميادين التجارة تنافس وتحاسد ، وقد حاول أهل الطائف جلب القوافل إليهم ، وجعل مدينتهم مركزاً للتجار يستريحون فيه ، وقد نجحوا في مشروعهم هذا بعض النجاح يوم استولى الفرس على اليمن ، وتمكنوا فيه من اجلاء الأحباش عن جنوب الجزيرة العربية . فأصبحت قوافل الفرس التجارية ، وقوافل ملوك الحيرة تذهب إلى اليمن وتعود منها من طريق الطائف[٢] وغضب أهل مكة لذلك ، فبدأوا سياسة جديدة ، وهي السيطرة على اقتصاد الطائف .

ونجح أهل مكة في تحقيق هذه السياسة ، نتيجة اقراضهم لزراع الطائف وأصحاب البساتين وللتجار حاجاتهم من الأموال ، ونتيجة شراء أهالي مكة البساتين والمساحات الواسعة من أراضي الطائف ، كما قام أهالي مكة أيضاً بمشروعات اقتصادية زراعية وتجارية ، لحسابهم . وأصبح المكيون يحتكرون معظم صادرات مكة ، وبذلك تمت لهم السيطرة على اقتصاديات الطائف .

ولم تقتصر ملكية أهل مكة على العقارات والبساتين في الطائف ، بل نجد بعض سادات مكة يمتلكون أيضاً موارد المياه ، ونحن نعلم أن الماء هو الأساس الأول للانتاج الزراعي . فيذكر ابن سعد[٣] أنه « كان لعبد المطلب ماء بالطائف يقال له ذو الهرم » ، وحاول الثقفيون انتزاعه منه فأخفقوا في ذلك . كما تتحدث الروايات أيضاً عن ممتلكات عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان في الطائف .

ويذكر البلاذري[٤] «وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٤٦ .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٥٣ .

(٣) طبقات ابن سعد حـ ١ ص ٥١ ، والألوسي : بلوغ الأرب حـ ٣ ص ٢٧٦ .

(٤) فتوح البلدان ص ٦٨ .

فيصلحونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى إذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين» . وهذه الرواية للبلاذري ، توضح أن أهل الطائف كانوا دائماً يتطلعون إلى التحرر من سيطرة أهل مكة الاقتصادية ، ووجدوها في فتح المسلمين لمكة سنة ٨ هـ ، بينما ظلت الطائف بعيدة عن الدائرة الإسلامية .

واستمر نشاط أهل مكة الاقتصادي في الطائف بعد الإسلام ، فظل المكيون يستثمرون أموالهم في الطائف ، وخاصة بعد تدفق غنائم الفتوحات الإسلامية في الأراضي الفارسية والرومانية على بلاد الحجاز ، والأصفهاني يحدثنا مثلاً عن عائشة بنت طلحة التي كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك تتنزه فيه[1] وستخف المنافسة والتحاسد بين مكة والطائف في العصر الإسلامي ، فقد أصبحت المدينة المنورة عاصمة للدولة الإسلامية الوليدة ، ومركزاً رئيسياً للأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية[2] .

وكانت التجارة في الطائف تتبع نظام حرية التجارة ، ولا نجد في الروايات القديمة ما نستنبط منه تدخل ثقيف في حرية التجارة . وكان التعامل الاقتصادي يعتمد على الربا ، وقد وصف البلاذري[3] أهل الطائف بأنهم «أصحاب ربا» ، ولذا اشترط الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم ، بعد اسلامهم ، ألا يتعاملوا بالربا «وكتب لهم كتاباً» .

وكان لأهل الطائف تجارة مع اليمن ، ولكننا لا نسمع شيئاً عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة ، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق ، ولعلهم كانوا يساهمون مع تجار مكة في اتجارهم مع تلك البلاد[4] .

ونتج عن سيطرة أهالي مكة على اقتصاديات الطائف ، وكثرة التعامل بين أهالي المدينتين ، أن استخدم أهالي الطائف العملات المتداولة في مكة وكانت تضم العملات الفارسية والرومانية . وقد امتلأت مكة بالصيارفة الذين يشتغلون بمبادلة العملات المختلفة . كما كان أثرياء مكة هم الذين يقرضون أهل الطائف ، فاختلفت بذلك

(١) الأصفهاني : الأغاني حـ ٦ ص ٢٠٣ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة طائف بقلم لامانس .
(٣) فتوح البلدان ص ٦٧ .
(٤) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٥٢-١٥٣ .

العملات ، نتيجة تعدد رحلات قريش إلى أرجاء العالم حينئذ ، شمالاً وجنوباً .

واعتمد تجار الطائف على أسواق مكة المشهورة ، التي كانت تعقد في مواسم الحج ، في تصريف تجارتهم ، من غلات زراعية ومصنوعات ، وفي شراء ما يحتاجونه من السلع العالمية وكان لكثير من الدول الأجنبية بيوت تجارية في مكة .

وهكذا ارتبط اقتصاد الطائف باقتصاديات مكة ، ولكن النهضة التجارية التي شهدتها مكة في العصر الجاهلي أفادت حتماً مدينة الطائف ، فارتبطت المدينتان اقتصادياً وإن أخفقتا في تحقيق ارتباط سياسي أو ديني ، ولا غرو إذاً أن أطلق القرآن الكريم على المدينتين اسم (القريتين) .

٤ ـ الحياة الدينية

اختلفت صور الحياة الدينية في مدينة الطائف في العصر الجاهلي ، فكانت هناك الوثنية ، واليهودية ، والحنيفية ، أما الوثنية فهي الدين الغالب . وقد اختلفت الوثنية في أهدافها وصورها وآلهتها وطقوسها وكهنتها ، باختلاف أقاليم الجزيرة العربية ، ووثنية البدوي تختلف عن وثنية الحضري ، ولذا كانت الوثنية في الطائف تختلف عن الوثنية في كثير من أرجاء بلاد العرب ، وهي وثنية الحضر ، فالطائف مدينة زراعية متحضرة معظم سكانها من الحضر .

شاعت الوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام ، وقد قامت الوثنية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والكواكب . ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم في حياتهم تحت تأثيرها ، لذلك حرصوا على ارضائها اجتلاباً لخيرها . فاتخذوا لها أشكالاً مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصورة تمثل انساناً أو حيواناً . وأخرى غير مصورة . وصاروا ينظرون إليها على أنها رمز للقوة الطبيعية ، ومن ثم أصبحت معبودات لهم ، وكانوا يطوفون حولها ويتاجرون عندها ، ويعتبرون المكان الذي فيه المعبود حرماً ، يحرم الاتيان فيه بأشياء معينة[1] .

والعرب وثنيون بوجه عام ، فمنهم من كان يعبد الأصنام ، وهي تماثيل فنية

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٤٨ .

نحتت على صورة الإنسان من الخشب أو الذهب أو الفضة ، ومنهم من كان يعبد الأوثان ، وهي الجماد والحجر ، وكانت خالية من الصنعة والفن[1] .

ويمثل الدين البدوي أول أشكال المعتقدات السامية ، وأعظمها سذاجة وبدائية . أما ديانات عرب الجنوب بما فيها من مظاهر النجوم والمعابد المزخرفة والشعائر الخلابة والقرابين ، فإنها تمثل مرحلة أرقى وأحدث من التطور . مرحلة أدت حالة الاستقرار في المجتمع إلى الوصول إليها .

ويدل الإلحاح في عبادة الشمس في المجتمعات الراقية والمثقفة ، على حالة زراعية ، إذ كان الناس قد استطاعوا أن يعقدوا صلة ما بين أشعة الشمس التي تمنح الحياة ونماء المزروعات .

ولعل الفرق الرائع بين الواحة والصحراء ، قد أعطى البدوي أول فكرة محددة دفعته إلى الإيمان بإله خاص . وإن روح الأرض القابلة للحرث والزرع قد أصبحت الإله الصالح الذي تقدم له القرابين ، وتحمل إليه الأزواد ، على حين أن روح الأرض الجرداء قد أصبحت الروح الشريرة للشيطان الذي يتقى شره[2] .

وسكان الحضر في الحجاز ، وكان عددهم يبلغ سبع عشرة في المائة من السكان ، قد وصلوا إلى مرحلة العبادة الكوكبية مبكرين . وكان للعزى واللات ومناة – أقداسها ، أي معابدها[3] .

أصبحت اللات والعزى ومناة يكونون ثالوثاً وثنياً في بلاد الحجاز . أما اللات ، فهي صخرة مربعة بيضاء اللون ، في مدينة الطائف ، وهي أحدث من مناة[4] وقد اختلف المؤرخون في تسميتها بهذا الاسم ، فيذكر ياقوت أن اللات كان رجلاً من ثقيف[5] أما الأزرقي[6] ، فيذكر أنه كان رجلاً يهودياً . يجلس عند هذه الصخرة

---

(١) ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ص ١٢٠ .
(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ١١٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .
(٤) الكلبي : الأصنام ص ١٦ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ١٠ .
(٦) الأزرقي : أخبار مكة ص ١٦ .

«يلت عندها السويق» أما الألوسي[1] فيقول عن هذا الرجل : «ذكروا أنه كان في الأصل رجلاً صالحاً يلت السويق للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره مدة ، ثم اتخذوا تمثاله ، ثم بنوا عليه بنية سموها بيت الربة» .

وما دمنا في صدد الحديث عن (اللات) ، فيجب علينا الإشارة إلى (العزى) و(مناة) ، لارتباطها جميعاً ، واقتران ذكرها في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى)[2] .

وكانت العزى من أعظم أوثان قريش ، وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة[3] وحرصت قريش على زيارتها والتقرب إليها بتقديم القرابين ، فكان لها منحر ينحرون عنده الهدايا من الحيوانات يسمى (الغبغب) ، واشتركت مع قريش في تقديس العزى ، بنو كنانة وخزاعة وجميع مضر . وكانت سدنتها بنو شيبان من بني سليم ، حلفاء بني هاشم .[4] وأصبح لها حرماً يشبه حرم الكعبة . ومعنى كلمة (العزى) هو (شديدة الغرة) ، وتقابل الزهرة نجمة الصباح[5] ولها أسماء عديدة فاليونان دعتها (افروديت) ، والكلدانيون (بلتي) ، وطيء (عوزى)[6]

ويبدو الارتباط بين (اللات) و(العزى) في رواية للأزرقي[7] ، فيروي أن عمرو ابن بيقه كان أول من دعا إلى عبادة اللات والعزى ، فقال للناس عن اللات : إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة . ثم قال : ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة . وهكذا أصبحت العزى تمثل فصل الشتاء عند العرب ، بينما تمثل اللات فصل الصيف عندهم !!! وأصبحت العزى أيضاً تمثل

---

(١) الألوسي : بلوغ الأرب حـ ١ ص ٣٤٦ .
(٢) سورة النجم آية ١٩ - ٢٢ .
(٣) الكلبي : كتاب الأصنام ص ١٨-١٩ - ويذكر الأزرقي (أخبار مكة حـ ١ ص ٧٤-٧٥) أنها ثلاث شجرات .
(٤) الأزرقي : أخبار مكة حـ ١ ص ٧٥ .
(٥) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ١٢٠ .
(٦) علي ابراهيم : التاريخ الإسلامي العام ص ١٤١ .
(٧) أخبار مكة حـ ١ ص ٧٩ .

آلهة الخصب والرزق . وأصبحت نجم الصباح ، حينما ظهرت اللات في صورة الشمس ، وسميت الزهرة [١] .

وأصبحت اللات والعزى ، دون الآلهة الوثنية الأخرى ، تؤلفان زوجاً يمثل أفضل تمثيل لآلهة العرب المشركين جميعهم . يؤيد ذلك ، فضلاً عن النصوص القديمة ، حديث ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أورده مسلم في صحيحه ، وفيه يقول : « لا ينقضي الليل والنهار حتى يعود الناس إلى عبادة اللات والعزى » . وقد أراد الرسول الكريم أن يصور عودة الناس إلى الشرك أو الوثنية قبل نهاية العالم ، فلم ير أفضل من أن يمثل هذا الشرك بعبادة اللات والعزى [٢] .

أما (مناة) فقد كانت أقدم هذه الأوثان الثلاثة ، كما يذكر الكلبي [٣] . وهي حجر أسود ، أقيم له معبد في قديد على الطريق بين مكة ويثرب ، وكانت العرب جميعاً ، وخاصة الأوس والخزرج وسكان المدينة ، يعظمون مناة ويذبحون ويهدون . وكانت العرب تسمى « عبد مناة » و« زيد مناة » [٤] .

وكلمة (مناة) مشتقة من (المنية) ، فكانت آلهة القضاء والقدر ، وهي تعتبر بهذا الوصف من أقدم مظاهر الحياة الدينية . وظهر اسمها كآلهة مستقلة في النقوش النبطية في الحجر . ولا يزال النظامون العرب في يومنا هذا ينحون باللائمة فيما يصيبهم من سوء حظ على « المنايا والدهر » . [٥] وظلت (مناة) قائمة حتى خرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مكة فاتحاً سنة ٨ هـ [٦] ، فعهد إلى علي بن أبي طالب بهدمها .

واقترنت دائماً أسماء الأوثان (اللات) و(العزى) و(مناة) ، ويروي الكلبي [٧] عن العرب أنهم « كانوا يقولون : بنات الله ، وهن يشفعن اليه » كما روي أيضاً أن قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول :

---

(١) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١٢١ .
(٢) علي ابراهيم : التاريخ الإسلامي العام ص ١٣٠-١٣١ .
(٣) كتاب الأصنام ص ١٣ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ١٢٠ .
(٦) الألوسي : بلوغ الأرب حـ ١ ص ١٤٦ .
(٧) كتاب الأصنام ص ١٩ .

واللات والعـــزى

ومناة الثالثة الأخرى

فانهن الغرانيق العلى

وان شفاعتهن لترتجى

وتحدث الألوسي[1] عن هذه الأوثان الثلاثة ، فقال : «ولم تكن قريش ومن بمكة يعظمون شيئاً من الأصنام اعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة ، فأما العزى فكانت تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وكانت ثقيف تخص اللات ، وكانت الأوس والخزرج تخص مناة ، وكلهم كان معظماً للعزى ، ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي رفعها عمرو بن لحى كرأيهم في هذه ... » .

ولنخصص الحديث عن (اللات) وثن الطائف الشهير ، والذي قام بدور كبير في حياة الطائف الدينية والاقتصادية والسياسية .

وكان للات سدنة (أو حجاب) من ثقيف ، يشرفون على الوثن ، وعلى الحج إليه ، وهم بنو عتاب بن مالك ، وأقامت ثقيف على الصخرة بناء ، «وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمي (زيد اللات) و(تيم اللات)[2] وكان إلى جوارها منحر يسمى (الغبغب) ينحر الحجاج فيه هداياهم للوثن وكان هناك موسم محدد للحج إلى اللات ، تقدمه فيه العرب من كل فج ، وتعظمه كتعظيم الكعبة[3] .

وتشير أخبار الطائف في الجاهلية إلى وجود اللات فى إحدى المعارك المهمة من حرب الفجار ، ونصب قبل المعركة خباء أو بيت ليتخذ محلاً لآلهة الطائف أو «ربة الطائف» ، وكان مدار الخباء يمثل حد حرم منيع لا يمكن خرقه فيظل ملاذاً آمناً للاجئين[4] .

وأحاط باللات حرم وحمى ، يشبه حرم وحمى الكعبة ، وكان لا يجوز أن يصاد

---

(١) بلوغ الأرب حـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) الكلبي : الأصنام ص ١٦ – كانت اللات تقع في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى الآن .

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ١ ص ٤٢٠ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٩٠ والألوسي : بلوغ الأرب حـ١ ص ٣٤٦ .

(٤) علي ابراهيم : التاريخ الإسلامي العام ص ١٢٨ .

في حماها حيوان أو يسفك دم[1] . وقد اختلفت نوعية الهدايا المهداة إلى اللات ، فقد يكون بعض الحيوانات ، أو بعض الانتاج الزراعي ، أو حلياً ذهبية ، أو أسلحة وأقمشة .

وكان فريق من العرب يعتبرون الأوثان وسطاء بينهم وبين الله ، أو شفعاء لهم لديه . فإن أذهان كثير من العرب في العصر الجاهلي ما كانت لتسيغ أن دعاءهم إلى الله عز وجل إذا وجه منهم إليه مباشرة يكون مقبولاً . وانه لا بد لهم من وسطاء يتوسلون بهم إلى الله ، ويقومون نحوهم ببعض العبادات . وأصبحت فكرة الشفاعة جزءاً رئيسياً من عقائدهم وعباداتهم ، وتطور الأمر بهم حتى آمنوا بقدرة الشفعاء على النفع والضرر [2] .

يقول الألوسي[3] ، تحت عنوان (عبدة الأصنام) . : «وهم الذين أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الاعادة ، وأنكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام وحجوا إليها ، ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر ، وأحلوا وحرموا . وهم الدهماء من العرب واقرارهم بالخالق هو الذي يسمى توحيد الربوبية .

«وهو الذي أقرت به الكفار جميعهم ، ولم يخالف أحد منهم في هذا الأصل إلا الثنوية وبعض المجوس وأما غيرهما من سائر فرق الكفر والشرك ، فقد اتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم ومجيرهم واحد ، لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره . كما قال سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ...

«وكانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه ، لكن بطرق مختلفة . فرقة قالت : ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه تعالى ...»

ويرى المؤرخ العربي المعاصر محمد دروزه[4] أن فريقاً من العرب قبل الإسلام

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ٧٥ .

(٢) الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ٤٠ .

(٣) بلوغ الأرب . حـ ١ ص ١٩٧ .

(٤) عصر النبي عليه السلام وبيئته ص ٣٩٦ .

كانوا يعترفون بوجود الله ، خالق السموات والأرض وما فيهما ، والمسيطر على الكون وقوى الطبيعة . وكان فريق منهم يعتقد أن ما هم عليه من عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم ، إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من وحيه وإلهامه ، أي أنهم يعترفون بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء .

واستفادت ثقيف من وجود اللات في الطائف ، فكان كل من يأتي ليستسقم بالأزلام أو ليستشير الوثن يدفع رسوماً محددة ، كما كان الوافدون يعملون على قيام رواج تجاري .

ولا نجد في الطائف طبقة «اكليركية» أو كهنوتية خاصة ، وإنما نجد جماعة من العرافين والزاجرين والسدنة ، دون أن تكون لها مسحة أو منزلة دينية تميزها عن غيرها [1] .

وحاولت ثقيف أن تجعل وثنها (اللات) منافساً للكعبة ، حتى أنها أطلقت على الوثن اسم (الربة) [2] وقال الجاحظ [3] : «وكان لثقيف بيت له سدنة يضاهون بذلك قريشاً» . رغم أن القرشيين والمكيين كانوا يقدمون اللات ويحجون إليه ويقدمون له القرابين وأخفقت ثقيف في جذب الحجاج إلى اللات بدلاً من حجهم إلى كعبة مكة ، ولذا شجعوا – كما رأينا – أبرهة قائد حملة الفيل الحبشية على المضي في طريقه إلى مكة لهدم الكعبة ، وأمدوه بدليل يدل على الطريق [4] . حتى يخلو الجو لوثنهم اللات ، فتستفيد ثقيف الفوائد المادية الضخمة التي كانت تعود على قريش في مواسم الحج ، وحتى تنتقل أسواق مكة إلى الطائف ، مما يزيد من رخائها الاقتصادي .

ولنترك الحديث عن الوثنية في الطائف ، لنتحدث عن اليهودية . قدمت جماعات يهودية كبيرة ، على شكل قبائل وأسر إلى الجزيرة العربية ، وخاصة اليمن والحجاز ، خلال القرنين الأول والثاني بعد الميلاد ، نتيجة عدة أسباب ، منها اضطهاد الرومان وتخريب هيكل بيت المقدس سنة ٧٠ م ، ومنها زيادة عدد يهود فلسطين إلى نحو أربعة

---

(١) Lammens: Le Berceau de L'Islam Vol. I, P. 251.

(٢) المقريزي : امتاع الأسماع ص ٤٩٠ .

(٣) كتاب الحيوان حـ ٧ ص ٦٠ .

(٤) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٤٧ .

ملايين ، ومنها شعور اليهود بالأمان في الجزيرة العربية حيث لا يستطيع الرومان الوصول إليهم نتيجة وعورة السطح والبيئة [1] .

ونجح اليهود في بلاد اليمن نجاحاً كبيراً حين أقنعوا الملك ذانواس ، آخر ملوك الدولة الحميرية باعتناق اليهودية وجعلها الدين الرسمي للدولة . وأصبح اليهود عملاء سياسيين – كما رأينا – للدولة الفارسية . ولكن الاحتلال الحبشي قضى على أحلام اليهود .

لم يقبل العرب في الجزيرة العربية ، في العصر الجاهلي ، على اعتناق اليهودية لعدة أسباب : منها أن اليهود لم يهتموا بالتبشير بدينهم ، فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن سائر الشعوب غير جديرة بالدخول فيما دخلوا فيه ، ولذا وضعوا العراقيل أمام كل من يرى أن يتهود .

واليهودية أيضاً هي خلاصة القانون التلمودي بعقائده وتقاليده وطقوسه ، وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها ، إلا إذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها .

كما كانت التوراة والتلمود تكلف الإنسان تكاليف صعبة ، وتربطه بتقاليد كثيرة لم يألفها ، فلم يستطع العربي الذي لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة ، وكان من العسير على نفسه أن تقبل التقيد بأغلال من القوانين الثابتة الثقيلة ، وهي المطبوعة على حب الاستقلال والحرية .

وسخط العرب على احتكار اليهود لموارد البلاد الاقتصادية فقد كون اليهود أرستقراطية دينية مادية في وقت واحد ، وخاصة أن العرب كانوا ينظرون إلى هؤلاء اليهود باعتبارهم دخلاء غرباء ، نزحوا إلى بلادهم العربية فأقاموا فيها بالقوة ، وزاحموهم في أرزاقهم ، وسيطروا على اقتصاد الجزيرة العربية . وخاصة بلاد الحجاز [2] .

كما لم توجد دولة أخذت على عاتقها نشر الديانة اليهودية في بلاد العرب ، كما فعلت الدولة الرومانية الشرقية حين نشرت المسيحية بإرسال البعثات التبشيرية . بل

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٨-٩ .

(٢) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ٥٨ .

انتشرت اليهودية نتيجة انتقال جماعات من اليهود بأسرها إلى بلاد العرب واستيطانها في أراضيها[١] .

وكانت اليهودية تبيح قتال الوثنيين ، ولكنها لا تبيح الانتفاع بغنائمهم بل تحرقها ، والعربي إنما يقاتل لينتقم من عدوه وينتفع بماله[٢] .

ونلاحظ أن اليهودية لم تنتشر في الحجاز في المدن التي كانت معقلاً كبيراً للوثنية ، أو التي كانت تسيطر عليها قبيلة واحدة قوية ، كما حدث في مكة والطائف ، فقد كانا أكبر المراكز الوثنية في الحجاز ، وكانت قريش تسيطر على مكة ، بينما سادت ثقيف في الطائف ، مما لا يدع مجالاً لسيادة اليهود ، على عكس ما رأيناه في يثرب وخيبر وفدك وتيماء وغيرها من مدن الحجاز .

وكان بالطائف بعض اليهود ، يبدو أنهم كانوا يعيشون على شكل قبائل أو جماعات صغيرة أو مستضعفة بحيث لم يكن لها وزن في الحياة السياسية ، وقد انصرفت تماماً إلى النشاط الاقتصادي مستفيدة من الرخاء الزراعي والرواج التجاري . ويبدو أنهم كانوا يشتغلون بالحرف والمهن والصناعات ، مما يأنف العرب الاشتغال به . ويروي البلاذري[٣] : « كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة » . ولا شك أن هؤلاء اليهود المطرودين حرصوا على الابتعاد عن السياسة حتى لا يصطدموا بقبيلة ثقيف فيكون نصيبهم الطرد أيضاً من الطائف ، ورأوا من صالحهم تركيز جهودهم في التجارة .

ونحن نعتقد أن هؤلاء اليهود القادمين من اليمن ويثرب هم الذين علموا أهل الطائف إقامة الحصون ذات الأبراج ، وبناء القرى وحفر الآبار فوق المرتفعات ، مما عرفه أهل اليمن ويثرب . كما علم اليهود أهل الطائف تربية الماشية والدجاج ونسج الأقمشة وأساليب التجارة الراقية[٤] كما اقتبس العرب من اليهود أموراً كثيرة كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالأعياد[٥] . وقد مر بنا في فصل

---

(١) علي ابراهيم : التاريخ الإسلامي العام ص ١٥٧ .

(٢) محمد نعمان الجارم : أديان العرب في الجاهلية ص ٢٠١ .

(٣) فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٤) ولفنسون : تاريخ اليهود في جزيرة العرب ص ١٠ .

(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي حـ ١ ص ١٥ .

الحياة الاقتصادية أمر تلك العجوز اليهودية التي كانت تحتفظ عندها بأجود أنواع عيدان العنب ، حتى أن الأصفهاني [١] يرى أن زراعة العنب في الطائف كان أصلها على أيدي اليهود .

ولنترك الوثنية واليهودية ، لنرى عقيدة الحنيفية في مدينة الطائف قبل الإسلام . وقد تعارف المؤرخون على أن كلمة (حنيف) كانت تطلق على ابراهيم عليه السلام ، كما أصبح (الدين الحنيف) هو (دين التوحيد) الذي دعا ابراهيم إليه . وأصبح الحنفاء هم من يتبعون ملة ابراهيم [٢] .

وتعارف المؤرخون أيضاً على أن (الحنفاء) هم جماعة من المفكرين المستنيرين أو الفلاسفة أو الشعراء وقفوا في وجه الوثنية ومظاهر الشرك بالله ، فلم يشاركوا في شعائرها السائدة في العصر الجاهلي . ورأى هؤلاء الحنفاء الاحتفاظ بشعائر دين ابراهيم [٣] . ولم يكن معظم الحنفاء نصارى أو يهودا ، وإن كانت قلة من الحنفاء قد اعتنقت المسيحية ، فقد كان هؤلاء في الحقيقة يبحثون عن الحنيفية في صورتها النقية ، التي كانت عليها في عهد ابراهيم .

وقبيل ظهور الإسلام ، ظهرت حركة اصلاحية تهدف إلى العودة إلى دين ابراهيم ، وإصلاح أحوال العرب . وظهر من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء أحوالهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى ، ودعوا إلى دين التوحيد وإلى إحياء ملة ابراهيم ، ونبذ عبادة الأوثان ، والتخلص من عادات الجاهلية ، ويطلق على هذه النزعة (التحنف) وعلى أصحابها الحنفاء [٤] .

لم يكن هؤلاء الحنفاء جماعة موحدة منتظمة ، ولكنهم كانوا أفراداً متناثرين في قبائل مختلفة [٥] ولم يرتبط هؤلاء الحنفاء برباط واحد ، ولم يشتركوا في عبادة واحدة معينة ، ولكننا نعتقد أن هؤلاء الحنفاء المؤمنين بملة ابراهيم ، لم يكونوا عدداً

---

(١) الأصفهاني : الأغاني حـ ٤ ص ٧٥ .
(٢) الخربوطلي : الحنيفية والحنفاء ص ١٣ .
(٣) تاريخ اليعقوبي حـ ١ ص ٢٠٤ وما بعدها .
(٤) الخربوطلي : الحنيفية والحنفاء ص ٣٧ .
(٥) Nicholson: A Lit. Hist. of the Arabs, p.149.

قليلاً ، ولو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدهم القرآن الكريم فئة خاصة وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل ، وقد ذكرت لنا كثير من المصادر القديمة أسماء عديدة لهؤلاء الحنفاء [1] .

كما أن ظهور الحنفاء المستنيرين في غير مكان واحد ، وفي غير وقت واحد ، يدل على ظهور فكرة جديدة مستنيرة دارت في أذهان المفكرين المستنيرين من العرب قبيل ظهور الإسلام ، وهي فكرة نبذ عبادة الأوثان والتخلص من العادات السيئة الجاهلية ، والرقي بالعقيدة والسمو بالإنسانية ، وهي حلقة في سلسلة التطور الديني والفكري في تاريخ العرب [2] .

وكان من نصيب الطائف بعض هؤلاء الحنفاء ، إذ كانت الطائف – كما رأينا – من أكبر معاقل الوثنية ، بل ظلت آخر معقل للوثنية بعد انتشار الإسلام في كل أرجاء الجزيرة العربية . وكان لا بد من رد فعل لهذا الإغراق في الوثنية في الطائف . وشهدت أسواق الطائف ، وأسواق مكة ، وقوف هؤلاء الحنفاء ، يخطبون ، ناصحين ، محذرين ، داعين إلى دين التوحيد ، دين ابراهيم عليه السلام .

أوجز الشهرستاني [3] أخبار الحنفاء ، فقال : « ومن العرب من كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وينتظر النبوة ، وكانت لهم سنن وشرائع » وتحدث ابن قتيبة [4] عنهم في فصل خاص سماه : « قصة من كان على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم » .

ومن أشهر حنفاء الطائف قبيل ظهور الإسلام ، أمية بن أبي الصلت ، ويتصل نسبه بثقيف ، وهو من الشعراء والحكماء ، ومن الشعراء المخضرمين ، الذين عاصروا الجاهلية والإسلام [5] وكان عالماً بغير اللغة العربية ، فاطلع على كتب القدماء ، وخاصة التوراة ، وقد أورد في شعره ألفاظاً غريبة لم تكن العرب تعرفها [6] .

---

(١) دروزه : عصر النبي ص ٤٣٠ .
(٢) الخربوطلي : الحنيفية والحنفاء ص ٣٩
(٣) الشهرستاني : الملل والنحل حـ ٣ ص ٨٦ .
(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧–٢٩ .
(٥) الأصفهاني : الأغاني حـ ٣ ص ٣٥٧ .
(٦) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية حـ ١ ص ١٣٣ .

وكان أمية في العصر الجاهلي في مقدمة الحنفاء ، نبذ عبادة الأوثان ، وكان يبشر دائماً بقرب ظهور نبي ، ولكنه كان يطمع في أن تكون النبوة له .

قال الألوسي[1] عن أمية : « له في التوحيد والحكمة شعر كثير . وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم : آمن شعره وكفر قلبه » .

ويعتبر أمية أعظم شاعر ديني في العصر الجاهلي ، وتدور معظم أشعاره حول الدين ، مما لا نجده في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين . وأمية هو الشاعر الوحيد بين الشعراء الحنفاء الذين وصلتنا معظم أشعاره ، وهي كثيرة ، وكان المسلمون بعد ظهور الإسلام يتناشدونها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمل أن يعتنق أمية الإسلام[2] .

ولم تمدنا المصادر القديمة بتفاصيل تاريخية عن وجود كثير من النصارى في الطائف ، ويبدو انهم كانوا من القلة أو عدم الأهمية ، بحيث أهملتهم هذه المصادر وكان معظم هؤلاء النصارى غالباً من الرقيق ، وسنرى في الباب القادم ، ذلك الغلام النصراني (عداس) الذي سيلتقي الرسول عليه الصلاة والسلام به ، في الطائف ، حين فكر في الهجرة إليها . وقد كان النصارى في مدن الحجاز في الجاهلية قلة قليلة ، ولم يقوموا بدور بارز في تاريخها قبل الإسلام .

٥ ـ مجتمع الطائف

اختلفت الحياة الاجتماعية في مدينة الطائف عن غيرها من مدن الحجاز أو مدن الجزيرة العربية . فقد كانت حياة الطائف الاجتماعية أكثر رخاء واستقراراً وهدوءاً . وذلك نتيجة ظروف البيئة الطبيعية ، فقد تميزت الطائف عن غيرها من مدن الحجاز بظروف بيئية سخية تركت بصماتها وانعكاساتها على حياة المجتمع .

كان العماليق هم أقدم سكان مدينة الطائف وينتسبون إلى (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) ولم تذكر التوراة أصلهم ونسبهم . و(عمليق) جد العمالقة ، هو شقيق (طسم) ، وتذكر الروايات القديمة انهم كانوا أمماً كثيرة وهم عرب صرحاء ، لسانهم

---

(١) الألوسي : بلوغ الأرب جـ ٣ ص ١٢١ .

(٢) الخربوطلي : الحنيفية والحنفاء ص ٨٠ .

اللسان المضري الذي هو لسان كل العرب البائدة . بل زعمت بعض الروايات أن عمليقاً هو أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل فكان يقال لهم ولجرهم (العرب العاربة)[1] .

روى السمهودي[2] : «كان العماليق قد انتشروا في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وعتوا عتواً كبيراً ، فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطئ الشام أذل من بها يعني من الكنعانيين ، وقيل بعث إليهم بعثاً فأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق حتى انتهوا إلى ملكهم» .

ثم أصبحت قبيلة ثقيف تمثل أبرز سكان مدينة الطائف . وما دمنا ندرس في هذا الفصل الحياة الاجتماعية ، فإنه من واجبنا العلمي أن نعرض لنسب وأصول ثقيف . ونجد اضطراباً كبيراً في المصادر القديمة ، وتعدداً في الروايات ، وتناقضاً في الأخبار .

وثقيف من قبائل العرب المستعربة ، أي العرب العدنانية . وقد اختلف النسابون في عدد من كان بين اسماعيل عليه السلام وعدنان من الآباء[3] واختلف العرب في عددهم ، ولذا نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن تجاوز نسب معد بن عدنان وأمرهم بالتوقف عنده[4] .

وكان لمعد بن عدنان عدة أولاد ، جعلهم بعض الاخباريين أربعة ، هم : نزار بن معد ، وقضاعة بن معد ، وقنص بن معد ، واياد بن معد[5] وقد أصبح هؤلاء الأربعة رؤساء لقبائل كبيرة .

ويذكر ابن سعد في طبقاته[6] أن أولاد معد تفرقوا في غير بني معد ما عدا (نزار) ، وامتزج الباقون بأهل اليمن مما أدى إلى تداخل الأنساب . وقد أنجب نزار أربعة أولاد هم : ربيعة ، ومضر ، وأنمار ، واياد ، وتفرع عنهم أيضاً قبائل كثيرة كبيرة[7] .

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ١ ص ٣٤٦ .
(٢) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى حـ ١ ص ١١١ .
(٣) الطبري حـ ٢ ص ١٩١ ، النويري بنهاية الأرب حـ ٢ ، ص ٣٢٢ .
(٤) البلاذري : أنساب الأشراف حـ ١ ص ١٢ .
(٥) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٧ ، البلاذري : أنساب الأشراف حـ ١ ص ١٣ .
(٦) طبقات ابن سعد حـ ١ ص ٥٩ .
(٧) البلاذري : أنساب الأشراف حـ ١ ص ٢٩ .

وهناك أشعار للشاعر المخضرم أمية بن أبي الصلت ، ينسب الشاعر فيها ثقيفاً إلى نزار [١] ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك تاريخياً فهناك من المؤرخين من ينسب ثقيفاً إلى (اياد) ، وهو ابن من أبناء معد ، وهو أيضاً شقيق لنزار وهناك روايات ثالثة ترجع ثقيفاً إلى (قيس عيلان) فروى ابن قتيبة [٢] : «وأما منبه بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس بن عيلان ، فولده قسي وهو ثقيف» . وقيس بن عيلان ، هو (قمعة بن الياس بن مضر) [٣] . تذكر بعض الروايات ، أن عمرو بن قيس بن عيلان أنجب ابنين هما (فهم) و(عدوان) وأن بني عدوان هم الذين أنزلوا ثقيفاً بالطائف [٤] .

ونجد بعض علماء الأنساب من ينسب ثقيفاً إلى (ثمود) فيذهبون إلى أنهم من بقاياهم [٥] . وهو نسب لا يرضى عنه الثقفيون بالطبع ، ويزعجهم أن يكونوا من قوم هلكوا بسبب غضب الله عليهم [٦] .

وهناك روايات تجعل ثقيفاً ابناً لأبي رغال ، ثم ترفع نسب الابن والأب إلى قوم ثمود .

بينما روايات أخرى تجعل ثقيفاً عبداً لأبي رغال [٧] .

ويوضح المؤرخ ابن الأثير [٨] اختلاف الروايات حول نسب ثقيف ، فيقول : «وكانت مساكن ثقيف حول الطائف ، وقد اختلف الناس فيهم ، فمنهم من جعلهم من اياد ، فقال ثقيف اسمه قسي بن نبت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أفصي بن دعمي بن اياد بن معد ، ومنهم من جعلهم من هوازن فقال : هو قيس بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان» .

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ١ ص ٣٩٦ .
(٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٤١ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٧ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) ابن خلدون : العبر حـ ٢ ص ٢٤ .
(٦) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ١ ص ٤٠٦ .
(٧) ابن سعد : الطبقات حـ ١ ص ٣١٢ وما بعدها ، الأصفهاني : الأغاني حـ ٤ ص ٧٤ .
(٨) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٤٢٠ .

ويعلق الدكتور جواد علي[1] على الروايات التي تنسب ثقيفاً إلى ثمود أو إلى أبي رغال فيقول : وفي رأيي أن معظم هذه الروايات التي يرويها الاخباريون عن ثقيف إنما وضعت في الإسلام ، بغضاً للحجاج الذي عرف بقسوته وبشدته ، فصيروا ثقيفاً عبداً لأبي رغال ، وجعلوا أصله من قوم نجوا من ثمود . وأبو رغال نفسه جاسوس خائن في نظر الاخباريين ، حاول ارشاد أبرهة إلى مكة ، فكيف يكون اذن حال رجل من قوم فسقة كفرة ، ثم صار عبداً لجاسوس لئيم ! ! وقد رأيت أن من أهل الأخبار من صير ثقيفاً رجلاً مهاجراً ، هاجر في البلاد يلتمس العيش حتى جاء وادي القرى ، فتبنته عجوز يهودية ، وعطفت عليه ، حتى إذا ما ماتت أخذ مالها ، وهاجر إلى الطائف، وكان لئيماً فطمع في غنم لأمة حبشية ، وكاد يقتلها لولا اشارتها عليه اللجوء إلى (عامر ابن الظرب) الجواد الكريم وصاحب الطائف ، فأعطاه وحباه ، ولكن أبى لؤم ثقيف إلا أن ينتقل إلى ولده ، فتنكروا لبني عامر وأخرجوهم من الطائف ، واستبدوا وحدهم بها ! !

ويفسر ياقوت[2] هذا التضارب في الروايات بحسد القبائل لقبيلة ثقيف ، فقد كان الثقفيون «أغبط العرب عيشاً» ، نتيجة خصوبة ورخاء الطائف ، ولذا ظلت الطائف مطمعاً للقبائل والأعراب ، فيقول ياقوت[3] : «فلما اشتدت شوكة ثقيف وكثرت عمارة وج رمتهم العرب بالحسد ، وطمع فيهم من حولهم وغزوهم» .

وإذا درسنا ما رواه أهل الأخبار عن نسب ثقيف ، وعن القبائل التي اتصلت بها ، نجد انها كانت ذات صلة وثيقة بقبائل (قيس عيلان) من مجموعة مضر ، ومعنى هذا أنها كانت على مقربة منها ، وأنها كانت من قبائل مضر ، كما نجد في الوقت نفسه انها كانت على صلات وثيقة مع بعض قبائل اليمن ، وقد فسرت هذه الصلات بوجود نسب ثقيف باليمن .

وهذا النسب المزدوج ، هو كناية عن الصلات التي كانت تربط بين (ثقيف) ومجموعة (مضر) وبينها وبين قبائل اليمن . وهو تعبير عن موضع الطائف المهم الوسط ،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٨ .

(٢) معجم البلدان حـ ٤ ص ١١ .

(٣) المصدر السابق .

الذي يربط بين اليمن والحجاز والطرق المارة إلى نجد ، مما جعله وسطاً وموضعاً للاحتكاك بين قبائل هذه المناطق [1] .

وكانت قبيلة ثقيف تنقسم إلى بطنين كبيرين [2] هما ، الأحلاف وبنو مالك . وقد مر بنا في فصل الحياة السياسية وقوع الحرب بين الفريقين . ونحن هنا نشير إلى حياتهما الاجتماعية .

ودرس ابن قتيبة [3] تفرع قبيلة ثقيف إلى هذين البطنين الكبيرين ، فروى أن ثقيفاً انجب ابنين هما : جشم ، وعوف ، وابنة هي المسك . وتزوجت المسك من قاسط فولدت بكر وائلاً ، أبا بكر بن وائل . أما جشم فقد ولد ابناً هو (حطيط) ، وأنجب هذا ابنين هما : (مالك) و (غاضره) أما عوف فهو جد الأحلاف ، ومالك هو جد بني مالك . ومن ابرز فروع بني مالك فرعان : بنو السائب بن الأقرع ، وبنو الحارث بن مالك ، ويطلق عليهما اسم (الأثرون) .

ومن أشهر زعماء الاحلاف : غيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل ، والحكم ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة ، وعثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير ابن خرشة بن ربيعة ، وقد قدموا على الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة معلنين اسلامهم ، فاستعمل عليهم عثمان بن أبي العاص [4] . ومن أشهر الأحلاف عند ظهور الإسلام : أمية بن أبي الصلت ، وأبو محجن الشاعر ، والحارث بن كلدة ، ومعتب ، وعتاب ، وأبو عتبة ، وعتبان ، ثم ظهر بعدهم في العصر الأموي : المختار بن أبي عبيد ، والحجاج بن يوسف [5] وكان بنو مالك أقل شأناً من الأحلاف ، وان انضم ثلاثة من زعمائهم إلى الوفد الذي قدم على الرسول في المدينة [6] .

اتصفت الحياة الاجتماعية في الطائف بالرقي والتقدم نتيجة كرم ورخاء البيئة .

---

(1) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٤٨ .

(2) يرتب علماء الأنساب العرب على مراتب متدرجة هي : شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة (النويري : بلوغ الأرب حـ ٣ ص ١٨٧) .

(3) ابن قتيبة : المعارف ص ٤١ .

(4) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٣ .

(5) ابن قتيبة : المعارف ص ٤١ .

(6) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٣–١٨٤ .

والإقامة في الحضر تؤدي إلى التعاون والتآزر ، وتبادل الأفكار في شؤون الحياة ، من علوم وعمران ، مما يتصل بتقدم الإنسان . وذلك ان اجتماع الناس في مكان ، واستقرارهم به ، إنما يكون للتعاون على دفع الضرر ، وتحصيل أسباب المعاش بالزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم المختلفة . وحينما تزداد درجة الحضارة لا يكتفي الإنسان بالضروريات ، بل هو يسعى إلى الكماليات وأدوات الرفاهية .

ويقول ابن خلدون[1] عن الحضارة في المدن انها : «أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة ، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة ، تفاوتاً غير منحصر» .

ويعجبني تعريف (ديورانت)[2] للحضارة ، وكأنه – في تصوري يتحدث عن الطائف . فهو يقول : «إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وحينئذ لا تنفك الحواجز الطبيعية تستنهض للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازهارها» .

ولم تبدأ ثقيف طريقها إلى الحضارة إلا بعد أن أمنت من الخوف ، وأقامت سورها المنيع حول الطائف . وقد مر بنا نص ياقوت الحموي ، الذي رأينا فيه حسد سائر القبائل وتهديدها لثقيف . وكان هذا السور الحصين من عوامل الأمن والاستقرار ، والإنطلاق نحو الحضارة . ويبدو هذا أيضاً في نص آخر لياقوت[3] – حيث يقول : «ثم حسدهم طوائف العرب وقصدوهم فصمدوا لهم وجدوا في حربهم فلما لم يظفروا منهم بطائل ولا طمعوا منهم بغره تركوهم على حال أغبط العرب عيشاً» .

ويحدد (ديورانت)[4] عدة عوامل تصبح مقومات الحضارة . منها ، العوامل الجغرافية والعوامل الاقتصادية ، والعوامل الثقافية ، والعوامل الدينية والعوامل الأخلاقية ، والعوامل النفسية ، والعوامل البيولوجية ، وعوامل التربية .

وإذا طبقنا هذه الأسس على مدينة الطائف ، فإننا نجد أن العوامل الجغرافية في

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣ .
(٢) ديورانت : مقدمة قصة الحضارة حـ ١ ص ٣ .
(٣) معجم البلدان حـ ٤ ص ٩ – ١٠ .
(٤) مقدمة قصة الحضارة حـ ١ ص ٣ وما بعدها .

مدينة الطائف كانت كلها تعين على قيام حضارة راقية ، فالمياه وفيرة ، والأرض خصبة ، والمناخ معتدل ، بل بارد شتاء ، حتى أن المياه تجمد على رؤوس الجبال ، وهذا المناخ خير معين على النشاط البشري أما العوامل الاقتصادية ، فهي متوفرة أيضاً في الطائف ، بساتين كثيرة واسعة ، وغلات زراعية وفيرة متنوعة ، تصبح أسساً وطيدة لنشاط اقتصادي واسع ، زراعي وصناعي وتجاري .

أما العوامل الثقافية ، فهناك وحدة اللغة ، ووحدة اللهجة ، ووحدة العقلية الحضرية. أما العوامل الدينية ، فأهل الطائف كلهم يعتزون بوثنهم اللات ، ويعتبروه رمزاً لقوميتهم وشعاراً لمدينتهم ، ولا يجدون بأساً في الخلاص من الكعبة خلال حملة الفيل ليرتفع ذكر اللات . أما العوامل الاخلاقية ، فهي متوفرة ، فالزراعة تؤدي إلى الاستقرار والتعاون والسلام ، والجو المعتدل والرخاء الاقتصادي يؤدي إلى هدوء النفس وسماحة الأخلاق .

أما العوامل الجيولوجية ، فالطائف لا تتعرض للهزات الأرضية أو العواصف الرملية أو للرياح العاتية ، مما قد يؤثر على الحضارة . كما كانت ظروف التربية في الطائف واحدة ، فقد عاش أهل الطائف في ظلال قبلية ثقيف ، كوحدة اجتماعية وسياسية ، يتقلدون بتقاليدها ، ويتخلقون بأخلاقها ، ويتجهون باتجاهاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

كانت الطائف بمثابة واحة كبيرة خصبة غنية ، وسط بيئة جدباء قحط ، تتناثر فيها قليل من المدن ، وكثير من القبائل البدوية . ولذا أصبح من المحتم على أهل الطائف ، أن يكونوا مستعدين دائماً لرد العدوان ، ودفع الطامعين والحاسدين ، وأصبح رجال الطائف جنداً دائمين متأهبين للقتال في كل وقت . والطائف هي المدينة الوحيدة في الحجاز التي عنيت بإقامة هذا السور المنيع لحمايتها والدفاع عنها .

روى ياقوت[1] أن ثقيفاً حينما لمست طمع القبائل فيها ، وامتناع بني عامر عن نجدتها ، رأت الاعتماد على نفسها ، وبناء ذلك السور حتى « يكون حصناً لهم » . وأصبح السور ، مسألة مصيرية ، ولذا اشترك جميع أهالي الطائف رجالاً ونساء في بنائه ، فكانت النساء تضرب اللبنات ، ويقوم الرجال بالبناء . وكان لهذا السور بابان ، أحدهما

---

(١) معجم البلدان ح ٤ ص ٩-١٠ .

لبني يسار ويسمى (باب صعب) ، والآخر لبني عوف ويسمى (باب ساحر)[1] .

وعاش أثرياء الطائف في قصور هي أشبه بالحصون ، تحميهم وتحمي أسرهم ورقيقهم ، ووفروا لها وسائل الحماية والدفاع . وعرف أهل الطائف كل الوسائل الحربية لمنع الحصار ورد المهاجمين . فكان لديهم أوتاد الحديد التي تحمى بالنار لترمى على الجنود المختفين في الدبابات ، وتعلموا من أهل اليمن كما ذكرنا – صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات . كما استخدم أهل الطائف الحجارة والنبل لرد الهجوم[2] وهكذا أصبحت الطائف في الجاهلية وكأنها ثكنة عسكرية ، على أهبة الاستعداد للقتال في كل حين .

ومجتمع الطائف مجتمع زراعي ، يجعل الزراعة الحرفة الأولى ، ويجيد استخدام موارد المياه ، ويعيشون حياة الاستقرار ويقيمون المنازل الثابتة ، ويجيدون فنون البناء ، وتخطيط المدينة ، وتوفير المرافق لها . وساعدت رؤوس الأموال القادمة من مكة على بناء القصور الفخمة التي كانت مصيفاً لأهالي مكة . وكان وجود هؤلاء في الصيف يؤدي إلى رواج اقتصادي ، فهم في حاجة إلى الكماليات وأدوات الرفاهية ، من فاكهة ، وعطور ، وخمور ومطربين ، وراقصات وملابس فاخرة ، مما نجد صوراً متفرقة له في كتاب الأغاني للأصفهاني . وصناعة البناء ترتبط بها صناعات أخرى ، كالنجارة والحدادة والطلاء وغرس الحدائق ، وبذلك أصبحت قصور المكيين الكثيرة ، محوراً لحياة اقتصادية واجتماعية نشيطة .

وعاش أهل الطائف في مستوى أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز ، فقد رزقوا فواكه أكلوا منها ، وجففوا بعضاً منها ، مثل الزبيب ، وأكلوا وصدروا منه ما زاد على حاجاتهم ، كما اقتاتوا بالحبوب واللحوم ، وأصبح حظ فقراء الطائف أرفع وأحسن درجة من حظ فقراء المواضع الأخرى من الحجاز[3] .

وأدى الثراء الواسع إلى فساد اجتماعي . فاشتهر أثرياء الطائف بأنهم أصحاب ربا ، وزنا ، وخمر وقد اعترف هؤلاء الأثرياء أنفسهم بذلك ، فقد روى المقريزي[4] ذلك

---

(١) المصدر السابق .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٣) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٥٢ .

(٤) المقريزي : امتاع الأسماع ص ٤٩٢ .

الحوار الذي دار بين الرسول عليه الصلاة والسلام ووفد الطائف الذي قدم لإعلان إسلام ثقيف . فقد عبر الزعيم عبد ياليل عن رأي الوفد . فقال للرسول عليه الصلاة والسلام : أرأيت الزنا ؟ فانا قوم عزاب لا بد لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العزبة . فقال الرسول الكريم : هو مما حرم الله . فقال عبد ياليل : أرأيت الربا ؟ فقال النبي : الربا حرام . فقال الزعيم : فإن أموالنا كلها ربا . فقال النبي : لكم رؤوس أموالكم . فقال عبد يا ليل : أفرأيت الخمر ؟ فإنها عصير أعنابنا ولا بد لنا منها . فقال عليه الصلاة والسلام : فإن الله حرمها وخلا أعضاء الوفد بعضهم ببعض ، ثم قال عبد ياليل : ويحكم نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال ؟ لا تصبر ثقيف عن الخمر ، ولا عن الزنا أبداً ! ! . وهذا النص القديم للمقريزي يصور في الحقيقة الحياة الاجتماعية والاخلاقية لثقيف في الجاهلية .

وقد استن أثرياء الطائف بأثرياء مكة ، في اطعام الفقراء والضيوف . وقد اشتهر معظمهم بالجود والكرم . ولم يواجه أثرياء الطائف مشكلة أثرياء مكة في توفير هذا الطعام ، فقد كانت مكة تعتمد على استيراد المواد الغذائية ، وتعاني من سنوات القحط والجدب [1] .

وأصبح الرقيق يمثلون جانباً من جوانب مجتمع الطائف في الجاهلية فحياة القصور تحتاج إلى الخدم والجواري . كما كان أصحاب الزراعة والصناعة في حاجة إلى الأيدي العاملة في ضيعاتهم ومصانعهم . ونستنبط من الروايات القديمة أن هؤلاء الرقيق على جانب كبير من الخبرة في أعمال الزراعة وفي الحرف ، وخاصة إذا علمنا أن العربي كان يأنف الاشتغال بالأعمال اليدوية ، وكان بعض هؤلاء الرقيق من النصارى ، مثل عداس الذي سيلتقي بالرسول في الطائف [2] .

ونجد في مجتمع الطائف مؤثرات يمنية ، فيقول جواد علي [3] : وثقيف أقرب في

---

(١) تتحدث المصادر عن هاشم بن عبد مناف الذي رحل في فترة قحط وجدب إلى فلسطين لشراء كميات كبيرة من الدقيق قدم بها إلى مكة وصنع منها خبزاً ثم قام بذبح الذبائح ثم صار يهشم الخبز لقومه فسموه هاشماً وكان اسمه الأصلي (عمرو) – (الطبري حـ ٢ ص ١٣) .

(٢) كان عداس هذا رفيقاً لعتبة وشيبة ابني ربيعة وسيحسن وفاده الرسول في الطائف حين خرج إليها طالباً من ثقيف السماح له بالهجرة (سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦٢) .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٥٦ .

الواقع إلى اليمن منهم إلى أهل الحجاز ، وتكاد تكون ثقافتهم ثقافة يمنية ، وحياتهم الاجتماعية حياة اجتماعية من النوع المألوف في اليمن ، حتى في الوثنية نجد لهم معبداً خاصاً بهم ، يتقربون إليه ويحجون له . ولعل هذه الاختلافات وغيرها ، هي من جملة العوامل التي صيرت ثقيفاً مجتمعاً خاصاً معارضاً لمجتمع مكة ، وجعلت أهل الطائف يكرهون اهل مكة الذين امتلكوا أملاكاً في الطائف وكانوا يأتون إليها في الصيف هرباً من جو مكة المحرق .

وإن كان جواد علي يجعل التنافس والتباغض بين مكة والطائف ، عاملاً للتباعد بينهما في ظروف الحياة الاجتماعية ، وعاملاً على التقارب بين الطائف واليمن ، إلا أننا نضيف عاملاً آخر ، وهو تشابه ظروف البيئة الطبيعية بين مدينة الطائف وكثير من مدن اليمن ، حيث البيئة جبلية ، والأمطار وفيرة ، وظروف البيئة هي التي تؤثر في درجة الحضارة ، وفي الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية . وقد عرف كل من أهالي الطائف واليمن الإستفادة من سفوح الجبال في الزراعة ، والإستفادة من المياه ، وتخزينها لمواسم الجفاف ، بل تشابه أيضاً الإنتاج الزراعي . بينما مكة ، كما وصفها القرآن الكريم ، بأنها (واد غير ذي زرع) ولولا قيام الكعبة فيها ، لما قامت كمدينة ، لعدم توافر وسائل الحياة . ومجتمع مكة (مجتمع تجاري) بينما المجتمع في كل من الطائف ومعظم مدن اليمن (مجتمع زراعي) . وهناك تنافر واضح بين أبناء كل من هذين المجتمعين . وحينما انهار سد مأرب باليمن وهاجرت القبائل اليمنية إلى المجتمعات الزراعية في الحجاز والعراق والشام ، فقصدت الأوس والخزرج يثرب (المدينة) ولم تقصد مكة . كما أن القبائل اليهودية القادمة من فلسطين نزلت اليمن أو الواحات الخصبة في الحجاز ، ولم تنزل في مكة .

وكان بالطائف بعض اليهود ، ولكنهم لم يؤثروا في حياتها الاجتماعية ، فنحن نعرف انطواء اليهود الاجتماعي ، في كل زمان ومكان ، نتيجة زعمهم بأنهم شعب الله المختار . كما يبدو أنهم كانوا من قلة العدد بحيث أهملتهم المصادر القديمة على عكس ما نرى في يثرب (المدينة) إذ تزدحم هذه المصادر بأخبار هذه القبائل في الجاهلية .

ويبدو أن يهود الطائف القليلين ، قد جرفتهم حياة الطائف الاجتماعية ، فعاشوا في ظلال ثقيف ، مكتفين بممارسة نشاطهم الاقتصادي ولا شك أنه كان لهم حصونهم المنيعة ،

فمثل هذه الحصون في الطائف ظاهرة اجتماعية مألوفة . وقد اعتاد اليهود في الحجاز الحياة في مثل هذه الحصون[1] .

وانتشر الفساد الاجتماعي ، رغم رقي الحضارة ، في مدينة الطائف ، في العصر الجاهلي . فالحضارة هنا هي حضارة مادية ، نتيجة الرخاء الاقتصادي ، ولكنها تفتقد الروحية والخلقية . وقد اعترف زعماء الطائف - كما رأينا - أنهم أهل خمر وزنا وربا . فالأعناب كثيرة ، والخمور رخيصة الثمن ، والجو بارد غالباً ، مما يشجع على الإغراق في الخمر ، ولذا تناثرت الحانات في الطائف ، كما انتشرت دور اللهو الرخيص التي تزخر بالعاهرات والبغايا .

وأصبح وثن (اللات) من محاور الحياة الاجتماعية في الطائف . وقد اعتز أهل الطائف بوثنهم حتى انهم سموه «الربة» إذ كان صخرة كبيرة مربعة[2] وخضع أهل الطائف للنظام العام السائد ، وهو تخصيص أربعة شهور يتوقف فيها القتال والخصام وتسمى الأشهر الحرم «وقدم كثير من العرب إلى اللات حاجين ، ومنهم أهالي مكة ، رغم وجود الكعبة في بلدتهم . وجمع الحجاج بين الحج والتجارة وارتياد الأسواق والمجالس الإجتماعية والثقافية . وكانت شهور الصيف المعتدلة في الطائف هي أنسب الشهور التي يقدم فيها حجاج اللات . وأراد المكيون أن تقع مواسم الحج والأعياد والأسواق في فصل الشتاء ، وطرف من الربيع ، وآخر من الخريف ، لاشتداد حرارة مكة صيفاً ، فوضعوا نظام النسئ ليجعلوا من السنة القمرية والتاريخ الهلالي سنة شمسية ، ويحتفظوا بحلول الموسم في الوقت الذي يرغبونه . كما انه في هذه الفترة تتوافر المحصولات الزراعية والبضائع للعرض في الأسواق ، مما يحقق الفائدة المادية[3] .

وهكذا أصبح الشتاء غالباً هو موسم الحج إلى الكعبة في مكة ، والصيف موسم الحج إلى اللات في الطائف وخاصة أن الطائف تمتلئ صيفاً بالقادمين لقضاء الصيف سواء

---

(١) كان يهود بني النضير في يثرب يمتلكون (حصن زهرة) على بعد ثلاثة أميال منها (سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٠) وهم الذين قال الله تعالى عنهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم) (سورة الحشر آية ٢) ، كما كان يهود بنقريظة يمتلكون أيضاً حصناً قرب المدينة . كما امتلأت مدينة خيبر اليهودية بالحصون والقلاع ، أشهرها حصون (القموص) و (الوطيح) و (السلالم) ، (سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٤٤ وما بعدها) .

(٢) المقريزي : أمتاع الأسماع ص ٤٨٩ .

(٣) الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ٥٢ .

من أهالي مكة أو أهالي نجد . فقد كان بنو عامر بن صعصعة يقدمون من ديارهم في غربي نجد لقضاء الصيف بالطائف[1] .

كانت الحياة الاجتماعية الراقية في الطائف تهيئ الظروف لنهضة فكرية وعلمية . ومن أشهر علماء الطائف في العصر الجاهلي الحارث بن كلده ، وهو من ثقيف ، رحل إلى فارس وتعلم الطب من أهل جند يسابور التي كانت من أهم المراكز العلمية ، وقام بالعلاج في فارس ، ثم اشتهر طبه بين العرب ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام ينصح من كان به علة أن يعرض نفسه على هذا الطبيب . ومولاته هي سمية أم زياد بن أبيه[2] .

كما اشتهر أيضاً ابنه النضر ، وهو ابن خالة الرسول ، وقد تجول بين عدة أقطار ، وعاشر الأحبار والكهنة ، واطلع على علوم الفلسفة والحكمة ، وتعلم الطب من أبيه ، وأبدى عداء شديداً للرسول عليه الصلاة والسلام[3] .

(١) البكري : معجم ما استعجم حـ ١ ص ٧٧ .

(٢) القفطي : أخبار الحكماء .

(٣) الألوسي : بلوغ الأرب حـ ٢ ص ٣٣٥ .

البَـابُ الثّـَانِي

تاريخ مَدينة الطائِف في عَصر النّبي

١ ـ موقف الطائف من ظهور الإسلام ومن مشروع الهجرة النبوية
٢ ـ موقعة حنين وحصار الطائف
٣ ـ إسلام ثقيف والطائف

الباب الثاني

تاريخ مدينة الطائف في عصر النبي

١ ـ موقف الطائف من ظهور الإسلام ومن مشروع الهجرة النبوية

رأينا الطائف في أواخر العصر الجاهلي ، وقد أصبحت في مقدمة معاقل الوثنية ، ومركزاً للفساد الاجتماعي ، والانحراف الخلقي ، ولم تجد ومضات الحنيفية في تبديد ظلمات الجاهلية الرجعية . فقد حاول هؤلاء الحنفاء جاهدين الدعوة إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالروحانيات والتمسك بالأخلاق والفضائل [1] ولكن جهودهم كانت في الحقيقة صرخات في واد . وكان لا بد من هدم المجتمع الجاهلي الفاسد من أسسه ، وهذا ما فعله الإسلام .

وكانت الطائف في السنوات الأخيرة من العصر الجاهلي أكثر تمسكاً بجاهليتها ورذائلها . فالمصادر القديمة تحدثنا عن أقباس كثيرة منيرة تحاول الانتشار في سماء مكة ، بينما ظللت سماء الطائف سحب سوداء حالكة من الشرك والكفر والفساد فيحدثنا ابن هشام [2] — مثلاً — عن نفر من سادة قريش [3] اجتمعوا « فقال بعضهم لبعض :

---

(١) تحدث الشهرستاني في كتابه الملل والنحل حـ ٣ ، وابن قتيبة في كتابه المعارف عن جهود أمية بن أبي الصلت ، وعامر بن الظرب العدواني ، في الدعوة إلى الحنيفية . أنظر أيضاً كتاب الدكتور الخربوطلي (الحنيفية والحنفاء) تجد كثيراً من التفاصيل .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل (المصدر السابق) .

تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ! ! يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فانكم والله ما أنتم على شيء . فتغرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين ابراهيم » .

ونقرأ في المصادر القديمة عن أبي أنس قيس بن صرماح ، وقد نادى بنبذ الأوثان ، كما نقرأ عن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن مظعون ، اللذين نهيا عن شرب الخمر في العصر الجاهلي . أما أهل الطائف . فقد شهدناهم في حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، يفتخرون أنهم أهل خمر وزنا وربا .

أرادت ثقيف سنة ٥٧١ م انتهاز فرصة حملة الفيل ، والغزو الحبشي لمكة ، للخلاص النهائي من الكعبة ، باعتبارها مصدراً للنفوذ الأدبي والثراء المادي لمنافستها قريش ولكن الإرادة الإلهية شاءت أن يبقى بيت الله الحرام فقد كان مولد محمد عليه الصلاة والسلام في هذه السنة ، ثم أشرقت أنوار الإسلام على العالم أجمع بعد أربعين سنة ، ثم جعل الإسلام الكعبة قبلة معتنقية في الصلاة ، ومقصداً لهم في الحج .

كانت الدعوة الإسلامية سرية خلال السنوات الثلاث الأولى من ظهور الإسلام [١] حتى أمر الله تعالى رسوله الأمين بالجهر بالدعوة ، فقال سبحانه وتعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون) [٢] ، كما قال عز وجل : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) [٣].

واستجاب الرسول الأمين لأمر الخالق العظيم ، فجهر بدعوته إلى الإسلام ، ودعا الناس إلى التوحيد ، وترك عادات الجاهلية ، واتبع طريقة عربية مألوفة في الإعلام حينئذ ، كان يتبعها المفكرون ودعاة الإصلاح ، وهي طريقة النداء . فكان من فوق

---

(١) وتسمى هذه الدعوة بدعوة الأفراد ، فقد كان الرسول الكريم يدعو سراً كل من يثق فيه أو يرى منه قبولاً للدين الجديد وكان يصلي بالمسلمين خفية في شعاب مكة (سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٧٥) .

(٢) سورة الشعراء آيات ٢١٤-٢١٦ .

(٣) سورة الحجر آيات ٩٤ - ٩٦ .

جبل الصفا بظاهر مكة ينادي كل قبيلة من القبائل التي تقدم إلى مكة ، للحج ، أو الاعتمار ، أو التجارة ، ويدعوها للإسلام [1] .

وكان الثقفيون من بين أبناء القبائل الذين يقدمون إلى مكة ، بين حين وآخر . وقد أصموا آذانهم عن الاستماع لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا كانت قريش قد تنكرت لابن من أعظم ابنائها ، وكانت تسميه قبل الإسلام بالصادق الأمين ، واتهمته بما شاءته من اتهامات باطلة [2] ، فقد رأت ثقيف ألا تنصت إلى ابن منافستها وعدوتها التقليدية ، التي تسيطر على اقتصاديات الطائف .

ورأت قريش أن تتأكد من صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فبعثت بمندوبين منها إلى أحبار يهود يثرب (المدينة) ، وقالت قريش لمندوبيها : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء [3] وهذه الحقيقة ، توضح انه لم يكن في الطائف أحبار لليهود ، ممن اشتهروا بالعلم بأخبار الماضي والأنبياء ، ولذا اختارت قريش يثرب رغم أن الطائف أقرب مكاناً من مكة .

وأبدى رجلان من رجالات ثقيف عداء شديداً للرسول عليه الصلاة والسلام وأولهما هو أمية بن أبي الصلت ، وكان من الحنفاء ، ويتوقع ظهور نبي جديد ، ولكنه كان يتوهم أنه هو هذا النبي المنتظر ، ولذا حينما « سمع بخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، كفر حسداً له ، ولما أنشد – أي أمية – رسول الله صلى الله عليه وسلم شعره ، قال : آمن لسانه وكفر قلبه » [4] .

وأشعار أمية تعبر عن ايمان بالله خالق هذا العالم . وقد نادى ببعض الآراء ، أخذها عن الإنجيل أو من (الفولكلور العربي) ، ولكن أمية لم يعبر في شعره عن التعاليم الإسلامية ، مدفوعاً بغيرته وعدائه للرسول . ونجد في شعر أمية قصائد في مدح قبيلته ثقيف ، ومدح رجالات مكة [5] .

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) اتهم القرشيون الرسول الكريم بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن (سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٣٢١) .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٣٢١–٣٢٢ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٨ .

(٥) Encyclop. of Arabic Civil., p.546.

وكان أمية ينبذ الوثنية ، ويعيش حياة روحية فيرتدي المسوح ، وتنقل بين كثير من البلاد بحثاً عن جوهر العقيدة الحنيفية ، والتقى بكثير من الرهبان ورجال الدين ، ودرس كتبهم ، إذ كان يجيد القراءة والكتابة ونجح في تحصيل كثير من المعلومات والمعارف الدينية ، نمت معارفه الخاصة ، وانطبعت في أشعاره العديدة [١] . وظل أمية معتقداً بجدارته بالنبوة ، وهي الفكرة التي أدخلها في روعه بعض الرهبان بعد أن استمعوا إلى أفكاره الدينية [٢] .

أما الثقفي الثاني الذي أبدى عداء شديداً للرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي ، وفيه يقول الألوسي [٣] : « كان النضر ابن خالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأحبار والكهنة ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة ، واطلع على علوم الفلاسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان يعلمه من الطب وغيره ، وكان النضر يوافي أبا سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم لكونه كان ثقفياً . وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قريش والأنصار حليفان ، وبنو أمية وثقيف حليفان .

«وكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة ، كيما يحط من قدره عند أهل مكة ، ويبطل ما أتى به يزعمه ، ولم يعلم بشقاوته أن النبوة أعظم ، والسعادة أقدر ، والعناية الإلهية أجل ، والأمور المقدرة أثبت ، وإنما النضر اعتقد انه بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة وأين الثرى من الثريا ؟ والحضيض من الأوج ؟ والشقي من السعيد ؟ ! ! »

وهذا الحديث النبوي الشريف الذي ذكره الألوسي في هذا النص يوضح اختيار قبيلة ثقيف التحالف مع بني أمية ، الذين تزعموا حركة المعارضة الشديدة العمياء ضد الإسلام ، مدفوعين ببغضهم وحسدهم لبني هاشم . فقد كان البيتان القرشيان يتنافسان

---

(١) الأصفهاني : الأغاني حـ ٣ ص ٣٥٨ وما بعدها .

(٢) الخربوطلي : الحنيفية والحنفاء ص ٨٠-٨١ .

(٣) الألوسي : بلوغ الأرب حـ ٣ ص ٣٣٥ .

حول مناصب الشرف والقيادة في الجاهلية [1] ، وتفوق الهاشميون ، فانصرف الأمويون إلى التجارة وحازوا ثراء واسعاً شغلهم بالدنيا والمادة عن القيم الروحية – ثم شاءت الإرادة الإلهية أن يكون محمد الهاشمي سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فازداد بنو هاشم مجداً وسؤدداً . ولذا رأى الأمويون الوقوف موقف المعارضة من الإسلام ، ومن الرسول عليه الصلاة والسلام .

واستمر النضر بن الحارث الثقفي في عدائه ، حتى انه انضم إلى مشركي قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب في معركة بدر ، وكان من ضمن الأسرى وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بقتله بعد انتهاء حرب بدر . ويقول الألوسي [2] : «وكان عليه الصلاة والسلام إنما آخر قتل النضر بن الحارث إلى أن وصل الصفراء ليتروى فيه ، ثم انه رأى صواب قتله ، فقتله » .

وكانت نظرة ثقيف إلى الإسلام ، هي نظرة معارضي الإسلام من قريش ، وقد رأوا جميعاً أن الإسلام خطر يهدد قبيلتي مكة والطائف على السواء .

وفي الحقيقة ، كانت قريش تحافظ على كيانها السياسي والديني والاقتصادي . فقد أصبحت قريش جمهورية صغيرة تسيطر على مكة والأرجاء المحيطة بها ، لها رئاستها ومناصبها السياسية . وقد وضعت قريش نفسها فوق مصاف جميع القبائل ، وأصبحت تمثل طبقة أرستقراطية ، تعتمد في أرستقراطيتها على نفوذ ديني كبير ونشاط اقتصادي واسع النطاق . كما أصبحت قريش تمثل رأس الوثنية في بلاد الحجاز ، إذ هي سادته الكعبة التي حولتها من مركز لعبادة الله إلى مقر للأوثان ، وأصبحت السيادة الدينية أساساً للسيادة السياسية . كما أدى هذا النفوذ الديني إلى رحيل قوافل قريش في أمان وسلام . فلم تتعرض لما كانت تتعرض له قوافل سائر القبائل الأخرى . وأصبحت قريش تمثل الرأسمالية الجشعة المستغلة [3] .

ورغم ما كان بين قريش وثقيف من تحاسد وتنافس وتباغض ، فقد رأت القبيلتان أن تمضيان معاً على طريق واحد ، هو معارضة الإسلام ، محافظة على

---

(١) في عهد عبد المطلب حدث النزاع بين بني هاشم وبني أمية ، فقد شعر حرب بن أمية بغيرة شديدة من عبد المطلب (الطبري حـ ٢ ص ١٤) .

(٢) بلوغ الأرب حـ ٣ ص ٣٣٥ .

(٣) الخربوطلي : الرسول والحرب النفسية ص ٧ .

كيانهما ومصيرهما . فمن الناحية السياسية ، أرادت كل منهما المحافظة على السيادة ، ومن الناحية الدينية ، فكانت كل قبيلة منهما راعية للوثنية ، مما أكسبهما مركزاً أدبياً ودخلاً سنوياً ثابتاً . أما من الناحية الاقتصادية ، فالإسلام ينهى عن الاحتكار والاستغلال والجشع والربا ، وقد احتكرت قريش تجارة الحجاز ، وأسواق مكة ، وكانت ثقيف تتعامل بالربا ، وتتحكم في أسعار الغلات الزراعية التي تدرك حاجة بلاد الحجاز اليها . أما من الناحية الاجتماعية ، فقد عاش أشراف القبيلتين حياة مادية بحتة ، وجمعوا ثروات ضخمة ، وفرت لهم حياة النعيم والرفاهية[1] ، وما يتخللها من عبث ولهو ، بينما يتضور أبناء القبائل العربية الضاربة في الصحراء جوعاً ، ويعانون الفقر والحاجة .

وفي الطائف ، أخذت ثقيف تراقب ، باهتمام وترقب ، مسار الدعوة الإسلامية وتطور العلاقات بين قريش والمسلمين . وقدم ثقفيون إلى مكة ، من وقت إلى آخر ، لمراقبة الأحوال ، ونقل صورة كاملة دقيقة عنها إلى زعماء ثقيف .

ولم تدرك كل من قريش أو ثقيف حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولم تفطن إلى أنه رسول الله إلى العالمين ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ونظرت إليه على أنه مصلح اجتماعي ، أو صاحب دعوة محدودة ، وكانت القبيلتان قد اعتادتا أن ترى مثل هؤلاء المصلحين والدعاة ينتشرون في الأسواق . كما كان من بين أهالي الحجاز أفراد لا يزالون يؤثرون الاحتفاظ بدين ابراهيم الحنيف ، ويطلق عليهم اسم (الحنفاء) ، وكان هؤلاء الحنفاء يقومون في تلك الأسواق ، يدعون العرب إلى نبذ عبادة الأوثان والعودة إلى دين التوحيد ، وإلى التخلي عن رذائل الجاهلية ، والتمسك بالفضائل[2] .

اتبعت قريش في مقاومتها للإسلام ، وفي عدائها للرسول وللمسلمين ، أساليب عديدة ، سلبية وإيجابية ، وكان منها الحرب النفسية ، مما نجد تفاصيله في كتب السيرة النبوية ثم بدأ المشركون بايذاء واضطهاد وارهاب بعض المسلمين «فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ،

---

(١) عاش أثرياء قريش في قصور فخمة ، وامتلكوا الجواري والعبيد وأكلوا في أواني ذهبية وفضية ، ومدحهم الشعراء فأغدقوا عليهم الصلات .

(٢) الخربوطلي : الرسول والحرب النفسية ص ١٢ .

وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم »[1] .

وواجه الرسول عليه الصلاة والسلام هذه المرحلة ، بسماحه للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة ، فقد اشتهر ملكها بالعدل والتسامح[2] ولم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته في مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكاً بدينها الوثني . وكذلك لم يفكر في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين العرب ، لأن كلا الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها في النفوذ الأدبي لبلاد العرب . فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً . أما اليمن فقد كانت مستعمرة للفرس المجوس ، فلم يطمئن الرسول إلى هجرة المسلمين إليها ، أما إمارتي الحيره والغساسنة فقد كانتا بعيدتين غاية البعد عن مكة . كما أن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقاً هامة لتجارة قريش . وكانت لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة . فإذا علمت قريش أن المسلمين في بلد منها طلبت إلى أهل ذلك البلد أن يردوهم إليها ويخرجوهم منها ، كما حاولت ذلك مع النجاشي لولا تسامحه وقوة خلقه[3] .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حكيماً ، حين لم يفكر في السماح للمسلمين بالخروج إلى مدينة الطائف ، رغم قربها المكاني الشديد من مكة . فقد كان واقفاً على أحوال ثقيف ، عارفاً إغراقها في الوثنية ، ورعايتها لوثنها اللات . وأدرك الرسول الأمين الحكيم ، أن أهالي الطائف واقعين تحت سيطرة تجار وأثرياء مكة ، وخاصة بني أمية ، وهم الذين أبدوا عداء شديداً للإسلام . وتوقع الرسول عليه الصلاة والسلام أن ثقيفاً كانت ستغلق أبواب سورها المنيع أمام هؤلاء المسلمين ، كما أنها ستكون أشد قسوة واضطهاداً للمسلمين من قريش ، فقد تناست قريش صلات القرابة والنسب والرحم ، فآذت النبي والمسلمين من القرشيين . وإذا كانت قريش قد لاحقت المسلمين في الحبشة ، فبعثت بوفد يطلب من النجاشي تسليم المسلمين لقريش[4] فقد أدرك

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٨٨ ، المقريزي : امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٠ . ،

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٨٧–٨٨ .

(٤) أرسلت قريشاً وفداً برئاسة عمرو بن العاص يحمل الهدايا الثمينة يطلب من النجاشي إعادة المسلمين ، وسأل النجاشي المسلمين عن دينهم ، فاقتنع بصدقه ورفض طلب قريش (سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٠) .

الرسول الكريم أن قريشاً ستلاحق المسلمين حتماً في الطائف ، وأن ثقيفاً ستسلمهم إلى قريش .

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة انتصاراً حازه الرسول عليه الصلاة والسلام على قريش ، وشعرت قريش بالخوف من نتائج تأييد الحبشة للمسلمين ، فيذكر المستشرق (توماس أرنولد) أن قريشاً رأت أن هؤلاء المهاجرين يعرضون استقرار الحكومة القرشية القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبي قوي .

وبقي الرسول في مكة مع المسلمين الذين عجزت قريش عن إلحاق الأذى بهم ، ولم يهاجر الرسول مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، لأن رسالته لا بد أن تبدأ بالعرب ، لأنهم أقرب الشعوب إلى فهمها ، إذ نزلت بلغتهم ، وكانت معجزتها قرآناً عربياً لا يدرك أعجازه غير العرب .

ورأى القرشيون أن يحاربوا المسلمين حرباً اقتصادية واجتماعية ، فأعلنوا مقاطعة بني هاشم ، فلا يتعاملوا معهم في بيع أو شراء ، ولا يصاهروهم ، ولا يشاركوهم مجالسهم ، حتى يسلموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة [1] .

ولجأ بنو هاشم إلى شعاب مكة ، حيث أقاموا ثلاث سنوات عانوا خلالها من الجوع والعطش والحرمان ، ثم رأت شخصيات مستنيرة من قريش انهاء المقاطعة [2] .

ثم ظهر مشروع الهجرة إلى مدينة الطائف ، وكان له عدة أسباب ، منها تعرض الرسول عليه الصلاة والسلام للإيذاء الشديد بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، في عام واحد ، سماه (عام الحزن) .

أما خديجة بنت خويلد ، فهي أول إنسان يعتنق الإسلام بعد البعثة النبوية مباشرة [3] وهي الزوجة الأمينة التي أدخلت الطمأنينة إلى قلب زوجها الحبيب ، رسول الله ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٤ ، المقريزي امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٥٩ .

(٣) قال الطبري في تاريخه (جـ ٢ ص ٥٣) : «فكان أول من صدقه – أي الرسول – واتبعه من خلق الله فيما ذكر زوجه خديجة» .

ووقفت إلى جانبه في أوقات الشدة والمحن ، تواسيه ، وتشد أزره ، وتخفف من آلامه [1] .

أما أبو طالب ، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام ربيباً له ، إذ نشأ في بيته ، فأصبح منه في منزلة الابن ، ورغم أن أبا طالب لم يعتنق الإسلام ، فقد بسط حمايته على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومنع عنه أذى واضطهاد مشركي قريش . وقد حاول المشركون إثناء أبي طالب عن هذه الحماية ، ولكنه ظل طوال حياته الدرع الذي يصد عن الرسول الكريم سهام الغدر والإيذاء [2] ولذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » [3] .

ومن عوامل اختيار الرسول عليه الصلاة والسلام الطائف ، دون غيرها من مدن الحجاز ، ليهاجر إليها ، ويتخذها مركزاً جديداً للدعوة الإسلامية ، أن أخواله من بني ثقيف ، ولذا رأى الرسول الكريم أن يخرج إلى الطائف « يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه » [4] .

ومن هذه العوامل أيضاً ، قرب الطائف من مكة ، ومعرفة أهل الطائف لقدره ونسبه فهو حفيد عبد المطلب بن هاشم ، الذي ارتفع ذكره بين العرب جميعاً بعد اخفاق حملة الفيل والغزو الحبشي ، ويعرف أهل الطائف عمه العباس بن عبد المطلب ، فهو يمتلك بعض البساتين والعقارات في الطائف [5] ، كما كان عمه الزبير بن عبد المطلب يخرج دائماً بتجارة قريش إلى الطائف .

ويذكر ابن هشام [6] والطبري [7] أن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج وحده

---

(١) روى ابن هشام في سيرته (حـ ١ ص ٢٥٧) أن جبريل قال للنبي : اقرئ خديجة السلام من ربها . فقال الرسول لخديجة : يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك . فقالت : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام . وقد بشر الرسول زوجه خديجة بالجنة .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٨٤ ، وما بعدها .

(٣) الطبري حـ ٢ ص ٨٠ ، المقريزي : امتاع الأسماع حـ ١ ص ٢٧ .

(٤) الطبري حـ ٢ ص ٨٠ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة حـ ١ ص ٦٥ .

(٦) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦٠ .

(٧) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٨٠ .

إلى الطائف . بينما يذكر ابن سعد [١] وابن الأثير [٢] والمقريزي [٣] أن الرسول قد صحب معه في رحلته إلى الطائف مولاه زيد بن حارثة .

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، في شهر شوال في السنة العاشرة بعد البعثة النبوية [٤] . وكان لا بد من لقاء مع زعماء ثقيف ، فهي القبيلة صاحبة السيادة في الطائف ، فالتقى بزعماء اخوة ثلاثة ، وهم عبد يا ليل ، ومسعود ، وحبيب ، ابناء عمر بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف . وكان عند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح ، « فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه » [٥] .

ولم يلق الحديث الشريف الجاد الذي توجه به الرسول عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الزعماء قبولا ، بل أبدوا عبارات السخرية والاستهزاء ، فقال أحدهم : هو يمرط [٦] ثياب الكعبة إن كان الله ارسلك . وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا اكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت اعظم خطرا من ان ارد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن اكلمك .

ويئس الرسول عليه الصلاة والسلام من إقناع زعماء ثقيف بمناصرته ، ورأى أن يغادر مجلسهم وتوجه إليهم برجاء أخير ، فقال عليه الصلاة والسلام : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . ويفسر ابن هشام [٧] والطبري [٨] هذا الرجاء ، فيقولا : «وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم [٩] ذلك عليه .

---

(١) طبقات ابن سعد حـ ١ ص ١٩٥ .
(٢) الكامل حـ ٢ ص ٦٣ .
(٣) امتاع الأسماع حـ ١ ص ٢٧ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦٠–٦١ ، الطبري حـ ٢ ص ٨٠ .
(٦) يمرطه : أي ينزعه ويرمي به .
(٧) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦١ .
(٨) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٨٠ .
(٩) يذئرهم عليه : يثيرهم عليه ويجرئهم .

وكان هؤلاء الزعماء من الخسة والدناءة بحيث أنهم لم يستجيبوا إلى هذا الطلب اليسير الذي تقدم به الرسول عليه الصلاة والسلام ، مما توجبه الأمانة والشهامة والمجالس أمانة .

ويقدم ابن هشام[1] والطبري[2] صورة مؤلمة لتلك المعاملة القاسية الغادرة التي عاملت ثقيف بها النبي الكريم ، وكأنها تنفس عن أحقادها وبغضها لقريش جميعها . فروى المؤرخان : « فلم يفعلوا – أي زعماء ثقيف – وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حبلة[3] من عنب ، فجلس فيه . وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة التي من بني جمح ، فقال لها : ماذا لقينا من احمائك ؟ ! ! »

ثم توجه الرسول عليه الصلاة والسلام بقلبه ولسانه إلى خالقه العظيم سبحانه وتعالى ، فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني[4] ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليَّ سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .[5]

ورأى ابنا ربيعة ، عتبة وشيبة ، ما لقي الرسول الكريم ، فأشفقا عليه ، فدعوا غلاماً لهما ، كان نصرانياً ويدعى عداس ، فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . وقبل أن

---

(١) ابن هشام حـ ٢ ص ٦١ .

(٢) الطبري حـ ٢ ص ٨١ .

(٣) الحبلة : شجرة العنب أو قضبانها .

(٤) تجهمه : استقبله بوجه كريه .

(٥) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦١–٦٢ ، تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٨١ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ٦٣ .

يأكل الرسول عليه الصلاة والسلام العنب قال (بسم الله) فتعجب عداس ، وقال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فسأله الرسول الكريم عن بلده ودينه ، فأخبره أنه نصراني من أهل نينوى . فقال الرسول : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فسأل عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فأجاب الرسول : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على الرسول يقبل رأسه ويديه وقدميه .

وقال واحد من ابني ربيعة للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك . ثم قالا لعداس : ويلك يا عداس ، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ فأجاب : يا سيدي ، ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . فقالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .[(١)]

وغادر الرسول عليه الصلاة والسلام الطائف ، راجعاً إلى مكة ، وفي الطريق مر بوادي نخله ، وقام في الليل يصلي ، فاستمع إليه سبعة نفر من جن أهل نصيبين[(٢)] ، ويقول ابن هشام[(٣)] : «فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) ، إلى قوله تعالى ويجركم من عذاب أليم) سورة الأحقاف من ٢٩ - ٣١. وقال تبارك وتعالى : (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة «آية ١ سورة الجن» .

وفي طريق الرسول عليه الصلاة والسلام من الطائف إلى مكة ، التقى ببعض أهل مكة ، فطلب من أحدهم أن يعود إلى مكة ، فيقصد الأخنس بن شريق فيقول له : يقول لك محمد ، هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي . فكانت اجابة الأخنس أن الحليف لا يجير على الصريح . فطلب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعاود قصد مكة ليطلب نفس الطلب من سهيل بن عمرو ، الذي قال : ان بني عامر بن لؤي لا

---

(١) ابن هشام حـ ٢ ص ٦٢-٦٣ ، الطبري حـ ٢ ص ٨٠-٨١ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ٦٤ .

(٢) يقول الطبري حـ ٢ ص ٨٢) والمقريزي (امتاع الأسماع ص ٢٨) ، (نصيبين اليمن) ، بينما يذكر ابن هشام حـ ٢ ص ٦٣ ، وابن الأثير (الكامل حـ ٢ ص ٦٠٤) أنها (نصيبين) .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦٣ - ويذكر المقريزي (امناع الأسماع ص ٢٨) أن إيمان الجن برسول الله كان حين كان عمره خمسون سنة وثلاثة شهور ، وكان قبل الهجرة بثلاث سنوات .

تجير على بني كعب . وفي المرة الثالثة ، قبل المطعم بن عدي أن يجير الرسول عليه الصلاة والسلام[1] .

ولبس مطعم بن عدي ، وبنوه ، وبنو أخيه ، السلاح ، فدخلوا المسجد الحرام فسأله أبو جهل : أمجير أم متابع ؟ فأجاب : بل مجير . فقال أبو جهل : قد أجرنا من أجرت .

وفي اليوم التالي دخل الرسول عليه الصلاة والسلام المسجد الحرام ، والمشركون عند الكعبة ، فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا بني عبد مناف . فقال عتبة بن ربيعة : وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك . فقال عليه الصلاة والسلام : أما أنت يا عتبة بن ربيعة ، فوالله ما حميت لله ولا لرسوله ، ولكن حميت لأنفك ، وأما أنت يا أبا جهل بن هشام فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً ، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون[2] .

ووصف ابن هشام[3] حال الرسول عليه الصلاة والسلام بعد عودته من الطائف إلى مكة ، فقال : « ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين ، ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم ، إذا كانت ، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به » .

وكان ممن دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، بنو عامر بن صعصعة . وقد أشرنا إليهم في الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث ، عند حديثنا عن نشأة مدينة الطائف . فقد كان لبني عامر السيادة في الطائف قبل ثقيف ، وتغلبت ثقيف عليهم فرحلوا إلى تهامة ، ثم كانت مواطنهم في نجد ، وكانوا يصيفون بالطائف حتى منعتهم ثقيف[4] .

---

(١) الطبري حـ ٢ ص ٨٢ .

(٢) الطبري حـ ٢ ص ٨٣ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦٣–٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٤٢٠ وما بعدها .

وبعد دعوة الرسول الكريم لبني عامر بن صعصعة ، قال أحد زعمائهم وهو بيحرة ابن فراس لقومه : والله ، لو اني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم توجه بيحرة بن فراس للرسول بالحديث فقال : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فأجاب الرسول : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال بيحرة : افتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا إلا حاجة لنا بأمرك .

وعادت بنو عامر إلى مواطنها ، وقصت أخبار رحلتها على شيخ طاعن السن من شيوخها ، لم تمكنه شيخوخته من مصاحبتهم . وتحدثوا عن الرسول عليه الصلاة والسلام فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذناباها[١] من مطلب ، والذي نفس فلان بيده ، ما تقولها اسماعيلي[٢] قط وانها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟ ![٣] .

لقد كانت الطائف أنسب مدن الحجاز للهجرة ، ولقيام دولة إسلامية ، ومجتمع موحد ، فهي تقوم على مكان مرتفع ، مما يوفر ملاءمة المناخ ، ووفرة الانتاج الزراعي وكانت الطائف أيضاً (بستان قريش) . وكانت قبيلة ثقيف عدوة لدودة لقبيلة قريش تنافسها في مجالات الدين والتجارة . وكان من المتوقع – منطقياً – أن تحاول ثقيف الإستفادة من هذا الدين الجديد في التفوق على عدوتها القديمة . كما كان من الشهامة والمروءة العربية أن ترحب ثقيف بهؤلاء المهاجرين من المسلمين الذين اضطهدتهم قريش ، واضطرتهم إلى مغادرة الوطن . ولكن ثقيفاً ، بضيق أفقها وجاهليتها ، خشيت على كيانها السياسي والديني من الإسلام . وكان قيام دولة إسلامية بزعامة النبي يقضي تماماً على سيادة ثقيف السياسية ، كما كان الإسلام يضع حداً لهذه الوثنية العمياء التي أصبحت مورداً لثقيف[٤] .

(١) هذا مثل يضرب لما فات . واصله من « ذنابي الطائر » إذ أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به .

(٢) أي ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني اسماعيل .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٦٦ .

(٤) الخربوطلي : أضواء جديدة على تاريخ العالم الإسلامي ص ١٧ .

ظل مشروع الهجرة من مكة قائماً ، رغم اخفاق مشروع الهجرة إلى الطائف ، ثم حدث أن قدم – في عامين متتاليين – إلى مكة جماعة من عرب يثرب (المدينة) فالتقى الرسول الكريم بهم ، ولبوا دعوته إلى اعتناق الإسلام ، وبايعوه (بيعة العقبة) [1] ودعوه إلى الهجرة إلى مدينتهم ، فقبل الدعوة ، وبدأ خروج جماعات صغيرة من المسلمين من مكة إلى يثرب ، حتى أذن الله تعالى لرسوله الأمين بالهجرة [2] .

وتكاتفت عوامل دينية وسياسية أدت إلى اقبال يثرب على الإسلام وتأييد الرسول ، فمن الناحية الدينية كان عرب يثرب كثيراً ما يسمعون من اليهود أن نبياً يبعث . هذا إلى أنه لم يكن للأوس والخزرج فائدة مادية من وراء التمسك بالوثنية ، كما كان لقريش في مكة ، أو لثقيف في الطائف . ومن الناحية السياسية ، كانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة [3] . كما كان عرب يثرب منقسمين على أنفسهم وقامت حروب طويلة بين الأوس والخزرج ، وكان من نتائجها خروج حجاج القبيلتين إلى الرسول يبايعونه ويدعونه إلى مدينتهم ويتعهدون بحمايته . فقد وجدوا في الإسلام سبيلاً إلى جمع شملهم وتوحيد صفوفهم [4] .

ومما يلفت نظرنا في بيعة العقبة أن عم النبي ، العباس بن عبد المطلب ، قد حرص على أن يأخذ المواثيق من أهل المدينة ، ولذا صحب العباس ابن أخيه في لقاء العقبة . وكان قد حل مكان أخيه أبي طالب في حماية الرسول ، رغم امتناع العباس عن اعتناق الإسلام [5] .

فقد قال العباس : «يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وانه قد أبى إلا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون انكم

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٧٥–٧٦ .

(٢) طبقات ابن سعد حـ ١ ص ٢١٠–٢١١ ، المقريزي : امتاع الأسماع حـ ١ ص ٣٧ .

(٣) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٧١ .

(٤) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ٢٩ .

(٥) أرفنج : حياة محمد (ترجمة الدكتور الخربوطلي) ص ١١٣ ، اليعقوبي حـ ٢ ص ٣٨ .

مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه في عز ومنعة في قومه وبلده »[1]

ولنا أن نتساءل : لماذا قام العباس بهذا الدور مع أهل يثرب ، رغم عدم اعتناقه الإسلام ، ولماذا لم يقم بنفس الدور مع ثقيف ، رغم ما كان له من نفوذ وممتلكات في الطائف ؟

ونجيب على تساؤلنا ، فنقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد حرص – كما رأينا – على الخروج وحده إلى الطائف ، ولم يعلم أحداً برحلته ، بل انه حينما أخفق في اقناع زعماء ثقيف بالسماح له بالهجرة إلى الطائف ، طلب منهم تكتم حواره معهم . كما أن العباس كان من سادة قريش وأثريائها ، وهو ابن عبد المطلب زعيم مكة العظيم ، ولذا كان العباس موضع بغض وحسد ثقيف ، مثله مثل سائر رجالات قريش . كما كان العباس – بحكم خبرته بأحوال الطائف – يدرك أن ثقيفاً ستتبع مصالحها الخاصة فترفض هجرة ابن أخيه العظيم .

٢ ـ موقعة حنين وحصار الطائف

كانت هجرة الرسول والمسلمين إلى يثرب بعد ١٣ سنة من ظهور الإسلام فتحول اسمها إلى (المدينة المنورة) إذ استنارت بأنوار الإسلام والرسول . وبدأ الإسلام يدخل في دور تاريخي جديد . ولم تكن الهجرة هرباً أو فراراً ، بل هي انطلاق بالإسلام إلى آفاق أرحب وأوسع ، مما يحقق للإسلام الانتشار والنماء ، وقد أثبتت الأحداث التالية حقيقة النتائج المترتبة على الهجرة . فانه بعد ثمانية أعوام فحسب من الهجرة ، دخل الرسول عليه الصلاة والسلام مكة على رأس عشرة آلاف مؤمن . وفي السنة التاسعة بعد الهجرة ، استسلمت الطائف بدون قيد أو شرط ، واعتنقت ثقيف الإسلام ، وسقطت بذلك آخر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية .

واعتاد المؤرخون أن يؤرخوا لقيام الدولة العربية الإسلامية بيوم الهجرة . وهكذا شاء الله عز وجل أن تكون المدينة وليست الطائف ، النواة الأولى لهذه الدولة الوليدة

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٩٠ .

الناهضة ، لتقوم المدينة بدورها في التاريخ العالمي ، فتصبح عاصمة الدولة ، ومدينة الرسول ، ولتضم المسجد النبوي الشريف ، والجثمان الطاهر ، ولتصبح ثاني المدن المقدسة عند المسلمين .

وتوالت الأحداث في المدينة المنورة ، فكان التنظيم الجديد لمجتمعها بمحوريه ، أي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار [١] ، ثم كانت الوثيقة التي تنظم العلاقات بين المسلمين ، مهاجرين وأنصاراً ، وبين يهود المدينة [٢] وهذه الوثيقة كانت حدثاً جديداً في بلاد الحجاز ، فقد قررت حرية الدين ، وحرية الرأي وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، مما لا تعترف به ، لا قريش في المدينة ، ولا ثقيف في الطائف .

وصف ابن هشام [٣] استقرار الأوضاع في المدينة بعد وضع أسس الحياة العامة فيها ، فقال : « فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع اليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوأوا الدار والإيمان » .

ولقي الرسول عليه الصلاة والسلام كثيراً من المشاكل الداخلية ، وانتصر عليها ، وفي مقدمتها عداء المنافقين واليهود [٤] إلى جانب تهديد قريش للمدينة من الخارج ، والقيام بسلسلة متصلة من الغزوات .. وكان أول حرب بين المسلمين ومشركي قريش ، هي حرب بدر ، وقد شهدنا اشتراك أحد زعماء ثقيف فيها ، وهو النضر بين الحارث بن كلدة الثقفي ، الذي قال عنه الألوسي [٥] . « وكان النضر يوافي أبا سفيان في عداوة

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ١٤٧ ، طبقات ابن سعد حـ ٢ ص ٣ ، المقريزي : امتاع الأسماع ص ٤٩ .
(٢) أنظر نص هذه الوثيقة في سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ١٤٧—١٥٠ .
(٣) المنافقون : هم أهل المدينة الذين تظاهروا بالإسلام نفاقاً ليكيدوا له ، ومعظمهم من جماعة عبد الله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج الذي كان يستعد لتتويجه رئيساً للحكومة المشتركة ثم فوجئ بهجرة الرسول ، فتظاهر باعتناق الإسلام ، وأصبح هو وجماعته يمثلون حزب المعارضة الجوفاء .
(٤) كان اليهود يبشرون بقرب ظهور نبي ، وكانوا يتوعدون به الوثنيين ، ولكنهم كانوا يظنون أن النبي يظهر من بين بني إسرائيل . وأعلن اليهود عداءهم للنبي لأنه عربي ، والنبوة في رأيهم مقصورة عليهم . كما أنه بعث في الحجاز بينما الشام في رأيهم موطن الأنبياء . كما أدرك اليهود أن الإسلام دين توحيد جديد ينافس عقيدتهم اليهودية ، وقد كانوا في تنافس قديم مع المسيحية . ولذا تكرر نقض اليهود للوثيقة ، وتكرر غدرهم .
(٥) بلوغ الأرب حـ ٣ ص ٣٣٥ .

النبي صلى الله عليه وسلم لكونه كان ثقفياً » وأمر الرسول علي بن أبي طالب بقتله [١] .

وتوالت الغزوات ، فكانت أشهرها غزوتي أحد والخندق . حتى كان العام السادس بعد الهجرة . وفي شهر ذي القعدة منه ، وهو من الأشهر الحرم التي يتوقف فيها القتال والخصام ، رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخرج على رأس جماعة من المسلمين إلى مكة ، معتمراً ، لا غازياً ، فقد أعلن أنه « يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالاً » [٢] وأراد الرسول الكريم أن يعلن للعرب جميعاً أن الإسلام يقدس الكعبة كما يقدسونها ، مما يؤدي إلى تقريب القلوب والمشاعر ، ويخفف من حدة الجفاء والخصام .

وعلم أهل مكة بخروج الرسول والمسلمين ، فدب في قلوب قريش وأحزابها الخوف والذعر ، ورأوا جميعاً منع المسلمين من أداء العمرة ودخول مكة ، فإن ذلك يؤدي إلى امتزاج المسلمين بأهالي مكة مما يؤدي إلى انتشار تعاليم الإسلام وأفكاره السامية بين أهالي مكة . ورأت قريش أن ترسل خالد بن الوليد ومعه مائتي فارس لصد المسلمين عن دخول مكة . وأبدى الرسول شجاعة فائقة وإصراراً عظيماً ، حيث قال :

« يا ويح قريش : لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » [٣] .

واتخذ الرسول والمسلمين طريقاً آخر إلى مكة ، غير الطريق المألوف ، رغم وعورته وامتداده بين الجبال ، حتى بلغوا سهلاً قريباً من مكة ، هو سهل (الحديبية) [٤] فأقاموا فيه خيامهم ، وقد ارتدوا ملابس الإحرام ، وصحبوا (الهدى) [٥] .

لم يكن من اليسير على قريش أن تعلن الحرب على الرسول والمسلمين ، وهم في ذي القعدة ، الشهر الحرام ، ورأت قريش ايفاد بعض رسلها لاقناع الرسول بالعودة من

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٢ .

(٣) سيرة ، ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٣ . السالفة : صفحة العنق ، وهما سالفتان من جانبيه ، وكنّى بانفرادها عن الموت .

(٤) الحديبية بئر على مرحلة من مكة .

(٥) المقريزي : امتاع الأسماع حـ ٢ ص ٢٨٠ وما بعدها . الهدى : الحيوانات التي تهدى إلى الكعبة .

حيث أتى . فأرسلت قريش بديل بن ورقاء الخزاعي في جماعة من بني خزاعة . وأعلن الرسول لهم «انه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمته» وعادت هذه الجماعة الخزاعية إلى قريش لتقول لها : يا معشر قريش ، انكم تعجلون على محمد ، ان محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت .

ولم يعجب هذا القول قريشاً ، وأصرت على منع الرسول من دخول مكة ، وقالت : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب !! [1]

وإذ أخفقت سفارة بني خزاعة ، رأت قريش أن تبعث بسفير آخر ، هو الحليس ابن علقمة ، وهو سيد أحابيش مكة [2] وعاد الحليس يؤكد لقريش أنه رأى هدى المسلمين مما يؤكد قدومهم للاعتمار ، ولكن قريشاً ثارت عليه وألحقت به الإهانة ، مما أغضبه فقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده ، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد !! [3]

وهنا يبرز دور زعيم من زعماء ثقيف ، هو عروة بن مسعود الثقفي . وقد رأينا قدوم كل من بديل بن ورقاء الخزاعي ، والحليس بن علقمة ، بتكليف من قريش . أما عروة بن مسعود الثقفي ، فهو يتطوع ليقوم بالسفارة بين قريش والرسول عليه الصلاة والسلام .

ويبدو أن عروة قد شعر بالحرج ، ليكون سفيراً لقريش ، فليس من المنطقي أن يعبر ثقفي عن وجهات نظر قريش ، والقبيلتان كما نعلم في عداء وتنافس . ولذا رأى عروة أن يجتهد في اقناع قريش بايفاده إلى الرسول لإقناعه بالرحيل . أما

---

(١) ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٧ ، الطبري حـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) كان الأحابيش يكونون جانباً من مجتمع مكة . ولفظ الأحابيش يدل على القوة العسكرية التي كانت قريش تستأجرها قبل الإسلام للدفاع عن مكة أو قوافلها ، وتألفت القوة من حلف من عرب كنانة وخزيمة النازلين أغوار تهامة ، ومن خزاعة التي تنزل ظاهر مكة . ويذكر المؤرخ (فلهوزن) أن الأحابيش أحلاف قريش السياسيين . بينما يرى (لامانس) أن الأحابيش كانوا زنوجاً من الحبشة . ويؤكد المرحوم الأستاذ العبادي أنهم عرب ، وأن عبيد قريش المستخدمين في الحروب ليسوا أحباشاً (العبادي : صور من التاريخ الإسلامي ص ١٤) .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٦ .

السفيران الأولان . فقد كان من حقهما التفاوض باسم قريش . فبنو خزاعة هم حلفاء قريش والأحابيش هم في ولاء قريش ، ويمثلون قوتها العسكرية .

ولذا وقف عروة بين القرشيين ليتساءل : أي قوم ، ألستم بالوالد ؟ فيجيبه القرشيون : بلى . فيعاود السؤال : أو لست بالولد . فيجيبوه ثانية : بلى . فيقول عروة : فهل تتهموني ؟ فيقول القرشيون : لا .

ويحاول عروة إثبات جدارته وكفاءته ، فيقول : ألستم تعلمون أني استنفرت أهلِ عكاظ فلما بلحوا عليَّ جئتكم بأهلي وولدي[١] ومن أطاعني ؟ ، فقالوا : بلى . ثم طلب عروة من قريش أن تبعثه إلى الرسول ، فوافق القرشيون[٢] .

وحاول عروة اقناع الرسول بالعودة ، دون جدوى ، فلجأ إلى التهديد ، فقال : يا محمد ، أجمعت أوشاب[٣] الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك[٤] لتفضها[٥] بهم ، انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً[٦] .

وغضب أبو بكر لهذا التهديد ، وعير مسعوداً بعبادته اللات ، ووصفها بأنها « طاغية ثقيف » ، ثم قال أبو بكر : أنحن نفر وندعه ؟ وكان عروة إذا حادث الرسول « أخذ بلحيته » . وكان المغيرة بن شعبة ، وهو ثقفي أيضاً ، قائم على رأس النبي ومعه السيف ، فكان يضرب يد عروة كلما مدها نحو لحية الرسول ، ويقول له : أكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل اليك . وسأل عروة الرسول عمن يكون هذا الرجل ، أي المغيرة ، فأجاب الرسول : هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة . وأقنع الرسول عروة بأنه « لم يأت يريد حرباً »[٧] .

ويبدو ان لقاء عروة بالرسول والمسلمين كان طويلاً ، كما يبدو أيضاً أن عروة

---

(١) كان عروة بن مسعود الثقفي متزوجاً من ربيعة بنت عبد شمس .

(٢) الطبري حـ ٢ ص ٢٧٤–٢٧٥ .

(٣) الأوشاب : الأخلاط .

(٤) بيضة الرجل : أهله وقبيلته .

(٥) تفضها : تكسرها .

(٦) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٧ .

(٧) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٧–٣٢٨ ، الطبري حـ ٢ ص ٢٧٤–٢٧٥ .

كان ذكياً ، فقد أراد من خلال هذا اللقاء أن يستطلع أحوال الرسول بين أصحابه وعلاقته بهم ، ورأى وضوءهم وصلاتهم ، وتقدير المسلمين للرسول عليه الصلاة والسلام . فقد رجع عروة إلى قريش ليقول لها : يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم [1] .

ولا شك أن عبارات عروة كانت مفاجأة قاسية لقريش ، فهو الذي تطوع بالقيام بالسفارة وحاول جاهداً اقناعها بالموافقة ، ووعد بأنه سينجح في المهمة التي أخفق فيها زعيمان آخران . وقد كان عروة صادقاً تماماً في عباراته الأخيرة التي نقلها إلى قريش ، فقد أمعن الملاحظة والاختبار ، وأصبح صادقاً ودقيقاً في الصورة التي نقلها إلى قريش ، وهو زعيم له خبراته السياسية ، فقد تردد على بلاط أكبر ملوك عصره ، كسرى فارس ، وقيصر الروم ، ونجاشي الحبشة .

وانتهى الأمر بعقد صلح الحديبية بين الرسول وقريش ، وأهم نصوصه هي :

(١) يتوقف القتال بين الفريقين لمدة عشر سنوات .

(٢) يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون اذن وليه ، ولا تلتزم قريش برد من يأتي إليها من عند الرسول .

(٣) من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول في عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك .

(٤) يعود الرسول في ذلك العام (٦ هـ) دون أداء العمرة ، على أن يقدم والمسلمون في العام التالي ، بعد رحيل قريش عن مكة ، وليس مع المسلمين إلا سلاح المسافر ، أي السيف في غمده [2] .

كسب الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الصلح كسباً عظيماً ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التي كانت تقودها لقتاله ، وكانت تقف منها موقف الزعامة . كما أخذت قريش تغير نظرتها إلى الرسول ، فأصبحت ترى أنه قرشي على الرغم من

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٨ .

(٢) أنظر نص الصلح كاملاً في سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٢-٣٢٣ ، تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٢٨١ .

العداوة بينها وبينه ، يجمعها وأياها نسب واحد ، وصارت تعجب بعلو شأنه وبخاصة السياسي [1]

ونحن نعتبر صلح الحديبية مقدمة لسقوط الطائف ، وإسلام ثقيف . وأول مسمار يدق في نعش الوثنية والجاهلية في الطائف . لقد كان هذا الصلح فتحاً عظيماً في ميدان السياسة ، ومن الفتح في السياسة ما يكون أعظم أثراً من الفتح في الحرب . وكان هذا الصلح هو اعتراف رسمي من قريش بما بلغه الرسول والمسلمون من قوة سياسية واجتماعية وعسكرية [2] . ودخل الرسول والمسلمون مدينة مكة في العام السابع بعد الهجرة ، واصبحوا بذلك في معقل الوثنية الأول مكة ، قريبين من المعقل الثاني من الطائف . ولا شك أن ثقيفاً قد اهتزت لهذا الانتصار السياسي العظيم . كما أدى الصلح ايضا إلى بداية انتشار واسع للإسلام ، فقد انتهز الرسول الكريم فرصة هذه الهدنة ، لدعوة القبائل إلى الإسلام ، وكان كثير منها قد غضب على قريش لانفرادها بالصلح . كما خرج الرسول بالإسلام إلى خارج حدود الجزيرة العربية فكانت رسائله إلى ملوك وأمراء الدول ، تحقيقاً لعالمية الدين الإسلامي كما أجلى اليهود عن المدينة . أما قريش ، وثقيف ، فقد ظلتا على عزلتهما وجمودهما ، وانصرفتا إلى ما كانتا عليه من نشاط اقتصادي ، ومن حياة ترف ورفاهية ، دون الاستعداد لما يخبئه لهما مستقبل قريب .

ومما يجدر الإشارة إليه ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعث في العام السادس بعد الهجرة ، وبعد صلح الحديبية ، رسائله إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة ، ومنهم بعض امراء الجزيرة العربية فقد كتب عليه الصلاة والسلام إلى أمير البحرين [3] ، وصاحب دمشق [4] ، وأمراء اليمن [5] ، وأميري اليمامة [6] ، فضلاً عن رسائله إلى

---

(1) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١٠٣ .

(2) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(3) وهو المنذر بن ساوي ، وحمل الرسالة العلاء بن الحضرمي (النبهاني : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٦٩–١٧٠) .

(4) وهو الحارث بن أبي شمر الغساني ، وحمل الرسالة شجاع بن وهب (الطبري حـ ٢ ص ٢٩٤) .

(5) كتب الرسول إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم بن كلال ، ونعمان قيل ذي يزن ومعافر وهمدان ، وزرعة ذي رعين (طبقات ابن سعد حـ ٢ ص ٢٩ .

(6) بعث الرسول سليط بن عمر العامري إلى هوذة بن علي الحنفي ، وإلى ثمامة بن أثال ، أميري اليمامة (سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٢٧٩) .

كسرى فارس وقيصر الروم ونجاشي الحبشة والمقوقس حاكم مصر ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ، شاء بحكمته الكبيرة ألا يكتب إلى رؤساء ثقيف ، نتيجة تجاربه المريرة الماضية معهم ، حين أصروا على ضلالهم ، ورفضوا هجرته إلى الطائف .

ثم كان فتح مكة في العام الثامن بعد الهجرة ، بعد أن تخلص من كيد يهود المدينة ، وأجلاهم عنها ، ثم زحف نحو خيبر حيث تجمعوا ، فهزمهم ، فقبلوا دفع الجزية ، وأصبحوا رعايا للدولة الإسلامية[1] .

نقضت قريش صلح الحديبية ، إذ اعتدت على حلفاء للمسلمين[2] وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقود الجيش الإسلامي ، في اليوم العاشر من رمضان سنة ٨ هـ ، وضم الجيش عشرة آلاف مؤمن صادق ، وانضم إلى الجيش كثير من القبائل وفتح المسلمون مكة بدون قتال ، وأعلن الرسول سياسة العفو العام . وفي ذلك يقول المستشرق (واشنجتون ارفنج)[3] : كانت تصرفات الرسول في مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر ، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه رغم أنه أصبح في مركز قوي ، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو .

ولا شك أن ثقيفاً قد دب الذعر في قلوبها حين علمت بفتح مكة ، وسقوط أكبر معاقل الوثنية والجاهلية . فقد حطم المسلمون الأصنام التي تزخر بها الكعبة[4] ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بتحطيم (العزى) في وادي نخلة وقام سعيد ابن زيد الأشهلي بهدم (مناة)[5] . وإذا كانت اللات ، والعزى ، ومناة ، يكونون وحدة وثنية ثلاثية ، فقد زال وثني العزى ومناة من الوجود ، وستأتي وشيكاً ساعة اللات لتدول دولة الأصنام .

أصبحت مكة ، أكبر مدن الحجاز ، في أيدي الرسول والمسلمين ، واتسع بذلك نطاق الدولة العربية الإسلامية التي قامت في المدينة بعد الهجرة . ولكن طريق الكفاح

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٤٣ وما بعدها .
(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٢٣–٣٢٤ .
(٣) أرفنج : حياة محمد (ترجمة الدكتور الخربوطلي) ص ٢٢٩ .
(٤) كان حول الكعبة ٣٦٠ صنماً ، سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٥٥ .
(٥) الكلبي : كتاب الأصنام ص ٢٧ وما بعدها .

والجهاد لا يزال طويلاً ، فهناك بعض القبائل العربية التي لا تزال تعلن عداءها للإسلام . كما لا تزال ثالثة مدن الحجاز الكبرى ، أي الطائف ، محتفظة بوثنيتها وجاهليتها .

قضى المسلمون في مكة خمسة عشر يوماً في سرور وحبور ، فرحين بنصر الله عز وجل ، وبعودتهم إلى ديارهم سالمين منتصرين ولكن كان عليهم بعد انقضاء هذه الأيام ، مواصلة الجهاد ثانية ، فقد بدأت بعض القبائل العربية الوثنية ترفع رأسها وخشيت أن يكون مصيرها مثل مصير قريش ، ورأت أن تحافظ على كيانها القبلي ، وعقائدها الوثنية ، وأفكارها الجاهلية ، وفي مقدمة هذه القبائل هوازن وثقيف . ولذا كان على الرسول والمسلمين أن يعاودوا الجهاد ثانية لتحقيق الانتصار الكامل على الوثنية والجاهلية الرجعية[١] .

أدركت هوازن وثقيف خطورة الموقف ، فالمسلمون الآن في مكة قريبين من الطائف حيث تسود ثقيف وقريبين من ديار هوازن في جنوب شرقي مكة . ولذا رأت القبيلتان أن تخوضا حرباً مصيرية .

كانت كل من ثقيف وهوازن لا تستطيع مواجهة القوى الإسلامية وحدها ، ولذا رأت القبيلتان الكبيرتان توحيد جهودهما وضم حلفائهما إليهما ، وعقد مؤتمر عام لوضع خطط مواجهة الدولة الإسلامية الناهضة .

ورأس زعيم هوازن مالك بن عوف النضري هذا المؤتمر ، الذي ضم قبائل ثقيف ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، وبعض بني هلال . وتخلف عن الاجتماع من هوازن بنو كعب وبنو كلاب ومثل قبيلة جشم أحد شيوخها ، الطاعنين في السن ، ذوي التجربة والخبرة في السياسة والحرب والشعر وهو دريد بن الصمة ، ومثل ثقيفاً زعيمان ، فكان قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب يمثل الأحلاف ، بينما مثل سبيع بن الحارث ابن مالك بني مالك[٢] .

اجتمعت هذه الأحزاب في سهل أوطاس ، وحشدت فيه رجالها ونساءها وأطفالها ودوابها واموالها . وهنا تبدو خبرة دريد بن الصمة العسكرية ، فلم تعجبه هذه الصورة الغريبة ، وتوجه باللوم لرئيس هؤلاء الحلفاء ، فقال له : يا مالك ، انك قد أصبحت

---

(١) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٦٠ .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٨٠ ، تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٤٤-٣٤٥ .

رئيس قومك ، وان هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام[١] ، ما لي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير . ويعار الشاة ؟ ودافع مالك عن سياسته فقال : اردت ان اجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله . ليقاتل عنهم . وتهكم دريد على مالك فقال له : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها ان كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ! ! وانتقد دريد ايضا تخلف بني كعب وبني كلاب عن الانضمام إلى الجيش .

وازدادت حدة الخلاف بين الرجلين ، واتهم دريداً بكبر السن وضعف العقل وشعر بالغيرة من دريد ، واراد الخلاص منه ، وخير هوازن بين طاعته أو طاعة دريد ، فآثروه على دريد ، فقد كان مالك في الثلاثين من عمره ، يمتلئ حماسة وفتوة ، بينما كان دريد طاعناً في السن وأضعفته السنون[٢] .

واحتشد الحلفاء في مضيق وادي حنين ، مستفيدين من مناعته الطبيعية ، وبعث مالك بن عوف عيوناً من رجاله ، «فأتوه وقد تفرقت أوصالهم»[٣] ، فغضب مالك وصاح فيهم : ويلكم ، ما شأنكم ؟! فأجابوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن اصابنا ما ترى . وفي نفس الوقت ، بعث الرسول عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ، ليستطلع أحوال هؤلاء الحلفاء ، «فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم ، فأقام معهم ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك وهوازن ما هم عليه»[٤] .

وأدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن الحرب مصيرية ، ولذا رأى أن يأخذ للأمر عدته ، فطلب من صفوان بن أمية ، وكان مشركاً ، أن يعير المسلمين «أدراعاً له وسلاحاً» ، ثم يعيدها المسلمون إليه بعد المعركة ، فقدم صفوان مائة درع بما يكفيها من السلاح .[٥]

---

(١) هذه العبارة تؤكد ما ذكرناه من أن الحرب تكون مصيرية .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٨١-٨٢ ، تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٤٦ ، المقريزي : امتاع الأسماع حـ ١ ص ٤٠١-٤٠٢ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٨٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الطبري حـ ٢ ص ٣٤٦ .

وخرج الرسول ومعه اثني عشر ألف مسلم ، منهم عشرة آلاف كانوا قد خرجوا معه من المدينة لفتح مكة ، وألفين من أهالي مكة . وولى الرسول أميراً على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس [1] . فكان هذا في الحقيقة مظهراً من التسامح ، فقد أبدى الأمويون قبل فتح مكة عداء شديداً للإسلام وللرسول [2] .

وتقدم جيش الإيمان للقاء الحلفاء الوثنيين في معركة حاسمة مصيرية .. وصور الشاعر عباس بن مرداس السلمي في أبيات من الشعر القوى الإسلامية ، وتوجه فيها برسالة نصح إلى قبيلة هوازن ، فأنشد :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها	مني رسالة نصح فيه تبيان
أني أظن رسول الله صابحكم	جيشاً له في فضاء الله أركان
فيهم أخوكم سليم غير تارككم	والمسلمون عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد	والأجربان بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض رهبته	وفي مقدمته أوس وعثمان [3]

وحينما اقترب الجيش الإسلامي من وادي حنين ، انحدر إلى واد من أودية تهامة ، يتصف بالاتساع والانحدار . وكان الوقت مساء ، فآثر المسلمون الانتظار للصباح لخوض المعركة ، وقبيل الفجر ، فاجأ الحلفاء المشركون معسكر المسلمين بهجوم عنيف ، فقد كان المشركون يترصدون حركات الجيش الإسلامي ، فكمنوا للمسلمين في شعاب الوادي ومضايقه ، ثم هاجموهم في الظلام ، مما كان مفاجأة لهم ، ووقع الاضطراب في معسكر المسلمين ، ولاذ بعضهم بالفرار . وثبت الرسول مع قوم من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وكان ما حدث فعلاً هو اضطراب وقلق في معسكر المسلمين ، نتيجة عنصر المفاجأة التي لجأت إليها هوازن وثقيف وحلفاؤها ، كما أن الهجوم كان في الظلام ، ولكن هذا الاضطراب أطلق ألسنة الشامتين وضعفاء الإيمان [4] وفي مقدمتهم أبو سفيان ابن حرب الذي لا يزال قلبه يمتلئ بالحقد والحسد ، فقد قال : «لا تنتهي هزيمتهم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٣ .

(٢) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٦٢ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٤ .

(٤) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٦٣ .

دون البحر » . ومنهم أيضاً شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي قال : « اليوم أدرك ثأري من محمد ، اليوم أقتل محمداً » . وكان أبوه قد لقي حتفه في موقعة أحد . وروى ابن هشام[1] أن شيبة قال بعد فشله في اغتيال الرسول : « فأدرت برسول الله لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي ، فلم أطق ذلك ، وعلمت أنه ممنوع مني » .

وصاح العباس بن عبد المطلب ، بأمر من الرسول ، يأمر المسلمين بالصمود والاتحاد ولم الشعث ، وأجابه المسلمون « لبيك ، لبيك » ، وترددت أصواتهم في جوانب الوادي . حتى إذا عادت للقوات الإسلامية وحدتها ونظامها ، قال عليه الصلاة والسلام : « الآن حمي الوطيس »[2]

وبزغت الشمس ، وأرسلت أشعتها ، تبدد كل مخاوف ثارت منذ ساعات في نفوس المسلمين ، وتحولت الهزيمة المؤقتة ، في فترة قصيرة ، إلى نصر مؤزر . وظنت هوازن وثقيف أن النصر قد بات قريباً منهم ، ولكنهم سرعان ما شعروا باليأس والقنوط ، فقد نجح المسلمون في جمع شملهم ، واندفعوا كالسيل الجارف يطيحون بصفوف المشركين . ولم يجد الحلفاء مفراً من الانسحاب السريع ، والفرار من المعركة ، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم ومتاعهم وحيواناتهم ، لتصبح غنيمة للجيش الإسلامي ، ووقع ستة آلاف من المشركين أسرى في أيدي المسلمين[3]

وروى ابن هشام[4] والطبري[5] روايات تصور بطولة المسلمين في هذه المعركة التاريخية ، بل أبدت المرأة المسلمة استبسالاً يضرب به المثل . فقد تحدث ابن هشام عن أم سليم ابنة ملحان ، التي كانت تقاتل مع زوجها أبي طلحة ، وكانت حاملاً بابنها عبد الله بن أبي طلحة . وقد وجد زوجها معها خنجراً فسألها عنه ، فأجابت : خنجر أخذته ، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته[6] وروى ابن هشام[7] انه بعد هزيمة المشركين ، انشدت امرأة من المسلمين :

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٨٧ .
(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٤٨ .
(٣) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٦٣ .
(٤) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٨٨ وما بعدها .
(٥) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها .
(٦) يقال بعج بطنه أي شقه .
(٧) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٩٢ .

قد غلبت خيل الله خيل اللات والله أحق بالثبات

لحق بثقيف هزيمة كبرى ، فقد قتل من بني مالك ومن ثقيف سبعون رجلاً تحت رايتهم ، وكان يحملها عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب فلقي حتفه ، فقال الرسول : أبعده الله ، فإنه كان يبغض قريشاً[1] . وهذا الحديث الشريف يصور ، كيف كانت ثقيف تقاتل ، بغضاً لقريش عامة ، وللمسلمين خاصة وهرب الأحلاف من ثقيف من المعركة ، ولذا لم يقتل منهم غير رجلين ، وكان من الهاربين صاحب الراية قارب بن الأسود . وأنشد في ذلك عباس بن مرداس السلمي أبياتاً كثيرة نقتبس منها هذه الأبيات :

وبئس الأمر أمر بني قسي[2] بوج[3] إذ تقسمت الأمور
أضاعت أمرهم ولكل قوم أمير والدوائر تدور
فجئنا أسد غابات اليهم جنود الله ضاحية[4] تسير
نؤم[5] الجمع جمع بني قسي على حنق نكاد له نطير[6]

صور الطبري[7] تفرق المشركين بعد هزيمتهم ، فقال : «ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه إلى نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف ، فتتبعت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك في نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا» ولقي دريد بن الصمة حتفه ، وهزم أصحابه[8] .

وجمع مالك بن عوف فلول جنده ، ونظم انسحابه إلى مدينة الطائف . ونهى

(١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٦٢ .
(٢) قسي : وهو الاسم الأصلي لثقيف .
(٣) وج : الاسم القديم لمدينة الطائف .
(٤) ضاحية : بارزة لا تختفي .
(٥) نؤم : نقصد .
(٦) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٩٣ .
(٧) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٥٠ .
(٨) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٩٦ ، الطبري حـ ٢ ص ٣٥١ .

الرسول عن قتل الضعفاء ، وجمع المسلمون كثيراً من الغنائم والسبايا [١] ، فجعلها الرسول في مكان يسمى (الجعرانة)[٢] بإشراف مسعود بن عمرو الغفاري .

ونزلت آيات قرآنية في يوم حنين منها : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)[٣] .

قدمت فلول ثقيف إلى الطائف ، هاربة من مصيرها ، لتعتصم في مدينتها الحصينة ، وتغلق عليها أبواب سورها المنيع ، وبدأت تستعد بتوفير الأسلحة ، ووسائل مقاومة المحاصرين المسلمين . وكانت ثقيف قد أرسلت ابنين من أبنائها ، في بعثة تعليمية ، إلى جرش في اليمن ، لتعلم صناعة الدبابات[٤] والمجانيق[٥] والضبور[٦] . ولذا لم يشهدا موقعة حنين[٧] .

واتجه الرسول والجيش الإسلامي إلى الطائف ، فاجتازوا وادي نخلة ، ثم قرن ، ثم المليح ، حتى وصلوا إلى وادي ليه قرب الطائف ، فابتنى الرسول بها مسجداً وصلى فيه ثم عسكر المسلمون قرب الطائف ، وأخفق المسلمون في اختراق سور الطائف ، وانهالت عليهم سهام ثقيف ، فأصابت من بعضهم مقتلاً[٨] .

حاصر الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون مدينة الطائف وهي مدينة منيعة وذات موارد اقتصادية وفيرة ، فتتحمل الحصار الطويل ، كما كانت ثقيف على

---

(١) روى ابن هشام حـ ٤ ص ١٠٠ أنه كان من بين الأسرى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزي ، وهي أخت الرسول من الرضاعة ، فبسط الرسول الكريم لها رداءه، وأجلسها عليه وخيرها بين البقاء معه أو العودة إلى قومها ، فاختارت أن يردها الرسول إلى قومها .

(٢) الجعرانة : تقع بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب (ياقوت : معجم البلدان حـ ٣ ص ١٠٩) .

(٣) سورة التوبة آية ٢٥-٢٦ .

(٤) الدبابة : يدخل المحاربون في جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فيثقبونها .

(٥) المنجنيق : أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء .

(٦) الضبور : مثل رؤوس الأسفاط ، يتقى بها في الحرب عند الانصراف وتصنع من الخشب والجلود .

(٧) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢١ .

(٨) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢٥ ، النبهاني ، الأنوار المحمدية ص ١٢١ .

دراية بمواجهة أي حصار . ولم تغير سهام ثقيف عزم الرسول على استمرار حصار الطائف ، آخر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية[١] .

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يواجه أسوار الطائف الحصينة بآلات الحصار ولما كان المسلمون لا يملكون حينئذ مثل هذه الآلات ، فقد رأى الرسول أن يستعين بقبيلة بني دوس ، التي تقيم قرب مكة ، وكانت على دراية بأساليب الحصار واختراق الأسوار ، وكان في الجيش الإسلامي أحد أبناء هذه القبيلة ، وهو الطفيل ، فبعثه إلى قومه ، فقدمت جماعة منهم ومعهم أدوات الحصار . وبدأ المسلمون يقذفون الأسوار بالمنجنيق ، وروى ابن هشام[٢] أن رسول الله «أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق رمى أهل الطائف» .

وبدأ المسلمون يحاولون إحداث ثغرة في سور الطائف ، فدخل بعض المسلمين تحت دبابة مصنوعة من الجلد وزحفوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فألقت ثقيف عليها قطعاً من الحديد المحماة فأحرقت الدبابة ، فأصيب من تحتها من المسلمين[٣] .

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام بمناد ينادي بأن من يقدم إليه من عبيد الطائف يصبح حراً . فقدم عليه ثلاثة وعشرون رجلاً ، فأعتقهم ووكل أمر النفقة عليهم إلى بعض المسلمين ، كما أمر بتعليمهم القرآن الكريم والهدى النبوي الشريف ، وغضب أهل الطائف لتحرير عبيدهم[٤] . ويذكر البلاذري[٥] من هؤلاء الرقيق أبا بكر ابن مروح مولى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأزرق الذي نسبت الخوارج الأزارقة إليه ، وكان عبداً رومياً حداداً ، وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي .

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلجأ إلى وسيلة أخرى في قتال أهل الطائف ، الذين أصروا على الاحتفاظ بوثنيتهم وجاهليتهم ، في وقت انتشر الإسلام في معظم أرجاء الجزيرة العربية . فأمر الرسول المسلمين بقطع كروم ثقيف وبحرقها ، وهي نفس

---

(١) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٦٥ .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢٦ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٤) ابن هشام حـ ٤ ص ٣٠ ، طبقات ابن سعد حـ ٣ ص ٢١١ .

(٥) فتوح البلدان ص ٦٧ .

الوسيلة التي اتبعها المسلمون مع يهود بني النضير لإرغامهم على الجلاء عن المدينة .

وكانت كروم الطائف لها شهرتها في الجزيرة العربية ، وهي عزيزة على أهلها[1] .

وتألمت ثقيف وهي ترى كرومها تأكلها النيران وتقطعها الأيدي ، فطلبت ثقيف من الرسول أن يأخذ الكروم لنفسه ، أو ليدعها لله والرحم ، إذ بينه وبينهم قرابة وتجلت رحمة الرسول لطلب ثقيف فأمر المسلمين بالتوقف عن تقطيع الكروم[2] .

واستمر حصار المسلمين للطائف نحو خمسة عشر يوماً ، حتى حل شهر ذي القعدة ، من العام الثامن بعد الهجرة ، وهو من الأشهر الحرم ، فرأى الرسول انهاء الحصار على أن يعاوده بعد نهاية الشهور الحرم . وبدأت عودة الجيش الإسلامي إلى مكة . وأحصى ابن هشام[3] عدد من استشهد من أصحاب الرسول فقال إنهم اثنا عشر رجلاً ، سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، ورجل من بني ليث .

وتوقف الرسول عليه الصلاة والسلام بوادي جعرانة ، حيث كان الرسول قد ترك الغنائم التي حازها المسلمون بعد انتصارهم على هوازن في حنين .

وقدم رجل على الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أصحابه ، فطلب من الرسول أن يدعو الله على ثقيف ، ولكن الرسول الكريم الرحيم توجه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهم أهد ثقيفاً وأت بهم[4] .

وفي الجعرانة ، كانت هناك الغنائم الكثيرة التي حازها المسلمون ، فهناك آلاف النساء والذراري ، وستة آلاف بعير «ومن الشاء ما لا يحصى»[5] .

ورأت قبيلة هوازن أن تتخلى نهائياً عن حليفتها القديمة ثقيف ، فلا تربط مصيرها بها . فبعثت هوازن وفداً يعلن إسلام هذه القبيلة ، وعبر هذا الوفد عما عانته هوازن في مناصرتها لثقيف ، فقالوا : يا رسول الله ، أنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا ، منّ الله عليك[6] .

---

(١) الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ١٦٥ .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢٦ .
(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢٩ .
(٤) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٣١ .
(٥) الطبري حـ ٢ ص ٣٥٦ .
(٦) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٣١ .

والتمس وفد هوازن من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يرد عليهم ذراريهم وأموالهم ، وحدثوا الرسول عن الصلات التي تربطه بهوازن ، فقد قضى أيام طفولته بين بني سعد من هوازن ، حيث أرضعته حليمة السعدية . فقالوا : يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك ، وحواضتك اللاتي كن يكفلنك .. وأنت خير المكفولين [1]

ثم أنشد :

أمنن علينا رسول الله في كرم ... فانك المرء نرجوه وندخر

أمنن على بيضة أعتاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غبر [2]

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا ، فهم أحب إلينا . وتنازل الرسول الكريم عن حقه وحق بني عبد المطلب في الغنائم ، واقتدى به المهاجرون والأنصار ، ورفض بعض القبائل البدوية ، مثل بنو تميم ، وبنو فزارة فقال الرسول : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي ، فله لكل انسان ست فرائض ، من أول سبي أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم [3] .

وسأل الرسول عليه الصلاة والسلام وفد هوازن عن مالك بن عوف ، فقالوا إنه بالطائف مع ثقيف فقال الرسول الكريم : أخبروا مالكاً أنه ان أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل . وتحايل مالك على الخروج ليلاً من الطائف وتكتم النبأ حتى لا تعلم به ثقيف ، والتقى بالرسول ، وأسلم ، ووفى الرسول له بوعده ، فأنشد مالك :

ما أن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد

واستعمله الرسول عليه الصلاة والسلام على من أسلم من قومه ، وعلى قبائل ثمالة وسلمة وفهم « فكان يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم » [4] ، وأنشد أبو محجن بن خبيب بن عمر بن عمير الثقفي :

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٣١ .

(٢) الطبري حـ ٢ ص ٣٥٦ .

(٣) ابن هشام حـ ٤ ص ١٣٢ ، الطبري حـ ٦ ص ٣٥٦ .

(٤) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٣٤ .

هابت الأعـــداء جانبنـــا ثم تغـزونـا بنو سلمـــة
وأتانـا مالــك بهــم ناقضــاً للعهــد والحــرمة
وأتــونا في منـازلنـا ولقــد كنـا أولي نقمـة

أما الأموال التي غنمها المسلمون من هوازن ، فقد قسمها الرسول على المؤلفة قلوبهم من كبار القرشيين وغيرهم من العرب الذين أسلموا حديثاً ، ولم يعط الأنصار شيئاً منها ، مما أغضبهم ، فقال بعضهم لبعض : « لقي والله رسول الله قومه » . وعلم الرسول بمقالتهم ، وأراد تبديد غضبهم ، فقال لهم : « وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا تألفت به قوماً أسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ، والذي نفسي بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » . وكانت كلمات الرسول الكريم برداً وسلاماً على نفوس الأنصار ، فقالوا : « رضينا برسول الله قسماً وحظاً » (١)

وغادر الرسول الكريم وادي جعرانة ، قاصداً مكة للاعتمار ، ثم استعد للرحيل إلى المدينة ، وولي عتاب بن أسيد على مكة ، وعهد إلى معاذ بن جبل بتفقيه الناس في الدين وتعليمهم القرآن الكريم « وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفهم ، ما بين ذي القعدة إذ انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شهر رمضان من سنة تسع » (٢) .

٣ ـ إسلام ثقيف والطائف

ظنت ثقيف وقد رأت جيش المسلمين يفك الحصار ، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه ، وانتصرت عليهم ، في وقت دانت مكة فيه بالطاعة للرسول ، فاعتزت ثقيف بهذا النصر ، ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثنيتها في الطائف في عزلة عن سائر العرب حولها ،

(١) المقريزي : امتاع الأسماع حـ ١ ص ٤٣١-٤٣٢ .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٤٤ .

الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ، ويعتبرون أنفسهم في حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها[1] .

وإن كان حصار المسلمين للطائف لم يؤد إلى دخول هذه المدينة الحصينة ، إلا أنه حقق كثيراً من النتائج الهامة ، فقد تخلت عن ثقيف حليفاتها من القبائل ، وأعلنت إسلامها ودخلت في ولاء الرسول عليه الصلاة والسلام . كما أصبحت مكة جزءاً من الدولة الإسلامية ، وقد شهدنا في الفصول السابقة دور مكة الرئيسي في اقتصاديات الطائف كما كانت تلك العزلة التي آثرتها ثقيف تؤثر في حياتها الاقتصادية ومواردها الاقتصادية وبات أهالي الطائف في حالة قلق نفسي مستمر ، يترقبون عودة المسلمين مرة أخرى لحصار مدينتهم . واختارت ثقيف أن تعيش في سجن كبير ، تحيط به أسوار عالية ويحيط بها الأعداء من كل جانب . كما كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تحرير الرقيق في الطائف ترهب ثقيفاً[2] ، إذ أنها تخل بموازين الحياة الاجتماعية التقليدية . فيروي ابن هشام : «لما أسلم أهل الطائف ، تكلم نفر منهم في أولئك العبيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، أولئك عتقاء الله»[3] .

وأدرك عروة بن مسعود ، أحد زعماء ثقيف ، هذه الأحوال السيئة التي باتت الطائف تعيش فيها ، وتعاني منها . ولذا خرج من الطائف مسرعاً ليلحق بالرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يصل إلى المدينة ، فأعلن اسلامه ، وعرض على الرسول أن يعود إلى الطائف ليحثهم على الإسلام ، فقال الرسول له : انهم قاتلوك . وبرر ابن هشام[4] هذا القول عن ثقيف ، فقال : «وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فيهم – أي ثقيف – نخوة الامتناع الذي كان منهم» فقال عروة : أنا أحب اليهم من أبصارهم .

وكان عروة بن مسعود حسن الظن بقومه من ثقيف ، فظن أنهم يستجيبون لدعوته لهم إلى الإسلام «لمنزلته فيهم» . حتى إذا بلغ الطائف ، ودعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بسهام كثيرة أصابت منه مقتلاً . وقبل أن يلفظ عروة أنفاسه الأخيرة

---

(١) تاريخ الإسلام حـ ١ ص ١٤٥ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٢٨ .

(٤) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٢ .

سأله أحدهم : ما ترى في دمك ؟ فأجاب عروة : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليَّ ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم ، فدفنوه معهم . وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بأمر عروة ، فقال : إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه[1] .

وتلاحقت الأحداث في المدينة المنورة ، عاصمة الدولة الإسلامية ، فكانت غزوة تبوك ، وانشغال الرسول بإعداد الجيش الإسلامي الذي يقاتل دولة الروم ، ثم واجه الرسول محاولات المنافقين التخاذلية . ومرت شهور بين حصار الطائف في ذي القعدة سنة ٨ هـ ، حتى حل رمضان سنة ٩ هـ . وأدركت ثقيف الموقف الحرج الذي تقفه في الجزيرة العربية ، وعلمت أنها لم تستفد شيئاً من صمودها لحصار المسلمين وفطنت إلى أن عروة بن مسعود كان على حق . وفي ذلك يقول ابن هشام : « ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم انهم ائتمروا بينهم ، ورأوا انهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوه وأسلموا » .

وأدرك زعماء ثقيف أن الطائف قد أصبحت جيشاً وثنياً صغيراً ، وسط جزيرة عربية شاسعة تعتنق الإسلام . وخرج أحد زعماء ثقيف ، وهو عمرو بن أمية . وهو من أدهى العرب ، ليلتقي بزعيم آخر هو (عبد ياليل بن عمرو) ، رغم ما كان بينهما من نفور وتباعد . وشرح عمرو له حقيقة أوضاع ثقيف والطائف ، فقال : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، انه كان من أمر هذا الرجل (يقصد الرسول) ما قد رأيت وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم ! !

وعقد زعماء ثقيف مؤتمراً عاماً ، فقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[2] ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع . وقرر هذا المؤتمر الثقفي ايفاد أحد زعمائها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ووقع الاختيار على (عبد ياليل) ، ولكنه رفض هذا التكليف ، حتى لا يكون مصيره كمصير سلفه عروة بن مسعود ، وكانا من عمر واحد . حتى إذا ألحوا عليه ، اشترط عليهم شروطاً ، فقال : لست فاعلاً حتى

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٣ ، طبقات ابن سعد حـ ٢ ص ٧٦ . الطبري حـ ٢ ص ٣٦٣ .
(٢) سرب : نفس .

ترسلوا معي رجالاً . وتم تأليف الوفد الراحل إلى المدينة ، برئاسة (عبد ياليل) وعضوية رجلين من الأحلاف ، وثلاثة أعضاء من بني مالك ، وهما بطني ثقيف الكبيرين ، وبذلك يصبح هذا الوفد السداسي ممثلاً لأهالي الطائف[1] . وفسر الطبري[2] اشتراط ضم هؤلاء الأعضاء الخمسة إليه ، فقال : «ولم يخرج منهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود ، ليشغل كل رجل منهم[3] إذا رجعوا إلى الطائف رهطه» .

واقترب الثقفيون الستة من المدينة ، وعند قناة خارجها ، التقوا بالمغيرة بن شعبة ، وهو ثقفي أيضاً ، وكان يرعى ركاب أصحاب الرسول ، وكان الصحابة يتناوبون هذا الرعي . حتى إذا علم المغيرة سبب قدوم الثقفيين ، ترك الركاب في عهدة الثقفيين ، وهرع إلى الرسول ليبشره بقدوم وفد ثقيف . وفي طريقه ، التقى بأبي بكر الصديق « فأخبره – أي المغيرة – عن ركب ثقيف ان قد قدموا يريدون البيعة والإسلام ، بأن يشرط لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شروطاً ، ويكتتبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم » . وطلب أبو بكر من المغيرة أن يترك له فرصة تبشير الرسول الكريم بقدوم الثقفيين ، فاستجاب المغيرة لرجائه[4] .

وعاد المغيرة إلى وفد الطائف ، وصحبهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلمهم كيف يحيون الرسول بتحية الإسلام . وضرب الرسول لهم قبة في ناحية مسجده ، وحضر خالد بن سعيد بن العاص اجتماع الرسول بوفد ثقيف ، وتولى كتابة الكتاب الذي التمسه الوفد من الرسول صلى الله عليه وسلم .

أعلن الثقفيون اعتناقهم ، هم وقومهم ، الإسلام ، بشروط ، هي اعفاؤهم من الصلاة ، وترك طاغيتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنوات ، وأصر الرسول على أن تعتنق ثقيف الإسلام بدون قيد أو شرط . فسألوه أن يترك اللات سنتين ، ثم سنة ،

---

(١) ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٣ .

(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٦٤ .

(٣) كان الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب يمثلان الأحلاف . وكان عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان وأوس بن عوف ، ونثير بن خرشه بن ربيعة يمثلون بني مالك (سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٣) .

(٤) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٤ .

ثم شهراً . فرفض الرسول ذلك كله . ويعلل ابن هشام[1] والطبري[2] هذا الطلب ، فيقولا : «وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام» .

وأراد الرسول الكريم ، تكريم ثقيف ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فانه لا خير في دين لا صلاة فيه» ولكن الثقفيين لم يقدروا هذا التكريم التقدير الحقيقي ، فقالوا : «يا محمد ، فسنؤتيكها ، وإن كانت دناءة !!»[3] .

كتب الرسول عليه الصلاة والسلام لوفد ثقيف كتاباً وولى عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سناً «وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام ، وتعلم القرآن»[4] .

كان قدوم وفد الطائف إلى المدينة – كما ذكرنا – في شهر رمضان ، فلما اعتنقوا الإسلام على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم بدأوا يؤدون فرائض الإسلام ، فأدوا الصلاة ، وصاموا رمضان مع المسلمين في المدينة . وكان الرسول يبعث اليهم بفطورهم وسحورهم مع بلال ، وضرب وفد الطائف مثلاً رائعاً للتمسك بأركان الإسلام[5]

فقد كان بلال إذا قدم اليهم بطعام السحور امتنعوا عن الأكل وقالوا : إنا لنرى الفجر قد طلع . وقد كان الرسول يؤخر السحور . وإذا قدم بلال بطعام الإفطار امتنعوا عن الأكل أيضاً وقالوا : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد . فيطمئنهم بلال ويقول : ما جئتكم حتى أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يضع بلال يده في الجفنة فيلتقم منها ليحذوا حذوه[6] .

حتى إذا بدأ الثقفيون رحلتهم راجعين إلى الطائف ، توجه الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصيحة لأمير الطائف الجديد عثمان بن أبي العاص ، فقال له : يا عثمان

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٥ .
(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٢٦٥ .
(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٥ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) الخربوطلي : الرسول في رمضان ص ١٧٢–١٧٣ .
(٦) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ .

تجاوز في الصلاة ، واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير ، والصغير ، والضعيف وذا الحاجة .

وصحبهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، لهدم اللات . وفي الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى أبو سفيان ذلك ، وقال للمغيرة : ادخل أنت على قومك ، وأمسك المغيرة بالمعول ليهدم اللات ، ووقف حوله بنو معتب يوفرون له الحماية «خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة»[١] وأمر الرسول بأن يقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود .

وهذا هو نص كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام لقبيلة ثقيف : «بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبي ، رسول الله ، إلى المؤمنين . ان عضاه[٢] وج وجيده لا يعضد[٣] ، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فانه يؤخذ فيبلغ به النبي محمد ، وأن هذا أمر النبي محمد رسول الله» .

ورغم المقاومة الشريفة التي قاومتها ثقيف للإسلام وللرسول ، فقد أخلصت للإسلام اخلاصاً دائماً شديداً ، وفي ذلك يقول المغيرة بن شعبة : «فدخلوا في الإسلام ، فلا أعلم قوماً من العرب بني أب ولا قبيلة ، كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم»[٤] .

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٦ ، الطبري جـ ٢ ص ٣٦٦ .
(٢) ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٧ .
(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٧ .
(٤) طبقات ابن سعد حـ ٢ ص ٢٨ .

البَـابُ الثـَّالِث

مَدينَـةُ الطَّائِفِ فِي عَصْرَي الخلفاءِ الراشِدين وَالأمويّين

١ ـ موقف الطائف من حركات الردة

٢ ـ دور الطائف في الفتوحات الإسلامية

٣ ـ دور الطائف وثقيف في تاريخ الدولة العربية في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين

٤ ـ رجالات ثقيف في العصر الأموي

٥ ـ الأسرة العباسية في مدينة الطائف



الباب الثالث

مدينة الطائف في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين

١ ـ موقف الطائف من حركات الردة

كان ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي أعظم حدث شهده العالم ، فقد منح البشرية نظماً راقية في السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والفكر .

وكل جديد لا بد أن يواجه حركات مضادة ، ويصبح الصراع بينهما ، هو صراع بين القديم البالي ، والجديد الناهض . وقد واجهت الإسلام في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام عدة حركات مضادة . أولها حركة قادتها قريش في مكة ، وثانيها حركة قادتها ثقيف في الطائف ، والحركتان تمثلان الوثنية العمياء ، والرجعية الجاهلية .

وفي المدينة ، واجه الرسول والمسلمون حركتين مضادتين أُخريين ، أولاهما حركة المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام نفاقاً ، وأصبحوا حزب المعارضة الجوفاء أما الحركة المضادة الثانية ، فقد شنتها القبائل اليهودية بالمدينة . وانتصر الإسلام على كل هذه الحركات المضادة . وكان إعلان ثقيف إسلامها تتويجاً لجهود المسلمين في سبيل انتصار الإسلام . فقد توافدت على المدينة وفود كثيرة ، تمثل القبائل العربية ، تعلن إسلامها[1] حتى أنه أطلق على العام التاسع بعد الهجرة اسم (عام الوفود)[2] .

(١) وخير ما يمثل تأثير إسلام الطائف على إسلام سائر القبائل العربية التي تأخر إسلامها ، نص للمقريزي (امتاع الأسماع ح ١ ص ٤٩٥) حيث يقول «ولما أسلمت ثقيف ضربت إليه وفود العرب من كل وجه لمعرفتهم أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجاً» .

(٢) أنظر تفاصيل أخبار هذه الوفود في سيرة ابن هشام ح ٤ ص ٢٤٥ وما بعدها وفي كتاب أمتاع الأسماع للمقريزي ح ١ ص ٥٠٠ وما بعدها .

وفي أواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بدت بوادر حركة مضادة أخرى ، هي حركة الردة ، وما لبثت أن اتسع نطاقها ، وازداد خطرها ، بعد وفاة الرسول ، حتى انتشرت في أرجاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية ، فظهرت حركات عديدة ، اختلفت في بواعث قيامها ، وفي صورها ، وأساليبها ووسائلها ، وزعاماتها ولكنها كلها اتفقت في أنها قد أصبحت خطراً على الإسلام وعلى الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت في الجزيرة العربية في عهد الرسول . فهي تهدم جهود ثلاث وعشرين سنة قضاها الرسول عليه الصلاة والسلام في جهاد وكفاح في مكة والمدينة ، وهي تهدد بعودة الجزيرة العربية إلى الأوضاع الجاهلية الرجعية القديمة ، وما سادها من عصبية قبلية ، وحروب دامية ، وفوضى دينية ، وانحلال خلقي ، وتأخر حضاري[1] .

لم تكن الردة حركة واحدة ، بل عدة حركات ، لم تنتظم في اتجاه واحد ، أو تحت رئاسة موحدة ، فتنوع الحياة الطبيعية ، وتعدد القبائل ، وصعوبة المواصلات والاتصالات ، مما يمنع الاتحاد بين المرتدين . ولم توجه معظم هذه الحركات عداءها ضد الإسلام كعقيدة سماوية سامية ، ولم تكن الرغبة إلى العودة إلى الماضي بوثنيته وجاهليته هو السبب الغالب أو المشترك بين حركات الردة .

ويهمنا في هذا البحث أن نجيب على هذا التساؤل : ماذا كان موقف الطائف عامة ، وثقيف خاصة ، من حركات الردة ؟ وهل شاركت الطائف أو ثقيف فيها ، كلياً أو جزئياً ؟

اتسعت نطاق الردة في الجزيرة العربية ، وشملت معظم مناطقها وأقاليمها وكان من المحتم أن تمتد شرارة من نيرانها المحرقة إلى الطائف . فماذا كان موقف الطائف ؟ هل اطفأت تلك الشرارة قبل أن تستفحل ويشتد اوارها ؟ أم تركتها تشتعل فتصبح ناراً هوجاء ؟

لقد فكرت قبيلة ثقيف – فعلاً – أن ترتد ، وأن تشارك في تلك الحركات الحمقاء التي انتشرت في كل مكان ، ولكنها كانت رغبة ضعيفة ، لا تستند على دعائم قوية ،

---

(١) الخربوطلي : الإسلام والحركة المضادة ص ٤–٥ .

وتدخل في نطاق التقليد الأعمى ، أو المشاركة الوجدانية ، دون وجود التفكير العميق ، أو الدوافع الوجيهة . ولذا نجد هذه الرغبة تكبت ، والنار تنطفئ ، في سرعة واضحة ، بعد أن يقوم والي الطائف ، عثمان بن أبي العاص ، وهو من ثقيف ، يخطب في قومه : «يا أبناء ثقيف ، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد . وقد كان عثمان من خيرة شباب ثقيف وقد اشتهر بالعلم والتفقه في الدين [1] .

انطفأت تماماً تلك الجذوة التي ومضت سريعاً ، مما يجعلنا نتساءل أيضاً : لماذا لم تشارك ثقيف في حركات الردة ؟

حددت درجة البداوة والحضارة موقف كل من البدو والحضر من حركات الردة . فقد كان الحضر أكثر ابتعاداً عن المشاركة في هذا الإرتداد . فإن مكة وان كانت قد ظهرت فيها بوادر ردة ، إلا أنها حركات محدودة مؤقتة [2] . رغم ما لمسناه من مقاومة مكة للإسلام طوال ٢١ سنة من ظهور الإسلام حتى كان فتح مكة سنة ٨ هـ .

وقد تكررت الصورة التي شهدناها في الطائف وفي مكة أيضاً ، فقد كانت عبارات قليلة كفيلة بالقضاء على بوادر الردة في كل من المدينتين . فقد روى ابن هشام [3] : «إن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هموا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك ، حتى خافهم عتاب بن أسيد [4] ، فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رأينا ضربنا عنقه . فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب بن أسيد» .

قال الله سبحانه وتعالى عن البدو الأعراب : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً . وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) [5] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٥ .

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٦٢ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣١٦ .

(٤) وهو والي مكة الذي ولاه الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٥) سورة التوبة آيات ٩٧-٩٨ .

وكان البدو يمثلون الغالبية العظمى من سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وقد اعتاد هؤلاء البدو حياة الحرية المطلقة ، سواء حرية مكانية ، أو اجتماعية أو دينية ، أو سياسية . وهي حرية شخصية ، لا حرية اجتماعية . مما أدى إلى ظهور الفردية العربية ، وإلى الميل إلى الاقليمية ، والمشاركة في الحروب القبلية ، دون تفكير اجتماعي[1] .

والفردية أبرز صفات البدوي الاجتماعية ، حتى أن البدوي لم يرفع نفسه بتاتاً إلى مستوى المخلوق الاجتماعي من الطراز الدولي . والبدوي يتمسك بالتقدير ، بل هو يؤثر الصبر والاستسلام على أن يحاول تغيير حالته التي وجد نفسه فيها مهما يكن ذلك من ضير . ولم يحاول البدوي أن يروض نفسه على اعتناق المثل العليا التي تصلح لصالح المجموع إلا إذا كان ذلك يتعلق بقبيلته ، أما النظام واحترام الأوامر والسلطات فليست من المبادئ المعروفة في حياة الصحراء[2] .

وأثرت البيئة الحضرية في كل من الطائف ومكة ، في موقف كل من ثقيف وقريش من حركات الردة ، فقد كانت القبيلتان على درجة كبيرة من الحضارة ، والرقي الفكري ، والتهذيب الاجتماعي . واعتادت القبيلتان الالتزام ، في السياسة وفي الاجتماع ، بل وفي الدين أيضاً . وكانت قريش وثقيف – كما رأينا في الفصول السابقة – قد أصبحتا وكأنهما دولتان صغيرتان ، وإذا كانت الوثنية في العصر الجاهلي الدين الرسمي لكل من الدولتين ، فقد أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للقبيلتين .

وإذا كانت ثقيف قد تأخر إسلامها ، فقد كان ذلك راجعاً إلى الغيرة ، والنزاع القبلي . بينما كانت أحوال المدينة المنورة ، السياسية والاجتماعية ، تؤدي إلى تكييف موقف مجتمعها تجاه الدين الجديد[3] بينما تغلبت على الطائف المصالح الإقليمية والفردية والقبلية .

لقد كان عند ثقيف قبل الإسلام ، شعور ديني ، وان كان متجهاً نحو الوثنية ، إلا أن الثقفيين جمعهم جميعاً شعور ديني واحد ، يجعلهم يقدسون (اللات) ويتعصبون

---

(١) الخربوطلي : الإسلام والحركة المضادة ص ٩٦ .

(٢) حتي : تاريخ العرب ص ٣٠ .

(٣) أوليري : الفكر العربي ومكانته في التاريخ ص ٢٤–٢٥ .

لها ، ويريدون الخلاص من منافسي وثنهم . كما قام في الطائف في الجاهلية (تماسك اجتماعي) ، يصلح للاستمرار بعد انتشار الإسلام .

ولذا رأينا تلك القبيلتين الحضريتين ، المتقدمتين في ميادين الحضارة ، قريش وثقيف ، لا تشاركان في حركات الردة . فيقول الطبري [١] إنه بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام « كفرت الأرض وتصرمت وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً » .

ومما يجدر ملاحظته ، أن كلاً من مكة أو الطائف ، لم تشهد مثل هؤلاء الأنبياء الكاذبين الذين شهدتهم أرجاء كثيرة في الجزيرة العربية خلال حركات الردة[٢] ورغم تأخر إسلام ثقيف ، فقد فهموا معنى النبوة على حقيقته . وكان من عوامل تأخر اعترافهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام هو غيرتهم من قريش وحسدهم لها . كما فهمت ثقيف أيضاً معنى الخلافة كنظام سياسي ، فهي باعتبارها قبيلة حضرية تعرف أبعاد الحياة السياسية ، فكان لها في الجاهلية مناصبها وزعاماتها ورئاساتها .

واختلفت الأحوال في الطائف عنها في سائر أرجاء الجزيرة العربية فإن كثيراً من العرب لم يفهموا معاني « النبوة » و« الخلافة » الفهم الحقيقي الصادق . فقد ربط العرب طوال عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بين النبوة – والرئاسة الدنيوية ، إذ كان الرسول نبياً ورئيساً للدولة الإسلامية الناهضة ، بينما أعلن أبو بكر أنه خليفة رسول الله في سلطاته الدنيوية ، وفي تنفيذ الشرائع الإسلامية وفي رئاسة الدولة الإسلامية ، فقد انتهت وظيفة محمد كنبي بوفاته .

وفهم بعض العرب معنى النبوة ، ولكنهم لم يفهموا معنى الخلافة ، كنظام سياسي . فقد كان نظاماً مستحدثاً لم يعرفه العرب من قبل ، ولم يكن موجوداً في الدول المعاصرة . وان أهالي المدينة ، وهي العاصمة ، قد استحدثوا نظام الخلافة ، إلا أن كثيراً من العرب المنتشرين في أرجاء الجزيرة العربية ضاقت آفاقهم فلم يفهموا جوهر هذا النظام

---

(١) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٤٧٥ .

(٢) من هؤلاء الأنبياء الكاذبين : الأسود العنسي في اليمن ، ومسيلمة الكذاب في إقليم اليمامة ، وسجاح نبية بني تميم . وطليحة بن خويلد نبي بني أسد .

الجديد أو فلسفته ، وأرادوا أن يعيشوا ، كما كانوا يعيشون ، في ظل النبوة التي تربط بين الدين والدنيا[1] .

وأثر موقف ثقيف من الإسلام ، وإخلاصها له وتمسكها به ، وعدم مشاركتها في حركات الردة ، في موقف بعض القبائل التي رأت الاقتداء بموقفها ، فيروي الطبري[2] ان أعوام جديلة والأعجاز اقتدت بثقيف . أما هوازن ، الحليفة القديمة لثقيف والتي شاركتها في قتال المسلمين في موقعة حنين سنة ٨ هـ ، ثم شاءت هوازن اعتناق الإسلام ، والمضي في طريق مستقل ، فإنها - كما قال الطبري « قدمت رجلاً وأخرت رجلاً » ، هذا بينما حسمت ثقيف موقفها ، وأعلنت تمسكها بالإسلام ، وتخلصت سريعاً من وسوسة الشيطان .

ولنا أن نتساءل أيضاً : لماذا ظهرت في الطائف بوادر ردة ؟ ولماذا فكرت ثقيف في الارتداد ؟ وهل كانت دوافعها على مثيلة دوافع القبائل العربية الأخرى في المشاركة في حركات الردة ؟

لم تمدنا المصادر القديمة بما يجعلنا نقدم إجابة قاطعة شافية ، ولكننا نستطيع أن نستنبط الإجابة من بعض النصوص القديمة .

لم تكن (الزكاة) من عوامل تفكير ثقيف في بادرة الردة ، بينما كانت الزكاة من أبرز العوامل الرئيسية لقيام حركات الردة في أرجاء الجزيرة العربية فقد رأى كثير من العرب في أداء الزكاة جزية تفرضها الحكومة الإسلامية بالمدينة عليهم وتأباها نفوسهم التي ألفت الاستقلال من كل سلطان ، وهم إنما أدوها منذ أسلموا إلى الرسول الذي يوحى إليه ، والذي اصطفاه الله نبياً . أما وقد انتقل النبي إلى جوار ربه ، فليس لأحد فضل ، وليس له حق المطالبة بالزكاة[3] .

ومن القبائل التي امتنعت عن أداء الزكاة : عبس ، وذبيان ، وغطفان وفزارة ، وأسد ، وهوازن ، وطيء ، وقضاعة . وقد أعلنت تمسكها بالصلاة ، وامتناعها عن

---

(١) الخربوطلي : الإسلام والحركة المضادة ص ٥٨ .

(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٤٧٥ .

(٣) هيكل : الصديق أبو بكر ص ٧٧ .

الزكاة[١] . ويصف المستشرق (بروكلمان)[٢] أن عمال الزكاة كانوا مصدر ازعاج وإعنات ، في نظر هذه القبائل . ويذكر الدكتور حتي[٣] أن الغيرة من حكومة المدينة كانت من عوامل الامتناع عن الزكاة .

واستمرت ثقيف في أداء الزكاة ، كما يبدو في روايات كثيرة للبلاذري[٤] كما تحدث الطبري[٥] عن القبائل التي امتنعت عن الزكاة ، واستثنى منها ثقيفاً فقال عن هؤلاء : «أمسكوا الصدقة إلا ما كان من ثقيف» . ومما يؤكد أيضاً هذه الحقيقة ، أن وفد ثقيف الذي قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام في سنة ٩ هـ لم يتحدث ، من قريب أو بعيد ، عن الزكاة ، وان طلب اعفاء ثقيف من الصلاة وثقيف قبيلة ثرية ، لها مواردها الاقتصادية ، فلا يضيرها أداء الزكاة ، أما الصلاة فهي في رأي وفد ثقيف — تكليف يرهقهم ويطلبون اعفاءهم منه . والغريب أن وفد ثقيف وجد الصلاة ، بالنسبة لهم ، أكثر عناء من الصيام . وقد شهدناهم ، رغم حداثة اسلامهم ، يحرصون على الصيام ، ويؤخرون الافطار والسحور[٦] .

وقد يكون تفكير ثقيف ، وهو تفكير سريع وقصير ، كان نتيجة عدم رغبتها في أداء الصلاة . وقد رأينا مثل الاتجاه عند بعض المرتدين . فنجد النبي الكاذب طليحة بن خويلد الأسدي يعفي أتباعه من السجود ، ويزعم أنه يعفر الوجوه بالتراب[٧] . ونجد نبياً كاذباً آخر ، هو مسيلمة الكذاب ، يسقط عن أتباعه المخدوعين صلاة من الصلوات الخمس هي صلاة العصر[٨] .

ولم تكن تلك (البادرة) من ثقيف من أجل العودة إلى الوثنية ، أو للارتداد الكامل عن الإسلام . وقد تكون هذه (البادرة) استمراراً لإطلاق العنان للأحقاد القديمة[٩] ،

---

(١) الطبري حـ ٢ ص ٤٧٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٣ .
(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية حـ ١ ص ٩٨ .
(٣) حتي : تاريخ العرب ص ١٧٢–١٧٣ .
(٤) فتوح البلدان ص ٦٧ وما بعدها .
(٥) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٤٧٥ .
(٦) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٥ .
(٧) الطبري حـ ٢ ص ٤٨٣–٤٨٤ .
(٨) الفخري ص ٧٤ .
(٩) جوزيف هل : الحضارة العربية (ترجمة الدكتور ابراهيم العدوي) ص ٤٢ .

حين كانت تحقد ثقيف على قريش ، وقد تولى الآن الخلافة ابن من أبرز أبنائها ، وهو أبو بكر الصديق ، وأصبحت حكومة المدينة هي في الحقيقة حكومة قريش . وقد تكون (بادرة) ثقيف هي « تمرد داخلي » ، وقد تكون رغبة في « التنصل من حكومة المدينة » ، ولكنها لم تكن ارتداداً عن الإيمان بالله[١] .

لقد أدركت ثقيف أن عهد الوثنية قد ولى وانتهى ، وقد شاهدت وثنها (اللات) وقد أصبح حطاماً . واحترم الرسول عليه الصلاة والسلام ، مشاعر ثقيف القومية ، فقد ولى على الطائف أحد شبابها ، المتحمسين المثقفين ، وهو عثمان بن أبي العاص . وقد رأينا من نصائح الرسول عليه الصلاة والسلام له قوله : «يا عثمان تجاوز في الصلاة ... »[٢] وقد كان عثمان من خيرة الشباب المتدين المتعلم ، وقد اتبع نصائح الرسول في الرفق بأهل الطائف ، والتزام العدل .

وقد مر بنا نص قديم ، ينقل حديثاً للمغيرة بن شعبة الثقفي ، يؤكد اخـــلاص ثقيف للإسلام ، بحيث لا توجد قبيلة أخرى « أصح إسلاماً »[٣] .

وهذا يؤيد رأي المستشرق بروكلمان[٤] الذي قال إن «الدوافـع الدينية لم تكـن مسؤولة عن موجة الإرتداد إلا نادراً» ، فقد «أعلن بعض المرتدين انهم لا يزالون راغبين في أن يعبدوا الله» . بل نجد نبيين كاذبين يعودان إلى حظيرة الإسلام ، وهما طليحة بن خويلد الأسدي[٥] ، وسجاح التميمية[٦] . بل أن طليحة شارك في الفتوحات الإسلامية في بلاد العراق ، وأبلى بلاء حسناً . هذا إلى جانب عودة آلاف من المرتدين إلى لواء الإسلام ، بعد توبتهم واعترافهم بخطئهم ، وأنهم وقعوا تحت تأثير ضغط أو خداع[٧] .

لقد رأينا في الفصول السابقة صورتين متناقضتين ، فقد شهدنا بعض زعماء ثقيف

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية (ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده ، ص ٢٢) .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٥ .
(٣) طبقات ابن سعد حـ ٢ ص ٢٨ .
(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي) حـ ١ ص ٩٩ .
(٥) الطبري حـ ٢ ص ٤٩٤ .
(٦) يقول الطبري عن سجاح : «وحسن اسلامها» (حـ ٢ ص ٥٠٠) .
(٧) الخربوطلي : الإسلام والحركة المضادة ص ٢٣ .

يسيئون استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام حين فكر في الهجرة إلى الطائف . ثم رأينا قدوم زعماء ثقيف إلى المدينة ، واعتناقهم للإسلام ، وأدائهم شعائره ، في اخلاص ، وبدقة ، مما لا يجعل مجالاً للشك في إيمانهم .

لقد كانت فترة اقامة زعماء ثقيف في المدينة ، فترة تعلم لشعائر الإسلام ، وقد أجادوا التعلم ، ثم التطبيق . فيروي المقريزي [1] : «وأمر لهم – أي لوفد ثقيف عليه السلام بخيمات ثلاث من حرير ، فضربن في المسجد ، فكانوا يستمعون القراءة بالليل وتهجد الصحابة ، وينظرون صفوفهم في الصلوات ، ويرجعون إلى منزل المغيرة فيطعمون ويتوضأون» . كما قال المقريزي أيضاً عن هؤلاء الثقفيين : «وأسلموا وتعلموا فرائض الإسلام وشرائعه ، وصاموا بقية شهر رمضان» .

وساهمت ثقيف في اخماد حركات الردة في معظم أرجاء الجزيرة العربية فانضم الثقفيون إلى الجيوش التي حاربت المرتدين ، فيروي الطبري [2] أن القائد المهاجر بن أبي أميه ، أثناء خروجه إلى اليمن ، بالجيش الإسلامي ، مر بمدينة الطائف ، حيث انضم اليه عبد الرحمن بن أبي العاص وقوم من أهل الطائف فرحلوا معه إلى اليمن لمواجهة حركة الردة التي قام بها الأسود العنسي .

٢ ـ دور الطائف في الفتوحات الإسلامية

الإسلام دين عالمي ، ومحمد هو رسول الله إلى العالمين . وما كاد الرسول عليه الصلاة والسلام يوقع صلح الحديبية مع قريش سنة ٦ هـ ، فيتوقف غزوها للمدينة ، حتى بدأ الرسول سياسة تحقيق عالمية الدين الإسلامي ، فكانت رسائله إلى ملوك وأمراء الدول . كما كانت حملة أسامة بن زيد في أواخر حياة الرسول هي طليعة الجيوش الإسلامية التي خرجت للفتح ونشر الإسلام في أرجاء العالم الوسيط .

فالإسلام دين عالمي صالح لكل زمان ومكان ولقد عمل الرسول صلى الله عليه

(١) امتاع الأسماع ص ٤٩١ .

(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٥٤٠–٥٤١ .

على نشر الإسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم كما حارب الإسلام كل لون من ألوان العصبية التي تفضل جنساً على جنس أو أمة على أمة فالإسلام يدعو الناس إلى الحياة في مجتمع إنساني واحد أو هو يرمي إلى ضم البشرية كلها إلى لوائه متساوية متآخية[١] فهو النظام العالمي العام . ورسالة الإسلام ليست مقصورة على بلاد العرب بل هي للعالم أجمع . لذلك كانت تلك الكتب التي بعث بها الرسول في السنة السادسة من الهجرة إلى عظماء وملوك العالم . لقد بعث إلى قيصر الروم وإلى كسرى فارس ، وإلى حاكم اليمن ، وحاكم مصر ، وإلى نجاشي الحبشة . لقد كانت تلك الكتب تعبيراً وتنفيذاً عما تردّد ذكره في القرآن الكريم من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام . فقد قال الله تعالى :

(١) «إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين»[٢] .

(٢) «ان هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين»[٣].

(٣) «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[٤] .

(٤) «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين للحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»[٥] .

إن هذه الآيات البينات دليل على عالمية الدين الإسلامي ولنمعن النظر في جملة تكررت كثيراً في القرآن الكريم وهي وصف التعاليم الإلهية بأنها «ذكر للعالمين» . فكلمة «العالمين» لها في القرآن دائماً معنى عالمي فالله رب العالمين . إذن فالمقصود بالرسالة هو الإنسانية كلها . ولقد كانت الدولة الإسلامية في عهد الرسول تضم أفراداً من أجناس مختلفة روم وحبش ، وفرس وهم وإن كانوا قلة بالنسبة للأغلبية العربية إلا أنهم كانوا يمثلون الوحدة الإنسانية وعالمية الدين الإسلامي لقد أكرم الرسول سلمان الفارسي فكان يقول عنه : «سلمان منّا أهل البيت» . كما قرّب الرسول إليه صهيباً

(١) سيد قطب : العدالة الإجتماعية في الإسلام ص ٩٧-٩٨ .
(٢) سورة ص ٨٧-٨٨ .
(٣) سورة يس ٦٩-٧٠ .
(٤) سورة سبأ ٢٨ .
(٥) سورة الصف ٩ .

الرومي فكان لا يفارقه في أوقات الحرب والسلم . وأصبح بلال بن رباح الحبشي مؤذناً للرسول فكان عليه الصلاة والسلام ينظر إلى هؤلاء على أنهم أولى ثمار هذه البلاد .

وهكذا كانت سياسة الفتح سياسة مقررة منذ عهد الرسول ، وأرجأ أبو بكر الصديق الاستمرار فيها بسبب قيام حركات الردة التي هددت الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية ، للدولة والجماعة الإسلامية . وكان لا بد من توحيد الجبهة الداخلية قبل مواجهة القوى الخارجية . ولذا ما كاد أبو بكر يهزم المرتدين حتى عاود سياسة الفتح .

ودفعت الحماسة الدينية ، وقوة الإيمان ، بالعرب إلى مواجهة أكبر دولتين معاصرتين ، هما الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية ، ونجح العرب في فتح جميع أراضي الدولة الفارسية ، وانتزعوا مصر والشام من الدولة الرومانية . وقد واصل عمر بن الخطاب سياسة سلفه أبي بكر في استمرار الفتوحات الإسلامية .

فماذا كان دور الطائف في هذه الفتوحات ؟

كان الفتح ، وما يترتب عليه من نشر الإسلام ، أمر يهم جميع المسلمين ، فالجهاد فريضة من فرائض الله عز وجل ، وبعض المسلمين يجعلونه الركن السادس من أركان الإسلام ونستطيع أن نقول إن جميع قبائل ومدن الجزيرة العربية قد ساهمت في الفتوحات الإسلامية ، وإن تفاوت الدور الذي قامت به .

بدأ أبو بكر الصديق سياسة الفتح بعد نجاحه في اخماد حركات الردة فوجه الدعوة إلى مدن وقبائل الحجاز ونجد واليمن فكان منها من يلبي الدعوة جهاداً في سبيل الإسلام ، فيروي البلاذري[1] : «لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة ، رأى توجيه الجيوش إلى الشام ، فكتب إلى أهل مكة ، والطائف ، واليمن ، وجميع العرب بنجد والحجاز ، يستنفرهم للجهاد ، ويرغبهم فيه ، وفي غنائم الروم ، فسارع الناس إليه ، بين محتسب وطامع ، وأتوا المدينة من كل صوب ، فعقد ثلاثة ألوية » .

ساهمت الطائف في جيوش الشام ، ولكن مساهمتها في جيوش العراق كانت أوضح وأوسع ، وضرب أبناؤها أمثلة رائعة للبطولة والاستشهاد . وبعد الفتوحات ، ارتبط تاريخ العراق بتاريخ كثير من شخصيات ثقيف .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٥ .

وأدت الفتوحات إلى امتزاج قبيلة ثقيف بغيرها من القبائل العربية ، مما حطم عزلتها القديمة ، وأذاب الفروق القبلية بينها وبين سائر القبائل ، فقد جمعها كلها جهاد واحد ، ومصير موحد . ويتضح من نصوص كثيرة للطبري والبلاذري . في رواياتهم لأخبار الفتوحات ، ان خروج العرب من جزيرتهم لم يكن قط قبلي الصورة ، بمعنى أنه لم يكن الانتداب للحرب يتخذ شكلاً قبلياً ، ولكن الذي كان يحدث في خلال الفتوح أن يبعث الخليفة إلى المدن والقبائل يستنصرها ويرغبها في الجهاد ، فكانت تتوافد عليه الجموع من هنا وهناك فيصرفها في الوجهة التي يرى ، ويمد بها الجنود الذين يحتاجون المدد ، وفق ما يصله من رؤساء الجيوش وما يكتتب إليه القواد .

وكان من الطبيعي أن يكون للفتوح أثرها في مزج هذه القبائل وصهرها وخلق طوابع جديدة ، ذلك أن الأعمال التي كانت تقوم بها الجيوش كانت تقتضي بطبيعة الحال تعاوناً جماعياً لا يعتمد على روح القبيلة الفردي . ويبدو أن الجيوش الغازية ، بكل ما كانت تتضمن من خليط القبائل ، كانت تؤلف وحدات اجتماعية جديدة تتعاون وتتزاوج ، وتختلط فيها الدماء والأنساب . مما يكون له أثره الأخير في المباعدة بين الإنطلاق العربي ، وبين الطابع العربي ، والسمو بالروح الفاتحة من نطاق القبيلة إلى نطاق الأمة[1] .

وبرز دور ثقيف في الفتوحات ، في عهد عمر بن الخطاب ، وخاصة في فتوح العراق . وبرزت بطولة ثقفي كبير ، هو أبو عبيد بن مسعود ، الذي كان لجهوده ولجهاده ، أثرهما في الانتصارات الإسلامية في فتوحات العراق . ولا غرو ، فهو أخو عروة بن مسعود الثقفي ، الذي شهدنا بطولته ، في الفصل الثاني من هذا الباب ، فقد رأيناه يقدم على الرسول بعد انهائه لحصاره للطائف يعلن اسلامه ، ويستأذنه في العودة إلى الطائف ليدعو قومه إلى الإسلام ، وخاف الرسول الكريم عليه ، ولكنه عاد إلى الطائف ، يدعو إلى الصلاة والإيمان بالله ، فرماه قوم بالنبل ، فاستشهد في سبيل الله ، ودفن مع شهداء المسلمين في خلال حصار الطائف . ولجأ ابناه مليح وقارب إلى الرسول ، وأسلما ، وأعلنا أنهما « يريدان فراق ثقيف وألا يجامعاهم على شيء أبداً »[2] .

---

(١) شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ص ٣٦ .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٩٤–١٩٥ .

وكانت تولية عمر بن الخطاب الخلافة نقطة تحول في مخططات الفتوحات الإسلامية . فقد أمر بأن يشترك من أظهر التوبة من أهل الردة في حرب فارس ، ويكون بذلك قد وافق على أمر عارض فيه أبو بكر من قبل . وكان أول ما قام به عمر في صبيحة اليوم الثاني لدفن أبي بكر أن ذهب إلى فناء مسجد الرسول ، ورفع راية الجهاد ، فاجتمع الناس من كل حدب وصوب حتى كثر عددهم ، فتحدث إليهم في أمر الخروج إلى فارس ، فلم يستجب له أحد ، فظل على ما فعله حتى اليوم الرابع .

ورأى القائد الباسل المثني بن حارثة الشيباني أن الناس تخشى الخروج إلى فارس ، لأنها أثقل البلاد عليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم ، فوقف خطيباً مهوناً الأمر ، داعياً الناس للاستجابة لمطلب الخليفة . ووقف عمر بن الخطاب ، يوضح لهم أن فتح العراق وفارس خير تأمين لبلاد الحجاز [1] .

وكان أول من لبى نداء الخليفة ، هو أبو عبيد بن مسعود ، واختار عمر ألف رجل من أهل المدينة ووضعهم تحت قيادة أبي عبيد . واعترض البعض على اختيار أبي عبيد ، فقال أحدهم : أمر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار . فقال عمر : لا والله لا أفعل ، ان الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع . وأجاب إلى الدعاء والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً . فقال آخر لعمر : أمر عليهم رجلاً له صحبة فقال عمر : إنما فضل الصحابة بسرعتهم إلى العدو وكفايتهم من أبي . فإذا فعل فعلهم قوم واثاقلوا كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً أولى بها منهم ، والله لا أبعث عليهم إلا أولهم انتداباً[2] .

وقد حرصنا على ذكر هذه النصوص ، لنتبين منها نظرة عمر إلى قيادة الجيوش ، التي كانت تسمو فوق كل اعتبار ، فقد فضل هذا الرجل الثقفي على شيوخ المهاجرين والأنصار ، وعلى سائر صحابة الرسول ، فالمقياس هنا هو التطوع للجهاد ، وسرعة هذا التطوع دون تردد أو تفكير أو تثاقل . وقدر عمر موقف أبي عبيد حين لبى نداءه فوقف يقول : « يا أمير المؤمنين إنا سمعناك وأطعناك ، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ...

---

(١) الطبري حـ ٢ ص ٦٣٠-٦٣١ ، أيام العرب في الإسلام : محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٢١٧ .
(٢) الطبري حـ ٢ ص ٦٣١-٦٣٢ .

أنا وقومي وعشيرتي» . وكان هذا الانتداب هو أول عمل يمارسه عمر بعد توليته الخلافة ، فيذكر الطبري[1] : «كان أول بعث بعثه عمر ، بعث أبي عبيد» .

وهذا الموقف من عمر بن الخطاب يذكرنا بموقف للرسول عليه الصلاة والسلام حين ولى زيد بن حارثة قيادة الجيش الإسلامي ، وكان شاباً ، وأصبح تحت قيادته كبار رجالات الإسلام ، وصحابة الرسول[2] .

وكان سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري يتطلع لتولي القيادة ، بدلاً من أبي عبيد الثقفي ، ولكن عمر بن الخطاب ، بثاقب بصيرته وخبرته ، اختار أبا عبيد للقيادة ، وقال لسليط : «لولا عجلة فيك لوليتك ، ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث»[3] . وهكذا وصف عمر أبا عبيد بأنه «الرجل المكيث» ، أي المتريث ، المتروي . فكان عمر يرى أن التعقل والتدبر خير وسائل الانتصار في الحروب ، ونجد ذلك في النصيحة التي توجه بها عمر إلى أبي عبيد ، فقد قال «اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فانها الحرب ، والحرب لا يصلها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف»[4] . ورغم بلاء المثني به حارثة الشيباني في القتال في عهد أبي بكر ، ورغم شهرته وانتصاراته ، فقد بلغ من تقدير عمر لأبي عبيد أن «كتب إلى المثني بن حارثة يأمره بتلقيه — أي أبي عبيد — والسمع والطاعة له»[5] .

وكان لموقف أبي عبيد ، المتحمس الشجاع ، أثره الكبير في إثارة الحماسة والحمية في قلوب جميع المسلمين في المدينة ، فأعلنوا رغبتهم في المشاركة في بعث أبي عبيد ، وقال أحدهم : «يا أمير المؤمنين ، إنما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس إلى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، واني قد وهبت نفسي لله ، ومن أجابني من بنى عمي ،

---

(١) الطبري حـ ٢ ص ٦٣٢ .
(٢) محمد فرج : المثني بن حارثة الشيباني ص ٩٢ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٥١ .
(٤) الطبري حـ ٢ ص ٦٣١ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢١ .

ومن اتبعني » وقام أبو عبيد بدور كبير في تعبئة المسلمين ، فيروي البلاذري [١] : « فأقبل ابو عبيد ، لا يمر بقوم من العرب إلا رغبهم في الجهاد والغنيمة ، فصحبه خلق » . وانضم إليه من حسن إسلامه من أهل الردة .

سبق المثني القوات العربية إلى الحيرة ، فقد كان أبو عبيد يحتاج إلى نحو شهر لإعداد قواته العسكرية ، ولذا قال عمر للمثني : « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك » [٢] وعندما وصل المثني إلى الحيرة ، وجد الفرس بدأت تنشط من جديد ، فأعدت جيشين يقودهما رستم ، توجه أحدهما إلى الحيرة بقيادة (جابان) ، والآخر إلى أطراف ذي قار في موقع يسمى كسكر بين الفرات ودجلة بقيادة القائد (نَرْسي) .

وكان رستم قد عمل على إثارة مشاعر الفرس ضد المسلمين ، فيروي الطبري [٣] « وكتب رستم إلى دهاقين [٤] السواد أن يثوروا بالمسلمين ، ودس في كل رستاق [٥] رجلاً ليثور بأهله » .

وأراد رستم أن يقطع خط الرجعة على قوات المثني ، وأن يصيب خطوط مواصلاته فيشل حركته . وعلم رستم أن المثني قد وصل إلى قواته وحده وأن جيشاً آخر ما زال في الطريق ، ولهذا فكر الفرس في لقاء المثني قبل وصول المدد وهزيمته ثم الإنفراد بالمدد حين وصوله ، وبذلك يتم للفرس هزيمة القوات الإسلامية قبل تجمعها لمواجهة الجيوش الفارسية [٦] .

ورأى المثني أن يكون حذراً ، فينسحب من الحيرة إلى موضع يسمى (خافان) حتى لا تفاجئه قوات الفرس فتطعنه من الخلف ورأى تأجيل لقاء الفرس حتى يقدم أبو عبيد والمدد . وخرج أبو عبيد من المدينة ، بعد شهر من رحيل المثني ، ومعه خمسة آلاف مقاتل ، وانضم إليه في الطريق عدد كبير آخر من المسلمين ، حتى إذا بلغ العراق أصبح تحت قيادته عشرة آلاف جندي مؤمن . والتقت قواته بقوات المثني . وهنا يتخلى

---

(١) المصدر السابق .
(٢) الطبري حـ ٢ ص ٦٣٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الدهاقون : كبار ملاك الأراضي من الفرس .
(٥) الرستاق : القرية .
(٦) محمد فرج : المثني بن حارثة الشيباني ص ٩٣ .

المثني عن القيادة لأبي عبيد[1] ، كما تخلى خالد بن الوليد عن القيادة لأبي عبيدة بن الجراح ، فالروح الإسلامية العظيمة تحث على نكران الذات ، وعلى القيام بالجهاد في أي موقع .

ونظم أبو عبيد قواته ، وجعل المثني قائداً على سلاح الفرسان ، ثم تقدم أبو عبيد إلى النمارق[2] ، ليلتقي هناك بقوات (جابان) ، ودارت معركة عنيفة ، انتصر أبو عبيد فيها انتصاراً حاسماً ، وأسر كثيراً من الفرس[3] .

وأبدى أبو عبيد في ميدان القتال شجاعة واستبسالاً ، كما أبدى تسامحاً وشهامة[4] فروى الطبري[5] أن القائد الفارسي (جابان) قد وقع أسيراً في يد أحد القواد العرب ، وهو مطر بن فضة ، فاستطاع جابان أن يخفي عن مطر أنه يتولى القيادة ، فظنه جندياً بسيطاً ، فأمنه على نفسه وأطلق سراحه ، ثم قبض المسلمون عليه مرة أخرى وأتوا به إلى أبي عبيد وأخبروه بمركزه الممتاز بين جنده وأشاروا عليه بقتله ، فأبى أبو عبيد وقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم ، المسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كله . فقالوا له : إنه الملك . قال : وإن كان لا أغدر . فتركه .

وغنم المسلمون غنائم كثيرة في موقعة (النَّمارق) فقسمها أبو عبيد ، وأرسل الأخماس إلى عمر في المدينة[6] . واستمرت انتصارات أبي عبيد ، مما فصلته المصادر القديمة ، ولا مجال هنا لذكر هذه التفصيلات العسكرية ، فكان انتصار أبي عبيد على القائد (نَرْسي) في معركة (السَّقاطيَّة)[7] ، وترك الفرس بعد هزيمتهم كثيراً من الغنائم ، ثم انتصر أبو عبيد على القائد (الجالينوس) في موقعة (بارُوسْما)[8] واضطر الفرس إلى طلب الصلح ، بحيث يدفع كل فارسي جزية قدرها أربعة دراهم[9] .

---

(١) يقول الطبري (حـ ٢ ص ٦٣٥) : «قدم عليه – أي على المثني – أبو عبيد ، وهو الأمير علي المثني وغيره» .

(٢) النمارق : موقع بين الحيرة والقادسية .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٥١ .

(٤) الخربوطلي : المختار الثقفي ص ١٧ .

(٥) الطبري حـ ٢ ص ٦٣١ .

(٦) الطبري حـ ٢ ص ٦٣٥ .

(٧) موقع قرب كسكر .

(٨) الطبري حـ ٢ ص ٦٣٥–٦٣٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٠٧ .

(٩) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٥٢ .

والمصادر القديمة تروي كثيراً من أخبار أبي عبيد التي تبرز شجاعته وشهامته ، وإنسانيته . فقد قدم الفرس الذين صالحهم المسلمون أنواعاً فاخرة من الطعام للعرب الفاتحين ، لم يألفوها من قبل ، وقدموا لأبي عبيد بعضها فلم يقبل تناولها إلا بعد أن تأكد أن سائر الجند قد أكلوا منها . وقد أبرز المؤرخ الطبري هذه اللاصة في أكثر من صفحة من كتابه[1] .

ومات أبو عبيد شهيداً أثناء قتاله الفرس على شاطئ الفرات ، فقد أراد الفرس أن يحيلوا هزائمهم نصراً فيبثوا الرعب في قلوب المسلمين ، فجعلوا الفيلة في مقدمة جيوشهم فلما رأتها خيول المسلمين أجفلت . فقد غطى الفرس الفيلة بسعف النخيل وعلقوا عليها الأجراس[2] .

وتقدم أبو عبيد على رأس الجيش الإسلامي ، فهجم عليه فيل أبيض ، فضربه بسيفه وتلقى الفيل الضربة بقدمه ، ثم أوقع الفيل أبا عبيد على الأرض وداسه بأقدامه وتحول نصر المسلمين إلى هزيمة مؤقتة ، حين شاهدوا قائدهم صريعاً شهيداً . فيروي الطبري : « .. وقد أسرعت السيوف في أهل فارس ، وأصيب منهم ستة آلاف في المعركة ، ولم يبق ولم ينتظر إلا الهزيمة ، فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل ، جال المسلمون جولة ، ثم تموا عليها ، وركبهم أهل فارس » .

وكادت الهزيمة التامة تلحق بالمسلمين ، وشعر بذلك رجل من ثقيف ، هو عبدالله ابن مرثد الثقفي ، ورأى أن يمنع تدفق المسلمين الهاربين نحو الجسر ، وأراد أن يعيد الثقة في قلوبهم ، فيصمدوا ويقاتلوا ، ولا يهربوا . ولذا قطع الجسر ، وهو يصيح : «أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا »[3] وهكذا يذكرنا بموقف

(١) روى الطبري (حـ ٢ ص ٦٣٧) أن أبا عبيد سأل هؤلاء الفرس : أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم . فقالوا : لا . فرد أبو عبيد الطعام وقال : لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد أن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ، لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم . فقالوا : كل فانه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى في منزله بمثل هذا وأفضل .

(٢) الخربوطلي : المختار الثقفي ص ١٨ .

(٣) الطبري حـ ٢ ص ٦٤٢ ، أيام العرب في الإسلام : محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٢٢٣ .

طارق بن زياد خلال فتوح الأندلس ، حين أحرق سفنه ليمنع جنوده من التفكير في العودة ، وصاح صيحته المشهورة : «العدو من أمامكم ، والبحر من خلفكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر» .

وكان أبو عبيد قد أوصى قبل موته بأن يتولى أخوه الحكم القيادة بعده ، ولكن الحكم استشهد أيضاً في المعركة فحمل الراية بعده وهب ، حتى إذا لقي حتفه ، حملها أخوه مالك حتى سقط شهيداً . وقد أبدى هؤلاء الثقفيون بسالة نادرة ، وتذكر المصادر القديمة أبيات الشعر الحماسية التي أنشدوها وهم يسقطون شهداء . وقد استشهد كثير من بني ثقيف خلال فتوحات العراق . ومن بينهم جبر بن أبي عبيد ، ويروي الطبري[1] أن زوجة أبي عبيد ، وكانت تشهد المعركة ، قد رأت في حلم لها «أن رجلاً نزل من السماء معه إناء فيه شراب من الجنة ، فيما يرى النائم ، فشرب منه أبو عبيد ، وجبر بن أبي عبيد ، وأناس من أهله» .

واستقرت جماعات من ثقيف في بلاد العراق ، بعد الانتهاء من فتحها . فتذكر المصادر القديمة اسم قبيلة ثقيف ضمن القبائل التي نزلت مدن العراق ، وخاصة مدينة الكوفة[2] . وهي قبائل تمثل الشعب العربي الحجازي ، والشعب العربي اليمني . وكانت هناك فرص كثيرة للامتزاج ثم الإندماج بين القبائل . ولكن العصبية القبلية لعبت دوراً في تباعد هذه القبائل ، فكان لكل قبيلة حي خاص ، وركن في المسجد ، ومقبرة خاصة .

٣ ـ دور الطائف وثقيف في تاريخ الدولة العربية في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين

هذا الفصل يبحث في دور قبيلة ثقيف في مجريات الأحداث في الدولة العربية ،

---

(١) الطبري حـ ٢ ص ٦٤٣ .

(٢) ذكرى الطبري (حـ ٤ ص ١٤٩) القبائل التي سكنت الكوفة ، وهي : سليم ، ثقيف ، همدان ، بجيلة ، تيم اللات ، تغلب ، أسد ، النخع ، كنده ، الأزد ، الأنصار ، مزينة ، تميم ، محارب ، عامر ، كحالة ، بجلة ، جويلة ، جهينة .

منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حتى سقوط الدولة الأموية وكان قيام العاصمة في المدينة المنورة ، في عهود الرسول وأبي بكر وعمر وأوائل عهد علي ثم انتقال العاصمة إلى الكوفه ، ثم إلى دمشق ، يبعد الأضواء السياسية عن مدينة الطائف ، التي تعوض هذا النقص بالنشاط الاقتصادي ، والنشاط العلمي والديني ، مستفيدة من رخائها الاقتصادي ، ومن قربها من مكة ، البلدة المقدسة .

وكان اتخاذ كل من الكوفة بالعراق ودمشق بالشام ، عاصمة للدولة ، يجعل الحجاز ولاية من الدرجة الثانية ، ويبرز دوري العراق والشام في التاريخ السياسي للدولة العربية ، حتى أصبح هذان الإقليمان حقيقة المحورين الرئيسيين للحياة السياسية في العالم الإسلامي .

ولكن الثقفيين ، أبناء الطائف ، رفضوا القبوع في مدينتهم العريقة ، وشاءوا أن يكون لهمْ نصيب كبير في مجريات الأحداث في التاريخ الإسلامي ، فقاموا بدور بارز في الحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية . وقد اتصف الثقفيون بالعبقرية السياسية والعسكرية ، وبالذكاء والدهاء والفطنة[1] . فيروي ابن هشام[2] أن الرسول حين حاصر مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم إلى جيشه عُيَيْنه الفزاري ، لا لكي يقاتل ثقيفاً ، ولكنه كان يأمل أن يتم للرسول عليه الصلاة والسلام فتح الطائف فيصيب هو جارية يتبطنها ، لعلها أن تلد له رجلاً فطناً ، لأن ثقيفاً كما يقول « قوم مناكير » ، أي أنهم دهاة فطنون ، أما عيينه نفسه ، فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه .

وتحدث المستشرق (فلهوزن)[3] عن دهاء وفطنة الثقفيين ، فقال : ارتفع شأن الطائف ، كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الإسلام ، واتخذت الطائف من حيث هي مدينة ، موقفاً ممتازاً فوق عصبيات القبائل ، كما تجلى ذلك أيام الردة في سنة ١١ هـ ، وقد انضم الثقفيون من أول الأمر ، خلافاً للأنصار ، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة وخصوصاً إلى الأمويين ، وكان لهؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقفيون مشهورين بالدهاء والفطنة ، وقد أقاموا الدليل

(١) الخربوطلي : المختار الثقفي ص ٢٣ .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٨٨ .
(٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٠٧ .

على ذلك ، وقد برز منهم في عصر الأمويين عدد كبير من ذوي المواهب ، فكان منهم المختار الثقفي ومحمد بن القاسم ، وكثيرون غيرهم من الرجال المبرزين .

وكان اعتناق قبيلة ثقيف للإسلام سنة ٩ هـ ، نهاية لهذا التنافس التقليدي والتحاقد القديم ، فيما بينها وبين قبيلة قريش ، فقد آمنت القبيلتان بروح الإسلام التي تنهى عن العصبية القبلية ، وسقط النظامان السياسيان القائمان في مكة والطائف ، وأصبحت المدينتان جزءاً من الدولة الإسلامية ، التي كانت في سنة ٩ هـ حين إسلام ثقيف تشمل كل أرجاء الجزيرة العربية . وكانت المدينة المنورة ، باعتبارها العاصمة ، ومركز إقامة الرسول ، ثم خلفائه ، منافساً لكل من مكة والطائف من الناحية السياسية . وان تفوقت مكة من الناحية الدينية ، وبرزت الطائف في المجال الاقتصادي .

ومما يوضح التنافس والتباغض القديم الذي كان بين الطائف ومكة ، رواية للبلاذري فقد طمع الثقفيون في الإستيلاء على أموال المكيين في الطائف بعد فتح الرسول لمكة سنة ٨ هـ . ولكن تغيرت الأوضاع بعد إسلام ثقيف ، فيروي البلاذري[1] : «وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها فلما فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين وصارت أرض الطائف مخلافاً من مخاليف مكة » .

واهتم الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه ، بتنظيم الحياة الاقتصادية في مدينة الطائف ، وبتنظيم الضرائب المفروضة على الإنتاج الزراعي . فروى البلاذري[2] «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تخرص أعناب ثقيف كخرص النخل ، ثم يأخذ زكاتهم زبيباً كما تؤدى زكاة النخل» . كما روى البلاذري أيضاً «أن عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على الطائف كتب إليه أن أصحاب العسل لا يرفعون إلينا ما كانوا يرفعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من كل عشرة زقاق زق ، فكتب إليه عمر : إن فعلوا فاحموا لهم أوديتهم وإلا فلا تحموها ... وجعل عمر في العسل العشر» . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله بالطائف : أن في الخلايا صدقة فخذوها منها .

(١) فتوح البلدان ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق . أبو يوسف : الخراج ص ٧٦ .

وروى البلاذري[1] أن عمر بن الخطاب حين كتب إليه عامله بالطائف بلغت نظرة إلى كثرة بساتين الفاكهة الأخرى ، غير العنب ، وخاصة الرمان ، وطلب العامل من الخليفة أن يأذن له بأخذ العشر ، فرفض عمر ، وكتب إليه : ليس عليها عشر . ولا شك أن هذه السياسة الرشيدة في الضرائب كانت خير مشجع على تضاعف النشاط الاقتصادي في الطائف ، حتى أصبحت بستان بلاد الحجاز التي تمده بحاجته من الغلات الزراعية ، وخاصة الفاكهة .

وضع الرسول عليه الصلاة والسلام سنة حميدة في حكم الطائف ، فقد رأى أن يرضي مشاعر أهل الطائف ، فيولي أحد أبنائها الحكم ، وقد اختار عثمان بن أبي العاص ، الذي تصفه المصادر بأنه كان شاباً في الثلاثين من عمره ، يمثل الشباب المسلم الصالح ، إذ كان متفقهاً في الدين والعلم . وقد اختاره الرسول عليه الصلاة والسلام ، رغم انه كان أصغر زعماء ثقيف سناً .

روى المقريزي[2] أخبار عثمان مع الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : « فمكثوا – أي أعضاء وفد ثقيف – أياماً يفدون على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويخلفونه على رحالهم – وكان أصغرهم – فكان إذا رجعوا وناموا بالهاجرة خرج فعمد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الدين ، فاستقرأه القرآن وأسلم سراً ، وفقه وقرأ في القرآن سوراً » .

ونحن نعرف دقة عمر بن الخطاب في اختيار ولاته وعماله في سائر الأمصار ، فيحرص على اتصافهم بالكفاءة والعدل ، ونراه يتبع سياسة الرسول عليه الصلاة والسلام في اختيار ولاة وعمال الطائف من الثقفيين ، فيتحدث البلاذري[3] ، عن عامله سفيان ابن عبد الله الثقفي .

ولا شك في أنها سياسة حكيمة ، فالثقفيون بصفة عامة ذوو حضارة راقية ، فهم مجتمع زراعي ثري ، كما انهم خير من يحكمون مدينتهم نتيجة خبراتهم السابقة ومعرفتهم الواسعة بأحوال الطائف ومشاكلها ، كما سيكون أهالي الطائف أكثر طاعة

---

(١) فتوح البلدان ص ٦٩ .

(٢) المقريزي : امتاع الأسماع ص ٤٩٢ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٩ .

لهؤلاء الولاة الثقفيين ، فلا زالت سيادة ثقيف القديمة راسبة في العقول والنفوس ، وخاصة أن ثقيفاً قد أبدت اخلاصاً للإسلام ، وخاصة في حركات الردة أو في الفتوحات الإسلامية ، كما رأينا في الفصلين السابقين .

ونمضي مع الطائف ، ونجد صعوبة شديدة في البحث عن أخبارها في المصادر القديمة ، فهذه المصادر تعيش دائماً في العاصمة ، وتهمل غالباً سائر الولايات أو المدن وهي تعيش أيضاً مع الخلفاء وكبار السياسة والقادة . وان كان للطائف دور في تاريخ الدولة العربية ، ولكنه يتضاءل كثيراً أمام دور المدينة المنورة ، أو مدن العراق أو الشام .

ونقلب صفحات المصادر القديمة متلمسين أخباراً عن الطائف ، فنجد الطبري [١] يروي رواية عن الخليفة عثمان بن عفان ، إذ صلى بالمسلمين في منى أربع ركعات ، بدلاً من ركعتين ، وقد لامه عبد الرحمن بن عوف ، وذكره أن الرسول وأبا بكر وعمر قد صلوا ، وصلى عثمان معهم ، ركعتين . وقد برر عثمان ذلك بقوله : قد اتخذت بمكة أهلاً فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس ، وأخرى قد اتخذت بها زوجة ، ولي بالطائف مال فربما اطلعته فأقمت فيه بعد الصدر . فقال عبد الرحمن بن عوف : ما من هذا شيء لك فيه عذر ، أما قولك اتخذت أهلاً فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت ، وأما قولك ولي مال بالطائف فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف .

وخلال فتنة عثمان ، وحصار الثوار لداره ، وقف بعض الثقفيين إلى جانبه ، يدافعون عنه ضد الثوار . فيروي الطبري [٢] أن الثوار حين أحرقوا باب دار عثمان ، خرجت ثلاث جماعات تقاتل الثوار المحاصرين للدار ، وتزعم مروان بن الحكم إحدى هذه الجماعات ، وتزعم سعيد بن العاص الجماعة الثانية ، بينما تزعم المغيرة بن الأخنس ابن شريق الثقفي الجماعة الثالثة ، وقاتل المغيرة الثوار ، ولكنه لقي حتفه .

وقد استمر عثمان على سيرة سلفيه أبي بكر وعمر بن الخطاب في تولية الثقفيين المناصب الإدارية في الطائف ، فقد كان واليه بالطائف القاسم بن ربيعة الثقفي [٣] .

---

(١) الطبري حـ ٣ ص ٣٢٢ .

(٢) الطبري حـ ٣ ص ٤١٤ .

(٣) الطبري حـ ٣ ص ٤٤٥ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ٩٥ .

رغم أننا نعرف أن عثمان قد حرص على تولية الأمويين حكم معظم الولايات الإسلامية [١]
أما علي بن أبي طالب فقد ضم حكم الطائف إلى حكم مكة ، وولى عليهما ابن عمه قثم بن العباس [٢] .

ويحدثنا الطبري [٣] أن علي بن أبي طالب حين خرج إلى البصرة وما كان من موقعة الجمل ، ولقاء طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والسيدة عائشة ، كان جيشه يتألف من اثني عشر ألف مقاتل ، قسمهم إلى سبعة فرق ، وتولى قيادة فرقة قيس القائد سعد بن مسعود الثقفي ، وهو أخي عروة بن مسعود ، وأبي عبيد بن مسعود . وقد كافأه علي بن أبي طالب بعد ذلك على إخلاصه له ، فولاه حكم مدينة المدائن بفارس . وقد استعان علي بن أبي طالب به حينما خرج لقتال الخوارج فطلب منه أن يمده بالجنود [٤] .
وبعد مصرع علي بن أبي طالب ، والبيعة لابنه الحسن ، استمر سعد بن مسعود يحكم المدائن باسم الحسن ، وقد حاول المختار بن أبي عبيد ، حث عمه سعد على تحويل ولائه لمعاوية بن أبي سفيان ، فأبى سعد إلا الاستمرار على إخلاصه للحسن بن علي [٥] .
وهكذا تولى سعد بن مسعود قيادة فرقة من قيس في حرب الجمل ، ولكن قبيلة ثقيف لم تشترك في هذه الموقعة . فيروي ابن الأثير [٦] أن سعيد بن العاص اختلى بطلحة والزبير ، فسألهما : ان ظفرتما ، لمن تجعلان الأمر ؟ أصدقاني فأجابا : نجعله لأحدنا ، اننا أخناس الناس فقال سعيد : بل تجعلونه لولد عثمان فانكم خرجتم تطلبون بدمه . فقالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام ؟! وأيد المغيرة بن شعبة الثقفي رأي سعيد ابن العاص ، وقرر انسحاب ثقيف ، فقال : الرأي ما قال سعيد ، من كان ههنا من ثقيف فليرجع .

ثم قامت الدولة الأموية سنة ٤٠ هـ ، فبدأت مرحلة جديدة في الاتجاهات السياسية

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٤–١٥٥ ، تاريخ اليعقوبي ص ١٦٧ ، الدينوري : الأخبار الطوال ص ١٣٩ ، المسعودي : ص ٣٤٣ .
(٢) الطبري حـ ٤ ص ٦٩ .
(٣) الطبري حـ ٣ ص ٥١٣ .
(٤) الطبري حـ ٤ ص ٥٩ .
(٥) الطبري حـ ٤ ص ١٢٢ .
(٦) ابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ١٠٧ .

لقبيلة ثقيف . وأبرز ما يميز سياسة ثقيف في العصر الأموي أمران ، أولهما أن زعماء ثقيف جميعاً ، عدا المختار بن أبي عبيد الثقفي ، آثروا الولاء للبيت الأموي وأصبحوا من رجالات وعمد الدولة الأموية . أما الأمر الثاني ، فهو ارتباط تاريخ معظم رجالات ثقيف ببلاد العراق أكثر من ارتباطهم بالطائف . بينما سنرى ارتباط الطائف بأسرة مكية ، هي الأسرة العباسية ، التي تنتسب إلى البيت الهاشمي القرشي .

وترجع صلات ثقيف بالبيت الأموي إلى العصر الجاهلي وكثيراً ما خرج أبو سفيان ابن حرب إلى الطائف للتجارة وقد مر بنا ما ذكره الألوسي[1] ، حول تشبيه عداء النضر بن الحرث بن كلده الثقفي للرسول عليه الصلاة والسلام ، بعداء أبي سفيان ، كما مر بنا حديث الرسول الذي قال فيه : «قريش والأنصار حليفان ، وبنو أمية وثقيف حليفان» واستفادت ثقيف من خبرات أبي سفيان في تجارتهم مع العراق[2] .

وحينما أراد الرسول عليه الصلاة والسلام تحطيم وثن اللات في الطائف أعفى الثقفيين من تحطيمه بأيديهم ، وكلف بذلك المغيرة بن شعبة الثقفي وأبا سفيان بن حرب الأموي القرشي . وأراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان عليه ، فرفض أبو سفيان ، وقال : أدخل أنت على قومك[3] ومن الجدير بالذكر أن أبا سفيان فقد عينه خلال حصار الطائف سنة ٨ هـ بعد فتح مكة .

شهدنا قبيلة قريش تصبح صاحبة السيادة في مكة في العصر الجاهلي ، كما كانت قبيلة ثقيف صاحبة السيادة في الطائف . وعلا شأن قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب ، لكنهما لم يصلا إلى مرتبة قريش أو ثقيف في العصر الجاهلي ، نتيجة انشغالهما بالصراع المستمر بينهما . ولكن سبق الأوس والخزرج إلى الإسلام أدى إلى علو شأنهما ، وأصبح يطلق عليهما اسم (الأنصار) . وبدأ تنافس شديد بين الأنصار وقريش ، ولكن الرسول لم ينس فضل الأنصار فاتخذ من مدينتهم (المدينة المنورة) حاضرة للدولة .

وظهر التنافس بين قريش والأنصار حول السيادة السياسية ، بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصبحت سقيفة بني ساعدة مسرحاً لهذا التنافس الشديد ،

---

(١) الألوسي : بلوغ الأرب حـ ٢ ص ٣٣٥ .
(٢) المصدر السابق حـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٥ ، الطبري حـ ٢ ص ٣٦٥ .

ورشح الأنصار زعيمهم سعد بن عبادة ، بينما رشح المهاجرون القرشيون أبا بكر الصديق . وانتهى الحوار والجدال ، بالبيعة لأبي بكر ، وخروج سعد بن عبادة غاضباً إلى الشام[١] . ومما هو جدير بالذكر أن قبيلة ثقيف لم يكن لها ، مثل سائر القبائل دور في اجتماع السقيفة . ثم أصبحت القاعدة السياسية هي « الإمامة في قريش » .

وتضاءل شأن الطائف في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، فقد كانت للكوفة والبصرة والشام ومصر أبرز الولايات الإسلامية شأناً ، فهي موطن القوة الإسلامية ، كما أنها مصدر ثراء المسلمين ، لذلك عني بها الخليفة عناية خاصة أكثر من عنايته بمكة والطائف واليمن التي وان كانت تعد من الولايات الهامة إلا أنها لا تغل للدولة العربية كثيراً من الإيرادات المالية[٢] .

وكانت قريش تضم بيتين كبيرين متنافسين ، البيت الأموي ، والبيت الهاشمي . وكان العلويون أبرز بني هاشم في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين ودخل معظم الثقفيين في طاعة الفرع الأموي دون الفرع الهاشمي ، عدا سعد بن مسعود الثقفي وإلى المدائن بفارس ، وعدا المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي نبذ طاعة الدولة الأموية وبذل كل جهد في قتالها ، وظل مخلصاً لآل علي بن أبي طالب حتى مصرعه . أما سائر بني ثقيف ، مثل المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، ومحمد ابن القاسم ، ومحمد بن يوسف ، ويوسف بن عمر وغيرهم ، فكانوا من أبرز ولاة وقواد بني أمية وتمسكوا بولائهم دائماً للدولة الأموية[٣] .

كان قيام الدولة الأموية ، في ظروف صعبة قلقة ، في وقت انتشرت فيه الاضطرابات في الدولة ، وكثرت الفتن ، وازداد الأعداء . ورأى معاوية بن أبي سفيان أن يوطد دعائم دولته ، وأن يعتمد على ذوي الكفاءات الممتازة من رجالات الإسلام . ولم يقع فيما وقع فيه شيخ بني أمية السابق ، عثمان بن عفان ، حين جعل معظم ولاته من بني أمية ، بل رأى معاوية الاعتماد على أبناء قبيلة ثقيف ، فكان أبرزهم المغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه . وقد رأى معاوية عدم جدوى الاعتماد على بيت من بيوت قريش ،

---

(١) الطبري حـ ٢ ص ٤٥٥ وما بعدها ، وابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ٥٨

(٣) الخربوطلي : المختار الثقفي ص ٢٥ .

مما قد يثير التحاسد والتباغض كما استفاد مما كانت عليه ثقيف من حضارة ونبوغ ودهاء .

وكانت بلاد العراق هي موطن المعارضة لقيام الدولة الأموية واستمرارها ، فقد كانت بعض العناصر الفارسية ساخطة على الفتح العربي . كما كان أهالي العراق يطمعون في تحقيق نوع من الشخصية الذاتية ، بدافع من المشاعر القومية . وكان نقل علي بن أبي طالب عاصمة الدولة من المدينة بالحجاز ، إلى الكوفة بالعراق يرضي هذا الشعور القومي والوطني . كما أصبحت العراق أيضاً موطن الأحزاب المعارضة للأمويين ، وخاصة جماعات الشيعة والخوارج .

وقام ثقفيان بحكم بلاد العراق ، وهما المغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، فأرسيا دعائم الحكم الأموي ، وقبضا على ناصية العراق بقبضة من حديد وأصبح معاوية . وخلفاؤه من بني أميه ، يدينون لهذين الثقفيين بخلافتهم وسلطتهم .

ويتحدث فلهوزن[1] عن فضل الثقفيين على الدولة الأموية ، فيقول : قام معاوية ابن أبي سفيان طول مدة حكمه بمحاربة الروم في البر والبحر في همة ومن غير انقطاع ، مما لا نجده عند من جاء بعده ، وقد طرق أبواب عاصمة أعدائه ذاتها مرتين . أما مهمة توطيد سلطته في العراق بعد اخضاعها ، فقد تركها لولاته في الكوفة والبصرة . والروايات التي وصلت إلينا توجه اهتمامها إلى هؤلاء الولاة دون غيرهم ، وهي تقص علينا من أخبار المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه أكثر مما تقص من أخبار معاوية نفسه ، كما أنها تجعل عبد الملك بن مروان ، وهو من هذا الوجه شبيه بمعاوية ، متوارياً وراء الحجاج . وكان هؤلاء الولاة الثلاثة المشهورون ثقفيين كلهم ، فكانوا من الطائف ، تلك المدينة المرتفعة الجميلة الموقع ، على مقربة من مكة .

وإذا كنا نحرص على إبراز دور كل من المغيرة أو زياد أو الحجاج ، أو غيرهم من الثقفيين ، فإننا ننهج ما نهجه المؤرخون الأقدمون والمحدثون ، حين سلطوا الأضواء على هؤلاء الثقفيين النوابغ ، أكثر مما سلطوها على الخلفاء الأمويين الذين ولوهم . وكان هؤلاء الثقفيون في الحقيقة يمثلون حضارة الطائف ، ونبوغ ثقيف . وهكذا أصبحت

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية ص ١٠٧ .

ثقيف تمارس حكم الدولة العربية ، وقيادة جيوشها في الداخل والخارج ، كحقيقة واقعة واضحة . واعتمدت الأسرة الأموية على عقول وسيوف الثقفيين في توطيد دولتهم .

وارتبط تاريخ بلاد العراق بأبناء ثقيف ، فقد شهدت هذه البلاد أمجاد الثقفيين ، وأصبح تاريخها هو في الحقيقة تاريخ هؤلاء الثقفيين . فقد ساهم أبو عبيد بن مسعود وإبناه جبر والمختار وإخوته ، بجهودهم في فتح بلاد العراق ، ثم تولى المغيرة بن شعبة الثقفي حكم الكوفة فترة طويلة . كما حكم زياد بن أبيه – وينسبه معظم المؤرخين إلى ثقيف – البصرة والكوفة في عهد معاوية بن أبي سفيان ، ونجح في توطيد الحكم الأموي في بلاد العراق . وخلفه ابنه عبيد الله بن زياد . أما الحجاج بن يوسف الثقفي فقد برزت شهرته خلال حكمه لبلاد العراق في خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . وكان محمد بن القاسم القائد المشهور ، أحد قواد الحجاج بالعراق ، وقد بعثه لفتح السند . وتولى يوسف بن عمر الحكم في العراق في عهد الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك أما المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فقد نجح في أن يكون الرجل الأول في بلاد العراق منذ وفاة الخليفة يزيد بن معاوية وطوال عهد معاوية الثاني ومروان بن الحكم ، وصدر خلافة عبد الملك بن مروان [1] .

ولعل أبرز ما أحدثه المغيرة بن شعبة الثقفي في التاريخ الإسلامي هو اقتراحه على معاوية بتحويل نظام الخلافة من الانتخاب والشورى ، إلى نظام التوريث [2] .

وهناك شخصيات ثقفية أخرى ، لم تكن الأضواء التي انعكست عليها في كتب التاريخ باهرة . والبلاذري [3] يحدثنا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي الذي ولاه الخليفة عمر بن الخطاب حكم البحرين وعمان سنة ١٥ هـ ، فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ، كما وجه أخاه الآخر المغيرة إلى خور الديبل ، ونجح في فتح هذه الجهات . كما يحدثنا البلاذري [4] أيضاً عن جهود القاسم بن ربيعة بن أمية بن أبي الصلت الثقفي ، الذي ولاه

(١) الخربوطلي : المختار الثقفي ص ٢٥-٢٦ .
(٢) اليعقوبي حـ ٢ ص ١٩٦ . وابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٦٨ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٢٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٠٧ .

عثمان بن عفان ولاية أرمينية ، وهذا يؤكد تقدير عثمان لبني ثقيف ، رغم اتجاه عثمان غالباً لتولية الأمويين حكم الولايات .

٤ ـ رجالات ثقيف في العصر الأموي

لسنا ، في هذا الفصل ، في صدد الترجمة لرجالات ثقيف في العصر الأموي . ولكننا نريد أن نقدم أمثلة عملية تطبيقية لما ذكرناه في الفصل السابق فقد ذكرنا أن الدولة الأموية قامت ، منذ نشأتها وطوال عصرها على عقول وسيوف الثقفيين . ولولا عضدي الدولة الأموية ، المغيرة وزياد ، لما نجح معاوية في توطيد دعائم حكمه ، وخاصة في بلاد العراق ، موطن المعارضة . وقد رأينا المغيرة صاحب فكرة تحويل الخلافة إلى نظام التوريث . وسنرى الحجاج السيف الأول لبني مروان . وسنلمس جهود القائد العظيم محمد بن القاسم في ميادين الجهاد والفتوح . وسنشاهد المختار ، الذي كانت حركته من عوامل سقوط الدولة الأموية ، فضلاً عن تأثيره في التاريخ السياسي والمذهبي للدولة .

ولنبدأ بالحديث عن المغيرة بن شعبة[١] ، ونحن نكتفي بذكر دوره البارز المميَّز في تاريخ الدولة العربية . اعتنق المغيرة الإسلام قبل قومه ، في سنة ٦ هـ ، وقد رأيناه يستقبل وفد الطائف سنة ٩ هـ ، ويكلفه النبي عليه الصلاة والسلام بهدم الوثن اللات ، واشترك في فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب ، وولاه عمر حكم البصرة بعد وفاة أول وال لها وهو عتبة بن غزوان فنظم ديوانها ، وفتح ميسان والأهواز ، وشهد موقعة نهاوند . ثم عزل عن حكم البصرة ، ولكنه عاد إلى حكم الكوفة بعد فترة قصيرة سنة ٢١ هـ . وفي عهده تمت فتوحات بلاد ميديا وأذربيجان[٢] . ويروي المؤرخون أن

(١) تعتني المصادر القديمة بأخبار المغيرة ، وتمدنا بتفاصيل كثيرة عن صفاته الجسمانية والأخلاقية . فتصفه بأنه كان طويل القامة جسيماً وكان قد فقد في الحرب إحدى عينيه وإحدى ذراعيه ، وكان ضخم الهامة ، أقلص الشفتين ، أصهب الشعر . وتذكر المصادر أيضاً أن المغيرة طرح خاتمه في قبر الرسول عند دفنه وقبل أن يهال فيه التراب ، حتى يكون آخر من لمس الجثمان الطاهر . كما تتحدث المصادر عن حبه للنساء .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٤ .

المغيرة كان أول من اقترح على عمر بن الخطاب أن يتخذ لقب (أمير المؤمنين) ، وكان المسلمون ينادونه من قبل باسم (خليفة خليفة رسول الله) [1] .

كان المغيرة من دهاة العرب الأربعة ، أما الدهاة الثلاثة الآخرون فهم : معاوية بن أبي سفيان ، وزياد بن أبيه ، وعمرو بن العاص . وهكذا أصبح ثقفيان يمثلان النصف من هؤلاء الدهاة . وقد تحدث السيوطي [2] عن دهاء المغيرة فقال : « فلو أن المدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلها » . وكان العرب يستخدمون تعبير « داهية » بمعنى « عبقري » .

وإذا كان العرب القدامى سموا المغيرة « داهية » ، وإذا كنا نحن نصف المغيرة بالطموح ، فقد اتهمه المستشرق (فلهوزن) [3] بالوصولية وحاول إثبات ذلك . فيقول : أثبت المغيرة وصوليته وطموحه ، فحاول أن يوهم الناس أنه من سادة الأرستقراطية الإسلامية ، فكان يحضر الأمور الكبيرة وأمور الدولة . مثل جماعة الشورى التي عينها عمر ، ومثل محكمة المحكمين في دومة الجندل من غير أن يدعى لذلك ، فإذا منع من حضور الأمر مرة جاء دون حرج في المرة التالية . وكان بمقدار ما كان عليه من جراءة وورع ، يدعي أنه يستطيع أن يتكلم عن الإسلام مع الفرس المسلمين أحسن من غيره . وكان يختار ليبعث رسولاً ومفاوضاً ، وكانت معرفته بلسان الفرس تهيئه لذلك . أما المنصب الذي كان يطمح إليه ، فقد وصل إليه في البصرة أولاً ، وذلك أنه ذهب مع عتبة بن غزوان ، أول وال عليها ، وكانت امرأة عتبة من الطائف ، فلما مات عتبة خلفه المغيرة على البصرة . وقد نظم الديوان في البصرة ، فكان بذلك أسبق من غيره . وشهد موقعة نهاوند . وفي سنة ٢١ هـ جاء إلى الكوفه خلفاً لعمار بن ياسر ، وقام بفتح بلاد ميديا (الجبل) وأذربيجان . وكان أبو لؤلؤة قاتل عمر ، غلاماً للمغيرة . أما في عهد عثمان ، فقد انحدر المغيرة إلى المحل الثاني ، إذ لم يكن من الأمويين الذين تولوا المناصب . ولم يشترك المغيرة في الثورة ضد عثمان . وأشار على علي

(١) قال المغيرة لعمر : يا خليفة الله . فقال عمر : ذاك نبي الله داود . قال : يا خليفة رسول الله . قال : ذاك صاحبكم المفقود . قال : يا خليفة خليفة رسول الله . قال : ذاك أمر يطول . قال : يا عمر ! قال : لا تبخس مقامي شرفه ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٣٦ .

(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص ١٠٨-١٠٩ .

ابن أبي طالب بأن يولي معاوية على الشام ، فلما رفض علي ، انصرف المغيرة إلى معاوية وقدره معاوية ، فولاه حكم الكوفة .

وهكذا لم يجد (فلهوزن) في هذا العرض السريع الموجز ، للشطر الأول من حياة المغيرة بدا من أن يعترف بنبوغه وعبقريته . فهو رجل سياسة ، وكثيراً ما نجد السياسة ، في كل زمان ومكان ، لا تلتزم كثيراً بالأخلاقيات وبالمثل العليا[1] ، وان كنا نحن نرى «إنما الأمم الأخلاق ما بقيت» .

وتبدأ المرحلة السياسية الثانية من حياة المغيرة حين أصبح والياً على الكوفة بعد قيام الدولة الأموية . وهي مرحلة متميزة . فقد تقدمت بالمغيرة السن وأراد حياة الهدوء والدعة ، بحيث يجني ثمار جهود السنوات الطويلة الماضية . فقد اتبع المغيرة سياسة اللين حيث كان يجب أن يتخذ الشدة . ويرى لامنس[2] أن المغيرة لو كان أصغر سناً لما تردد في مواجهة الصعوبات بالقوة ، ولكن حب المغيرة للعافية ، نتيجة كبر سنه ، أنساه أنه خاضع للأمويين .

ولكن مهمة المغيرة في الكوفة كانت صعبة عسيرة ، فقد كان عليه تدعيم سلطة الدولة الأموية في إقليم اشتهر بإثارة الثورات[3] . وقضى المغيرة سنوات ولايته في إخماد ثورات الخوارج والشيعة[4] . وقد سار المغيرة على نهج الأمويين في معاداة الشيعة والعلويين ، فكان يسب علي بن أبي طالب من فوق المنابر ويلعن قتلة عثمان ويترحم عليه ويمتدحه[5] .

وإن كانت الكوفة قد ارتاحت لسياسة اللين التي اتبعها المغيرة ، إلا أنها لم ترض معاوية ، الذي كان يريد واليه أكثر حزماً وعزماً . كما غضب رجالات قريش على سياسة هذا الوالي الذي ينتسب إلى ثقيف ، ووصف المغيرة من انتقده من رجالات قريش

---

(١) يصف بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية حـ ١ ص ١٤٥) المغيرة بأنه «رجل انتهازي لا ذمة له ولا زمام» .

(٢) Etudes sur les Siècle des Omayyades

(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية حـ ١ ص ١٤٥ .

(٤) أنظر تفاصيل مواجهة المغيرة لثورات الخوارج والشيعة في كتاب تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي للدكتور علي حسني الخربوطلي ص ٨٠ وما بعدها .

(٥) الأصفهاني : الأغاني حـ ١٦ ص ٦٠٢ .

بأنهم «سفهاء قريش»[1] ولم يجد المغيرة ما يرضي به معاوية سوى اقتراحه بالبيعة بولاية العهد لابنه يزيد، فأبقاه معاوية على حكم الكوفة، فظل يحكمها حتى مات.

ولنرى ثقفياً آخر يحكم بلاد العراق كلها، ويصبح الرجل الثاني في الدولة الأموية بعد معاوية، وهو زياد بن أبيه، وهكذا أصبحت ثقيف شريكة حقيقية لقريش في حكم الدولة العربية.

كان مولد زياد في الطائف، في السنة الأولى للهجرة[2]. وكان يسمى باسم أمه سمية، لأن أباه كان مجهولاً، لكن الإسلام - كما يقول فلهوزن[3] - فتح له طريق الحياة، وتعلم زياد في كتاب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب. ثم اعتنق الإسلام عندما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة. واشترك في فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص، فكان يقسم الغنائم، ونال اعجاب عمر بن الخطاب وسائر الصحابة. ولما مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها فيمن نزلها من ثقيف واتخذها مقراً معظم حياته.

لم يشترك زياد في الثورة التي قامت ضد عثمان، أو في الفتن في عهد علي بن أبي طالب، مما أدى إلى رضا علي عنه، فولاه خراج البصرة وبيت مالها، وأصبح من أشد ولاة علي إخلاصاً له، وقد حافظ على ولائه وإخلاصه إلى أن انتهت حياة علي، وتولى معاوية الخلافة[4].

نجح زياد في توطيد الأمن في فارس، متبعاً سياسة المداراة واللين حيناً، والدهاء وضرب أعدائه بعضهم ببعض حيناً آخر، حتى صفت له فارس من غير حرب[5].
فقال أهل فارس عنه: ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي.

وبذل معاوية كل جهد ليصبح زياد من رجالات بني أمية، وليستفيد من دهائه

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٢ ص ٨٣.
(٢) كانت أمه (سمية) وهي فارسية الأصل، وهي مولاة الحارث بن كلدة - المعروف بطبيب العرب.
(٣) فلهوزن: الدولة العربية ص ١١٣.
(٤) الخربوطلي: المختار الثقفي ص ٣٢.
(٥) فلهوزن: الدولة العربية ص ١١٣.

وعبقريته وأصر زياد على ولائه السابق لعلي بن أبي طالب . وتدخل المغيرة بن شعبة بين زياد ومعاوية ، وقام بدور الوساطة . وأعلن معاوية أن زياداً أخاه ، وأن أباه الحقيقي هو أبو سفيان[١] . وبرر معاوية ما أقدم عليه للناس فقال : «إني لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقاً فوضعته موضعه»[٢] وأصبح يطلق على زياد اسم (زياد بن أبي سفيان) ، ولكن عامة الناس امتنعت عن تسميته بهذا الاسم ، وسخرت من هذا الاستلحاق ، واعتبرته مخالفاً للدين .

وصف ابن طباطبا[٣] زياداً بقوله : «وكان زياد أحد الدهاة ، عظيم السياسة ، قوي الهيبة ، صحيح العقل ، سديداً ، شهماً ، فطناً ، بليغاً» .

وقال المرحوم الأستاذ العبادي[٤] عن زياد : إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسة ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف . وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار .

ولى معاوية زياداً على حكم البصرة ، وضم إليه خراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند (أي ثغر الأبله وملحقاتها) والبحرين وعمان ، وحكم زياد البصرة «بقبضة من حديد»[٥] ، وبنى مدينة «الرزق»[٦] واستعان في الحكم بعدد من أصحاب الرسول[٧]

---

(١) يقول الدينوري (الأخبار الطوال ص ٢٣٣) عن معاوية أنه : «زعم للناس أنه – أي زياد – ابن أبي سفيان ، وشهد له أبو مريم السلولي ، وكان في الجاهلية خماراً بالطائف ، أن أبا سفيان وقع على سمية بعد ما كان الحارث أعتقها» .

(٢) الطبري حـ ٦ ص ١٢٦ .

(٣) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٢ .

(٤) صور من التاريخ الإسلامي ص ١٢٧ .

(٥) Nicholson: A Literary Hist. of the Arabs, p. 195.

(٦) الطبري حـ ٦ ص ١٣٦ .

(٧) الطبري حـ ٦ ص ١٣٧ .

وقسم البصرة إلى خمسة أقسام ، ليتيسر حكمها ، وسماها بأسماء القبائل التي سكنتها ، وحد من نفوذ هذه القبائل ، وانتشر الرخاء في أرجاء البصرة نتيجة هذه السياسة الحكيمة (١) .

وبعد وفاة المغيرة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية إلى زياد حكم الكوفة ، فكان أول من جمع له مصري العراق . ونجح زياد في إخماد ثورات الخوارج والشيعة ، ونشر الأمن والطمأنينة في ربوع العراق . كما اهتم بالجوانب الاقتصادية ، وكان يحتفظ بجانب كبير من الخراج ولا يرسله إلى معاوية ، فيقسمه بين جنده وسائر الناس (٢) . ولزياد اصلاحات اجتماعية عظيمة ، فقد أحسن معاملة الموالي (أي المسلمين من غير العرب) ، وجعل كتاب الخراج منهم (٣) . ونجح في القضاء على العصبية القبليه ، وأضعف سلطة القبائل ، ونصب نفسه فوق جميع القبائل والعشائر . واهتم زياد أيضاً بالبناء والتعمير ، فبنى بالبصرة دار الإمارة ، وجدد مساجدها ، ووسع مسجد الكوفة ، وعني بنظافة العراق ، واهتم بالصحة العامة (٤) .

وعرف معاوية قدر زياد ، فسمح لنفوذه أن يتسع وينتشر ، حتى أصبح يحكم النصف الشرقي من الدولة الإسلامية (٥) . وشعر زياد بفضله على معاوية فكتب اليه بتفاخر : «يا أمير المؤمنين ، دوخت لك العراق ، وجبيت لك برها وبحرها وغثها وسمينها ، وحملت اليك لبها وقشورها» (٦) ، ويرى فلهوزن (٧) أن زياداً اكتسب احترام أهل العراق ، فنجح في نشر الأمن الذي لم تعرفه العراق قبل حتى خلال الحكم الفارسي ، بل لم تعرفه صحراء بلاد العرب نفسها .

وأنجبت ثقيف شخصية أخرى عظيمة ثالثة ، هي شخصية المختار بن أبي عبيد الثقفي . وقد وضع الدكتور علي حسني الخربوطلي كتاباً قيماً عن هذه الشخصية الفريدة نستفيد منه في هذا البحث .

---

(١) الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ٩٢ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص ٥٨ .

(٣) اليعقوبي ، حـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٤) الخربوطلي : تاريخ العراق ص ٩٤ .

(٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية حـ ١ ص ١٤٧ .

(٦) الجهشياري : الكتاب والوزراء ص ٢٧ .

(٧) فلهوزن : الدولة العربية ص ١١٤ .

والمختار أحد رجالات العرب المبرزين ، فقد لعب دوراً كبيراً أثر في الأحداث السياسية والحياة الدينية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في العصر الأموي وأثر فيها أثراً ظاهراً لم ينقطع بانتهاء حياته سنة ٦٧ هـ ، بل ان سياسة المختار قد أثرت آثاراً عميقة واضحة في الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي ، وخاصة بلاد العراق وفارس وخراسان والحجاز ، فقد أحيا المختار في نفوس الموالي[١] آمالاً عريضة عملوا على احيائها طوال العصر الأموي واستطاعوا أن يدفعوا العباسيين إلى العمل على إسقاط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ كما أثر المختار في تاريخ أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والتوابين . ونجح المختار في أن يكون الرجل الأول في بلاد العراق ، منذ وفاة الخليفة يزيد بن معاوية إلى أوائل خلافة عبد الملك بن مروان[٢] .

وتتمثل في شخصية المختار جوانب عديدة ، فهو أحد أبناء ثقيف ، القبيلة العربية المجيدة ، وهو السياسي المحنك ، فقد أدار دفة السياسة في الحجاز والعراق ، ووضع في العراق أسس حكومة منظمة عادلة ، وبرز في ميدان الحكم والإدارة . كما كان قائداً حربياً عظيماً أثبت كفاءته في شتى الميادين الحربية .

والمختار شيعي متحمس ينصر البيت العلوي وبني هاشم ، فنراه يفتح باب داره أمام مسلم بن عقيل بن أبي طالب مبعوث الحسين بن علي إلى العراق ثم نراه وزيراً لعبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في الحجاز . ثم يرحل المختار إلى العراق ليصبح الرجل الأول ويعلن أنه وزير محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بابن الحنفية ، ويأخذ بثأر الحسين من قتلته .

ويصف الدكتور الخربوطلي[٣] المختار بأنه (مرآة العصر الأموي) لأن تاريخه في الحقيقة هو تاريخ الأحزاب السياسية والفرق الدينية في ذلك العصر . فقد أثر في تاريخ الحركة الزبيرية وكان عاملاً من عوامل اخفاقها ، كما لعب دوراً كبيراً في ضياع بلاد العراق والحجاز من قبضة الدولة الأموية فترة طويلة .

وتاريخ المختار يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ حزبي الشيعة والخوارج ، فقد

---

(١) الموالي : المسلمون من غير العرب .

(٢) من مقدمة كتاب (المختار الثقفي) للدكتور الخربوطلي .

(٣) المختار الثقفي ص ٥ .

اصطدمت حركة المختار بحزب الخوارج ، كما أثر المختار في مصير حركة التوابين الشيعية بالعراق ، وكان وزيراً للعلويين بالعراق وممثلاً لهم ، ونصيراً لبني هاشم بالحجاز .

وينتسب إلى المختار فرقتان كبيرتان من فرق الشيعة هما الكيسانية والمختارية . وقد تفرع عن الكيسانية فرقة الهاشمية التي لعبت دوراً رئيسياً في قيام الدولة العباسية ، كما أن المختار هو الذي بث روح القوة والحياة في حزب الموالي فقد رفع من شأنهم وأنصفهم ودافع عنهم وبث فيهم آمالاً وطموحاً ، وعمل على تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وحرص الموالي على هذه الحقوق طوال العصرين الأموي والعباسي .

لم يكن المختار يميل إلى أي نوع من العصبية ، سواء القبلية أو الجنسية ، ورغم اهتمامه بالموالي ، إلا أنه لم يهمل العرب فكان يحارب الأمويين كما قال أبو مخنف « بشجاعة العرب وعداوة العجم » . وحفظ التوازن بين العرب والفرس ، ويرى المؤرخون أن الأمويين لو كانوا قد ساروا سيرة المختار لما سقطت دولتهم .

وكان المختار عادلاً ، ووضع أسس حكومة فعدل بين الناس ، وساوى بين الجميع . وكان متسامحاً مع أعدائه ، مخلصاً لأصدقائه . وكان « صائم نهاره قائم ليله[1] ، متديناً ورعاً ، كريماً سخياً ، خطيباً مفوهاً » .

ويرى الدكتور الخربوطلي[2] ، أن المختار كان سابقاً لعصره ، فكان يميل إلى الزراعة وفلاحة الأرض ، وخالف في ذلك معاصريه العرب الذين امتهنوا الحرب والحكم وتركوا الزراعة والحرف للموالي . وكان المختار على دراية بعلم النفس ، والإلمام بوسائل الدعاية والإعلام . فكان يخاطب نفوس الناس ، كما يخاطب عقولهم ، وكان لا يكتفي بوسائل الدعاية المعروفة حينئذ كالخطابة والشعر . بل لجأ إلى وسائل كثيرة للدعاية . ومنها التمثيل ، والمظاهرات ، والإشاعات . كما لجأ إلى ما نسميه الآن بالانقلاب العسكري حينما انتزع الكوفة من ولاة ابن الزبير . وإلى حرب العصابات حينما قتل مصعب بن الزبير . وسبق المختار (ابراهام لنكولن) في العمل على تحرير الرقيق .

---

(١) الطبري حـ ٧ ص ١٥٧ .

(٢) المختار الثقفي ص ٤٣ .

ويرى المؤرخ (فلهوزن)[1] أن المختار خليق بالمديح لكونه كان أسبق من غيره في إدراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هي ، فقد كان العنصر العربي هو وحده يتمتع بالحقوق المدنية كاملة ، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي لكان منقذ الدولة العربية .

وهكذا كان المختار عبقرية سياسية ، وإدارية ، وعسكرية ، وأثر في الحياتين الاجتماعية ، والاقتصادية تأثيراً عميقاً واضحاً . فقد أحدث ثورة في نظم الاجتماع والاقتصاد ، وبث في الموالي والرقيق آمالاً قومية ، تمسكوا بها ، وسعوا إلى الحصول على المزيد . ولو لم يكن المختار ينتسب إلى ثقيف لسعت إليه الخلافة ، ولكن المسلمين تعارفوا على أن « الإمامة في قريش » .

وصف فلهوزن[2] الموقف بعد مصرع المختار ، فقال : ولما تولى الحجاج الثقفي حكم العراق ، كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت هذه البلاد تضطرب كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة . وقد أخمدت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم اليهم من الموالي بقيادة المختار الثقفي ، ولكنها خلفت في النفوس ناراً متوقدة . ويرى (فلهوزن) أيضاً أنه كانت هناك علاقات وثيقة بين ما قام به المختار ، وما قام به أبو مسلم الخراساني ، الداعي العباسي .

وكان المختار الثقفي معاصراً لثقفي عبقري آخر ، هو الحجاج بن يوسف الثقفي . ولكن الثقفيين اختلفا تماماً في الشخصية والاتجاهات السياسية ، كما اختلف موقفهما من الدولة الأموية ، فقد أصبح المختار العدو اللدود لها ، بينما أصبح الحجاج من رجالات الأمويين البارزين . ويذكر (فلهوزن)[3] أن الحجاج عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدولة ، وكان عند الحجاج من الشجاعة ما جعله يصرح باعجابه به .

ظهر المختار دائماً بشخصية ذاتية مستقلة ، فلم يحاول أن يقلد أحداً أو يحاكي إحدى الشخصيات المعاصرة . أما الحجاج فقد تشبه بزياد بن أبية ، وهو ثقفي مثله ،

---

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٥٣ .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٢٨٤ .

(٣) تاريخ الدولة العربية ص ٢٤٧ .

وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب ، ولكن الحجاج أخفق في ذلك . وقد عرف زياد كيف يمسك زمام القبائل فضرب بعضها ببعض وسيرها لصالحه وحكم العراق بدون أن يستعين بجند الشام ، ولكن الحجاج أكد سلطانه بحكومة لا تمت بصلة إلى العراق مما أدى إلى ازدياد كراهية العراق للشام[١] .

يرى المستشرق (وليم ميور)[٢] أن الحجاج كان «الصورة المجسمة للقسوة» ، ويرى أيضاً أن الحجاج وان كان قد حفظ بشجاعته وعزمه الحكم الأموي للعراق ، وأخمد ثورة العناصر المشاغبة ، فاننا لا يمكننا إلا أن نلومه على سفك الدماء ، وعلى قسوته البالغة .

هذا بينما يبرر مستشرق آخر هو (سيديو)[٣] قسوة الحجاج ، فيذكر أن أهل العراق كانوا دائماً مستعدين لكل ثورة ، فأراد الحجاج أن يثبت حكم الشام حتى تظل دمشق عاصمة البلاد الإسلامية ، ويبرر المؤرخ العربي المعاصر الدكتور فيليب حتي[٤] قسوة الحجاج برغبته في إقرار النظام في البصرة والكوفة وفارس .

أصبح الحجاج الثقفي عضد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، فقد نجح في القضاء على أخطر حركة ثورية واجهتها الدولة الأموية ، وهي حركة عبد الله ابن الزبير ، الذي بايع لنفسه بالخلافة في مكة ، ونجح في مد نفوذه إلى الغالبية العظمى من الأمصار الإسلامية ، حتى انكمش النفوذ الأموي في اقليم صغير هو اقليم الأردن[٥] .

وقد بذل الحجاج كل الجهود لتوطيد أركان الدولة الأموية غير عابئ بإثارة مشاعر جماهير المسلمين ضده . فلم يجد حرجاً في أن يقذف الكعبة بأحجار المنجنيق خلال حصاره لابن الزبير في مكة[٦] كما لم يجد الحجاج بأساً في الإسراف في الدماء

(١) الخربوطلي : المختار الثقفي ص ٦٣–٦٤ .

(٢) Muir: The Caliphate, p.357

(٣) سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٧٣ .

(٤) حتي : تاريخ العرب ص ٢٧٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٦١–٦٢ .

(٦) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٧–٨ ، العمري : مسالك الأبصار حـ ١ ص ٩٥ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٩–٣٠ .

ليوطد الحكم الأموي في العراق ، فكان أموياً أكثر من الأمويين . وان الخليفة عبد الملك بن مروان قد حثه على ذلك إلا أن هذا لا يبرر ما أقدم الحجاج عليه[1] وجند الحجاج أهالي العراق بالقوة[2] ، وبعث بهم إلى مجاهل فارس وتركستان تحت ستار الفتح ، وهو يريد شغلهم عن السياسة الداخلية[3] . فقال الحجاج « يا أهل العراق ، اني لم أجد لكم دواء أدوي لدائكم من هذه المغازي والبعوث لولا طيب الاياب وفرحة القفل فانها تعقب راحة ، واني لا أريد الفرح عندكم ولا الراحة بكم »[4] ولم يشعر الحجاج في العراق بالأمان والاطمئنان فاضطر إلى بناء مدينة (واسط)[5] أقام فيها مع جنده الأمويين ، وتخير سكانها[6] ، فأصبحت بقعة أموية تقوم في وسط العراق[7] .

وأدت مظالم الحجاج السياسية والإدارية والاقتصادية ، إلى قيام ثورات متعددة ضده ، منها ثورات الخوارج والموالي . وأبرزها ثورة عبد الله بن الجارود ، وهي ثورة عراقية تعبر عن آلام وآمال أهالي العراق ، ولقيت هذه الثورة تأييداً شعبياً من عناصر السكان المختلفة في العراق[8] . ومن هذه الثورات أيضاً ، ثورة عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث التي تمثل غضبة موالي العراق ، وقد سمى نفسه « ناصر المؤمنين »[9] . وهي أيضاً حركة انفصالية قام بها أهالي العراق ضد الشام ، فهي ليست موجهة إلى الحجاج فحسب ، بل إلى الدولة الأموية بأسرها[10] .

والحق أن ثورة ابن الأشعث كانت وليدة لعوامل كثيرة ، منها طبيعة الرجال

---

(١) روى ابن قتيبة (الامامة والسياسة ﺣ ٣ ص ٣١) أن عبد الملك قال للحجاج : « سر إلى العراقيين واحتل لقتلهم فإنه قد بلغني عنهم ما أكره » ، كما روى اليعقوبي في تاريخه (ﺣ ٣ ص ١٨) أن عبد الملك قال للحجاج : « فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل منها أهل البصرة » .

(٢) ابن الأثير : الكامل ﺣ ٤ ص ١٥٦ .

(٣) سيديو : تاريخ العرب العام ص ٧٧ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ﺣ ٤ ص ١١٩ .

(٥) سميت (واسط) بهذا الاسم لأنها تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة (اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٢٢ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ﺣ ٨ ص ٣٨٣ .

(٧) الخربوطلي : تاريخ العراق ص ٣٠١-٣٠٢ .

(٨) ابن الأثير : الكامل ﺣ ٤ ص ١٩٨ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ﺣ ٣ ص ٤١٦ .

(٩) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٧٢ .

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السابع ص ٣١٥ .

الذين عاصروها . فكان هناك من جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع نسبه إلى ملوك كنده ، فكان يشعر أن دم نجد القديم يجري في عروقه . وكان هناك من جهة أخرى الحجاج بن يوسف ، من ثقيف بالطائف ، رجلاً ليس من علية أشراف العرب ، لكنه كان والياً من ولاة الدولة ، يفهم حاجات الدولة من ثبات السلطان وإقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة في الداخل ونحو الخارج . وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق ، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هانئة ، يفخرون بثراء بلادهم وخصبها ، ويضمرون في أنفسهم شيئاً من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوي العيش الضنك ، وشيئاً كثيراً من الغيرة منهم والمقت لسيادتهم السياسية ، والاستهانة بقدرهم ، ويطمحون للرئاسة أو الاستقلال ، ويتعلقون بكل ثائر على سلطان أهل الشام أياً كان[1] .

ولكننا في نفس الوقت ، نرى من واجبنا الإشارة إلى محامد الحجاج ، فقد ساهم مساهمة فعالة في تعريب دواوين العراق من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية[2] ولقي في ذلك مقاومة عنيفة من الفرس ، نجح الحجاج في التغلب عليها وقضى الحجاج بذلك على آخر مظهر من مظاهر الأعاجم[3] كما سك الحجاج عملة عربية إسلامية نقش عليها « قل هو الله أحد »[4] .

ومسح الحجاج أراضي العراق ، وسجلها في سجلات جديدة باللغة العربية ، باعتبارها اللغة الرسمية للدولة ، ومنع أي محاولات للتلاعب في مساحة الأراضي ، أو في الضرائب المفروضة عليها ، وأبطل السجلات الفارسية القديمة التي ترجع إلى عهود الأكاسرة الساسانيين ، كما تخلص الحجاج من الموظفين الفرس[5] .

وقام الحجاج بإصلاحات اقتصادية كبيرة في العراق ، فزاد من رقعة الأراضي

---

(١) من حاشية للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده في كتاب تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) الجهشياري : الكتاب والوزراء ص ٣٥ .

(٣) كرد علي : الإدارة الإسلامية ص ٨٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٧٣ .

(٥) Sykes: Hist. of Persia, V. I, p. 550.

الزراعية . وأقام الجسور . وحفر الترع . وجفف المستنقعات [1] . ومنع ذبح البقر لتوفير الحيوانات اللازمة للحرث وأعمال الزراعة [2] .

ولكن مظالم الحجاج انعكست على قبيلة ثقيف . التي ينتسب اليها . فيقول الدكتور جواد علي [3] : وفي رأيي أن معظم الروايات التي يرويها الاخباريون عن (ثقيف) ، الجد الأكبر للقبيلة ، قد وضعت في الإسلام . بغضاً للحجاج الذي عرف بقسوته وشدته . فصيروا ثقيفاً عبداً لأبي رغال ، وجعلوا أصله من قوم نجوا من ثمود ، وأبو رغال نفسه جاسوس خائن في نظر الاخباريين . حاول ارشاد أبرهة إلى مكة ، فكيف يكون اذن حال رجل من قوم فسقة كفرة ، ثم صار عبداً لجاسوس لئيم ! !

ولنرى ثقيفاً نابغاً آخر ، من نوعية أخرى ، فقد اتفق الثقفيون في العبقرية والنبوغ ، ولكنهم اختلفوا في الاتجاهات والأهداف . فنتحدث عن محمد بن القاسم الثقفي الذي يشير المرحوم الأستاذ العبادي [5] إلى عبقريته فيقول : لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية فتش في ثنايا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتى الشهيد ، والفاتح العظيم ، والشاعر الحساس . محمد بن القاسم الثقفي . الذي شرع في غزو السند في السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين . فأدخل بذلك في الهند الثقافة الإسلامية التي يدين بها في الوقت الحاضر ملايين كثيرة . انها شخصية تجمع إلى صغر السن حكمة الكهولة ، وإلى خشونة الجندي رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم ، وكل صفات اتصفت بها العرب في نهضتهم التاريخية الكبرى التي هزت العالم القديم فأيقظته من سباته ، ورسمت للتاريخ مجرى جديداً .

كان مولد محمد بن القاسم في سنة ٧٣ هـ ، واشتهر منذ شبابه بإجادة الفنون العسكرية ، والأدب . وكان الأمويون قد اتجهوا إلى سياسة معاودة الفتوحات الواسعة

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٩٨ ، الجاحظ : البيان والتبيين حـ ٣ ص ٣٣٥ .

(٢) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٩٥ .

(٣) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٤ ص ١٥٠ .

(٤) العبادي : صور من التاريخ الإسلامي ص ١٤٥ .

شرقاً وغرباً ، وفي وسط آسيا ، وفي شمال أفريقية ، وفي جنوب أوروبا . وأراد الحجاج أن يكون لثقيف نصيب في أمجاد هذه الفتوح ، فاختار ثقفياً هو محمد بن القاسم لفتح السند .

وكتاب فتوح البلدان للبلاذري[1] حافل بأخبار فتوح السند ، وتوضح هذه الأخبار جهود محمد بن القاسم ، ونبوغه العسكري .

ومن أبرز الكتب التي تتناول فتوح السند ، كتاب (العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين) للمؤرخ الهندي المسلم المعاصر أبي المعالي أطهر المباركبوري[2] . وهذا المؤرخ يبرز دور قبيلة ثقيف في فتوح السند[3] . فقد شارك كثير من القادة والجنود الثقفيين في هذه الفتوح والمؤرخ الهندي يشيد باخلاص ثقيف للإسلام . وفي عنوان كبير يتحدث المؤرخ عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ويكتب عنه أنه « من خيار الصحابة ، غزا ثلاثة من بلاد الهند »[4] ثم يقول هذا المؤرخ : « وأما غزوة عثمان في الهند ، فقد صرح بها الامام ابن حزم وقال : وعثمان منهم من خيار الصحابة ، ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف وغزا فارس ، وثلاثة من بلاد الهند ، وله فتوح ... وبعث أبو بكر عثمان بن أبي العاص ، فسار في جيش إلى توج فافتتحها وسبى أهلها ، وافتتح مكران وما يليها » كما تحدث المؤرخ الهندي عن جهود أخيه الحكم بن أبي العاص الثقفي في فتوحات السند[5] ، وكتب في عنوان الفصل عنه « صحابي فتح تانه وبروص » . ثم تحدث المؤرخ الهندي أيضاً عن المغيرة بن أبي العاص الثقفي وقال في عنوان الفصل « صحابي فتح الدبيل »[6] . ثم عقد المؤرخ باباً كبيراً جعل عنوانه « فتوح بلاد السند والهند على يد محمد بن القاسم الثقفي » . ثم وصفه بأنه « أمام الجيوش الإسلامية ، الشاب المسلم فاتح الهند » ، ويصفه بأنه كان في زمنه « أشرف ثقفي »[7] . كما يصفه بأنه « تابعي أو من معاصري التابعين » .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٢٠ – ٤٣٣ .

(٢) وهو منشور في الهند سنة ١٩٦٨ وقد تفضل أستاذنا الدكتور الخربوطلي بإتاحة الفرصة لي للاطلاع عليه ، وكان قد أحضره معه خلال رحلته إلى الهند .

(٣) العقد الثمين ص ٤٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٦) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٧) المرجع السابق ص ١٨٠ .

ولا شك أن الحجاج كان موفقاً عندما عهد إلى ذلك الشاب ، محمد بن القاسم ، بقيادة تلك الحملة ، فإن محمداً بحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه ، ثم انه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب أهالي السند ، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فدانت قبائل السند له بالطاعة . وأقام محمد بن القاسم حكومة عادلة رفيقة ، وعني بنشر الثقافة الإسلامية ، وبنى مسجداً في كل مدينة فتحها .

ويشبه المرحوم الأستاذ العبادي[1] غزوة محمد بن القاسم للسند ، بغزو الاسكندر المقدوني لتلك البلاد نفسها في أخريات القرن الرابع قبل الميلاد ، فكل منهما . غزوة برية بحرية ، وكل من القائدين حديث السن وذو كفاءة عسكرية ممتازة كما اجتهد كل منهما في نشر ثقافته ، وان كلاً منهما يهدي إلى استاذه طرفاً من طرف فتوحه ، ويراسله مستطلعاً رأيه ، فالفاتح المقدوني كان يهدي أرسطو ويراسله ، والفاتح العربي كان يهدي إلى الحجاج ، ويراسله مستطلعاً رأيه في بعض المواقف .

وكان جزاء محمد بن القاسم جزاء سنمار ، إذ نكبه الخليفة سليمان بن عبد الملك . فيروي البلاذري[2] : «وولى سليمان بن عبد الملك فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، وولى يزيد بن أبي كبشه السكسكي السند ، فحمل محمد بن القاسم مقيداً .. فعذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم ، وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأي الخوارج» .

وروى البلاذري أن محمد بن القاسم حين كبلوه بالأغلال قد أنشد :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

كما روى البلاذري أيضاً ، أن أهالي الهند قد تألموا لما نزل بمحمد بن القاسم ، فبكوا طويلاً ، وأقاموا له الصور ، واضطرب أمر الهند بعده .

مات محمد بن القاسم سنة ٩١ هـ ، وكان عمره ثماني وعشرين سنة[3] ورثاه الشاعر حمزة بن بيض الحنفي فأنشد :[4]

---

(١) صور من التاريخ الإسلامي ص ١٥٢ .

(٢) فتوح البلدان ص ٤٣٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٩ ص ٨٧ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٢٨ . ش

إن المـــروءة والسمــاحـــة والنــــدى لمحمــــد بــن القــاسم بــن محمـــد
ساس الجيوش لسبــع عشرة حجـــة يا قرب ذلك سودداً مــن مولـــد

كان سليمان بن عبد الملك يبغض الحجاج وأهله وولاته ، حتى أن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد بن عبد الملك قبله فيقع في يد سليمان إذا تولى الخلافة وذلك لما كان من تأييده للوليد حين أراد عزل سليمان من ولاية العهد وتوليه ابنه عبد العزيز . فلما تولى سليمان الخلافة وتولى يزيد بن أبي كبشه الهند ، أخذ محمد بن القاسم فقيده وحمله إلى العراق ، حيث سجنوه في واسط ، ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن وقتله . ويعلق الدكتور الخربوطلي[1] على هذه الأحداث فيقول : وبذلك انتهت حياة هذا القائد العظيم ارضاء لأهواء وأحقاد الخليفة الذي نسي بلاء القائد وعظيم أعماله . وهذا المصير المؤلم الذي لاقاه محمد بن القاسم الثقفي ، على أيدي الأمويين ، مما يبرر موقف المختار الثقفي الفدائي من الدولة الأموية .

ومن الشخصيات الثقفية الكبيرة التي برزت في أواخر العصر الأموي ، يوسف بن عمر الثقفي ، وقد استمر على نهج الحجاج الثقفي ، في استخدام الشدة والقسوة في توطيد الحكم الأموي في بلاد العراق . وقد تعصب يوسف بن عمر للعرب ، واضطهد الموالي[2] . كما اشتهر بعدائه الشديد لشيعة العراق[3] . وفي عهده قامت في العراق ثورة علوية شيعية ، هي ثورة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي . واستخدم يوسف بن عمر ذكاءه ودهاءه في القضاء على هذه الثورة ، أكثر مما استخدم السلاح .

يروي المسعودي[4] أن يوسف بن عمر دس لزيد بين أنصاره من يسأله عن رأيه في أبي بكر وعمر ، فقال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول عنهما إلا خيراً . فقالت عامة الناس لزيد : فلم تطلب إذاً بدم أهل هذا البيت ، إلا أن وثبا – أبو بكر وعمر – على سلطانكم فنزعاه من أيديكم ؟ !

وانصرفت الناس عن زيد ، حتى إذا خرج سنة ١٢٢ هـ لم ينضم إليه سوى ٢١٨

(١) المختار الثقفي ص ٣٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٠٩ .
(٣) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٩ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب حـ ٣ ص ١٣٩–١٤٠ .

رجلاً ، أما بقية أنصاره فقد هرعوا إلى المسجد تلبية لنداء يوسف بن عمر [1] وما لبث أن نجح يوسف بن عمر في القضاء على ثورة زيد وقتله [2] .

وما لبث أن تولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك [3] ، فعزل يوسف بن عمر ليسكن خواطر أهل العراق ، وولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الذي أعاد سيرة أبيه نحو الموالي ، مما أغضب أهالي الشام [4] .

كانت هذه هي أبرز شخصيات ثقيف في العصر الأموي . وكانت هناك شخصيات ثانوية قامت بأدوار متفاوتة الأبعاد في مجالات الإدارة ، والجيش ، والاقتصاد ، والفكر وكان معظمهم جنوداً مجهولين لم تبرز المصادر القديمة أدوارهم وجهودهم ، فقد جرت عادة هذه المصادر على تسليط الأضواء على الخلفاء والولاة والقادة .

٥ ـ الأسرة العباسية في مدينة الطائف

رغم انتساب الأسرة العباسية إلى قبيلة قريش ، صاحبة السيادة السياسية والدينية في مكة ، إلا أنها آثرت الارتباط بالطائف أكثر من ارتباطها بمكة . ويرجع هذا الارتباط إلى العصر الجاهلي ، في عهد رأس هذه الأسرة العباس بن عبد المطلب .

كان مولد العباس بن عبد المطلب قبل الهجرة بنحو خمسين سنة وهو ابن عبد المطلب بن هاشم ، رئيس قريش ، وزعيم مكة ، والذي ذاع صيته بين العرب بعد مواجهته للغزو الحبشي . وورث العباس المجد عن أبيه العظيم ، فأصبح من أشراف قريش ، واشتهر بسداد الرأي ، والكرم ، والعطف على الفقراء . وتولى بعض المناصب الشرفية في مكة ، أبرزها منصب السقاية ، أي توفير المياه لآلاف الحجاج القادمين في مواسم الحج [5] . كما تولى عمارة الكعبة ، أي منع الكلام فيها بصوت عال [6] .

---

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٣٧ .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٤٥ .

(٣) اشتهر هذا الخليفة باسم يزيد الناقص لأنه أنقص العطاء .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٦٩ ، الفخري ص ٩٩ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص ٣٨ .

(٦) الطبري حـ ٢ ص ٣٠ .

وكان العباس ثرياً ، ولذا امتلك في الطائف بستاناً للكروم واسعاً ، إلى جانب بعض العقارات ، وكان يقضي غالباً فصل الصيف في الطائف[1] . كما كان يقوم باستيراد كميات كبيرة من الزبيب ، لتحلية مياه الحياض التي ينقل إليها المياه من آبار مكة ، تخفيفاً لملوحتها ، وكان هذا من واجب العباس ، إذ كان – كما ذكرنا – يتولى السقاية . وارتبط العباس مع بعض وجوه الطائف بأعمال تجارية متعددة[2] .

وبعد وفاة عبد المطلب ، أصبح محمد عليه الصلاة والسلام في كفالة عمه أبي طالب ، وان لم يكن أكبر أولاد عبد المطلب سناً أو أكثرهم مالاً . فقد كان الحارث أكبرهم عمراً ، والعباس أعظمهم ثراء ، ولكن العباس كان على ماله حريصاً ، ولذا نجده يتولى السقاية دون الرفادة ، وهي توفير الطعام للحجاج كما كان أبو طالب أخاً شقيقاً لعبد الله والد محمد عليه الصلاة والسلام[3] .

ومرت قريش بأزمة اقتصادية ، وكان أبو طالب كثير العيال ، ورأى محمد – عليه الصلاة والسلام – أن يرد جميل عمه أبي طالب ، وأن يخفف من مسؤولياته العائلية ، ولذا توجه إلى عمه العباس ، فقال له : ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلاً ، وتأخذ رجلاً فنكفلهما عنه . وكفل العباس جعفراً ، بينما كفل محمد علياً . وأصبح علي بن أبي طالب ربيباً لمحمد عليه الصلاة والسلام[4] ، فنشأ في بيته ، وكان أول من آمن به بعد زوجه خديجة ومولاه زيد بن حارثة ، ثم تزوج من ابنته فاطمة فأنجب منها الحسن والحسين .

ولم يقم العباس بالدور الكبير الذي قام به أبو طالب ، فقد أصبح أبو طالب حامياً لمحمد ، مدافعاً عنه ، ورد عنه كثيراً من إيذاء المشركين[5] ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام اعتبر العام الذي مات أبو طالب وخديجة فيه (عام الحزن)[6] . وقال

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة حـ ١ ص ٦٥ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٨ .
(٣) الطبري حـ ٢ ص ٣٢ .
(٤) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٦٣ ، الطبري حـ ٢ ص ٥٤ .
(٥) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٦٠ .
(٦) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٥٩ .

محمد : «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب[1]» .

ووقف العباس موقفاً مشهوداً من الرسول عليه الصلاة والسلام ، حين قدم وفد الأوس والخزرج ، يبايع النبي (بيعة العقبة) ويدعوه للقدوم إلى المدينة المنورة . وأخذ العباس العهود والمواثيق من مسلمي الخزرج[2] ، ليضمن تأييدهم الكامل والمستمر لابن أخيه العظيم .

لا تمدنا المصادر القديمة بما يؤكد اسلام العباس ، ولكنها تؤكد عدم هجرته مع النبي ، وقد ظل مقيماً في مكة . ويروي ابن هشام[3] أن العباس كان قبل فتح مكة «مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض» . ثم نجد العباس من ضمن أسرى بدر ، حيث يطلق الرسول الكريم سراحه ، فيعود إلى مكة[4] وتذكر المصادر القديمة أن العباس كان يبعث من مكة برسائل متوالية ينبئه فيها بأخبار قريش ومكة .

ثم كان العام الثامن بعد الهجرة ، وخرج الرسول لفتح مكة ، وفي الطريق التقى بالعباس بن عبد المطلب وأسرته ، ورأى العباس أن يأخذ الأمان لأهل مكة من الرسول الكريم ، فقد رأى في دخول الرسول مكة عنوة «لهلاك قريش آخر الدهر» . وأشفق العباس على مصير أبي سفيان ، فطلب منه أن يمتطي معه بغلته ليأتي الرسول فيطلب الأمان له . كما نصح العباس أبا سفيان أيضاً أن يحذر أهالي مكة فلا يقاوموا الجيش الإسلامي[5] .

وآثر العباس الانتقال إلى المدينة المنورة ، بعد فتح مكة . وظل إلى جوار ابن أخيه العظيم ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتقل إلى جوار ربه ، فشارك في مواراته في قبره الطاهر . ولذا لم يشترك في اجتماع سقيفة بني ساعدة الذي انتهى باختيار أبي بكر

---

(١) المقريزي : امتاع الأسماع حـ ١ ص ٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٢ ص ٣٦ .

(٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٤٢ .

(٤) تذكر المصادر أن العباس رغم بأسه وضخامة جسمه أبدى ضيقه بالحبال التي كانت تشد يديه إلى جسمه ، ورأى أحد المسلمين تكريم العباس باعتباره عم النبي فخفف شيئاً من قيوده ، وعلم الرسول بذلك فأمر بألا يميز العباس عن غيره من الأسرى ، وتخفيف قيود كل الأسرى . (سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٩٧ ، الطبري حـ ٢ ص ١٥٩) .

(٥) أنظر التفاصيل في سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ٤٥ وما بعدها ، وتاريخ الطبري حـ ٢ ص ٣٣٠ وما بعدها .

الصديق خليفة . وكان العباس يرى جدارة علي بن أبي طالب بالخلافة ، ولذا امتنع عن البيعة لأبي بكر بالخلافة وظل العباس موضع احترام وتقدير خلفاء الرسول ، أبي بكر وعمر وعثمان ، يستشيرونه في مهام الأمور [1] . حتى لحق العباس بربه في المدينة ، وكان عمره حينئذ تسعين سنة ، وخلف تسعة أولاد ذكور أشهرهم عبد الله بن العباس .

ولد عبد الله بن العباس قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصبح في مقدمة الصحابة الملازمين للرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذا أصبح في مقدمة رواة أحاديثه النبوية الشريفة . وقام في عهود الخلفاء ، بواجب الجهاد ، فنجده مشاركاً في الجيش الذي فتح طبرستان في عهد عثمان بن عفان .

وقدر علي بن أبي طالب موقف عمه العباس منه في موضوع الخلافة ، بعد وفاة الرسول ، حين وقف إلى جانبه ، وامتنع عن البيعة لأبي بكر . ولذا نجد علياً يولي بعض أولاد العباس حكم الولايات ، فولى منهم عبيدالله بن عباس على حكم اليمن ، وقثم بن العباس على حكم مكة والطائف ، وعبد الله بن عباس على حكم البصرة [2] .

وهكذا عاود العباسيون تاريخهم مرة أخرى في الطائف فقد أصبح قثم يلي الطائف التي أصبحت تابعة إدارياً لمكة .

اشترك عبد الله بن العباس في موقعتي الجمل وصفين ، إلى جانب علي بن أبي طالب ، وقد أراد علي اختياره حكماً في أول الأمر ، ولكن معظم جنده أرادوا اختيار فقيه الكوفة أبا موسى الأشعري [3] .

وظل عبد الله بن العباس يتنقل بين المدينة والطائف ومكة ودمشق [4] . وأصبح عضواً من أبرز أعضاء جماعة أبناء الصحابة في الحجاز ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم «أولياء الأمور» .

آثر عبدالله بن عباس الإنصراف إلى الدين والعلم ، والابتعاد عن مشاكل السياسة ، ولذا بايع ليزيد بن معاوية بالخلافة . ورفض البيعة لعبد الله بن الزبير حين أعلن نفسه خليفة في مكة ، وفرح يزيد لامتناع ابن عباس عن البيعة لخصمه ابن

---

(١) الطبري حـ٣ ص ٣٠٥ ، ابن الأثير : الكامل حـ٣ ص ٣٠ .
(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر حـ٧ ص ٧٧ .
(٣) الفخري ص ٩٢ .
(٤) الطبري حـ٣ ص ٤٦٢ .

الزبير ، وكتب يزيد إلى ابن عباس رسالة يشكره فيها ويطلب منه أن يكون عوناً له ضد ابن الزبير ، واستنكر ابن عباس رسالة يزيد ، وكتب إليه : «أما بعد ، فقد بلغني كتابك بذكر دعاء ابن الزبير اياي إلى نفسه وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته ، فان بك ذلك كما بلغت فلست حمدك أردت ، ولا ودك ... وسألتني أن أحث الناس عليك وأخذّلهم عن ابن الزبير ، فلا ولا سروراً ولا حبوراً ، وأنت قتلت الحسين بن علي ...»[1] .

وغضب عبد الله بن الزبير على عبد الله بن عباس ، ورأى ابعاده عن مكة حتى لا يتأثر أهلها بآرائه المعارضة لخلافته ، فأبعده إلى الطائف ، فعاش فيها حتى مات سنة ٦٨ هـ . كما أخرج ابن الزبير أيضاً محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، عن مكة ، إلى جبل رضوى[2] .

وهكذا عاد العباسيون ثانية إلى الطائف ، ومنهم من اشتغل بالعلم والدين ومن اشتغل بالانتاج الزراعي والتجارة . وكان أشهر أبناء عبد الله بن العباس الستة ، هو علي ، الذي اشتهر باسم السجاد ، لكثرة صلاته وورعه ، رغم أنه أصغر إخوته سناً . وقد اشتهر بالعلم والعبقرية الفكرية ، فارتفع شأنه في بلاد الحجاز ويروي ابن خلكان[3] انه «كان إذا قدم حاجاً أو معتمراً ، عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام ، اعظاماً له وتبجيلاً ، فان قعد قعدوا معه ، وان مشى مشوا جميعاً حوله ، ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم» .

وظل العباسيون ، في الطائف ، يرقبون أحداث الدولة الأموية ، في سلبية ، دون المشاركة فيها ، وآثروا ثواب الآخرة على عرض الدنيا . فهم لم يخوضوا في الحركات السياسية المضادة للدولة الأموية ، كثورات العلويين ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار الثقفي ، وغيرها . ولكن القدر كان يخبئ للأسرة العباسية دوراً كبيراً في التاريخ الإسلامي ، حيث تقوم له دولة وخلافة سنة ١٣٢هـ وتستمر أكثر من خمسة قرون ، وحتى سنة ٦٥٦ هـ كما شاءت الأقدار أيضاً أن يغادر العباسيون مدينة الطائف بل بلاد الحجاز كلها ، إلى بلاد الشام ، التي لا يربطها بها رابط .

---

(١) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٢٢١ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب حـ ٣ ص ٢٧ .
(٣) وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٤٣ .

رأى عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي ، أن يستميل اليه الأسرة العباسية ، حتى يضمن بقاءها على ابتعادها عن السياسة ، وقد تكررت ثورات العلويين وشيعتهم ، وسالت دماؤهم ، وغضب المسلمون لما لحق بالأسرة العلوية ، باعتبارهم من البيت الهاشمي ، وهو البيت النبوي . ورأى عبد الملك أنه في تقريبه بني العباس تسكيناً لخواطر المسلمين ، إذ كان العباسيون من بني هاشم أيضاً .

ونجد عبد الملك يجتهد في استمالة علي بن عبد الله بن العباس فيحيطه بالتكريم ، ويصله بالمال والهدايا الفاخرة ، ثم يقطعه قرية (الحميمة) في أرض الشراة من ناحية البلقاء ، في شرق الأردن ، ومنحه مبلغاً كبيراً من المال ليشيد به قصراً فخماً وليبني سائر العباسيين بيوتهم حول القصر . وما كادت أعمال البناء تنتهي حتى غادر العباسيون الطائف راحلين إلى الحميمة ، ليبدأوا صفحة جديدة من تاريخهم[1] .

وتمضي الأقدار في دفع الأسرة العباسية ، إلى طريق الدولة والخلافة ، فقد تزوج علي بن عبد الله بن العباس من لبابه بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهي أرملة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فيغضب ابنه الوليد ، ويعتبر الزواج اهانة له ، ويأمر بضرب علي بن عبد الله ويمنعه من مغادرة الحميمة[2] .

وتمتلئ صدور العباسيين غضباً ، ويعبرون عن سخطهم بانتقاد الدولة الأموية وخلفائها ، والتنديد بالخليفة الوليد بن عبد الملك ، فيعاود الأمر بعقابه علي بن عبد الله بالضرب بالسياط والطواف به في الشوارع ، على ظهر جمل ، والمنادي أمامه يصيح « هذا علي بن عبد الله الكذاب »[3] .

وتصبح « الحميمة » مدينة عباسية ، تزدحم بأبناء الأسرة العباسية ، ويعيش فيها أولاد علي بن عبد الله بن العباس ، وعددهم اثنان وعشرون ولداً . ثم تشاء الأقدار أن يقدم إلى الحميمة أمام شيعة الكيسانية ، أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ، وقد أدرك قرب منيته ، إذ سقاه عميل للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك شربة لبن مسمومة ، فيفضي أبو هاشم بوصيته الأخيرة لمحمد بن علي العباسي ، فينبئه بأسرار الدعوة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٤٣ .
(٢) المرجع السابق حـ ٢ ص ٤٣٨ .
(٣) المصدر السابق حـ ٢ ص ٤٣٩ .

الكيسانية وتنظيماتها ، وبأسماء النقباء رؤساء الدعوة في سائر الأمصار ، ويطلب منه بدء مواصلة الدعوة سنة ١٠٠ هـ ، إذ أن بداية قرن جديد قد تحمل تغييرات طيبة . ويستفيد العباسيون من هذه الأسرار التي أفضى بها أبو هاشم ، والتي ساقتها لهم الأقدار ، فتبدأ الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ ، حتى إذا حل المحرم من سنة ١٣٢ هـ تقوم الدولة العباسية . ولا شك أن أبناء الطائف قد قرت عيونهم لنجاح أبناء عاشوا فيها سنوات طويلة ، في إقامة خلافة إسلامية عظمى ، تواصل أمجاد الإسلام ، وتوطد دعائم الحضارة الإسلامية

تم بحمد الله تعالى

المصادر والمراجع

ابن آدم : (٢٠٣ هـ) يحيى بن آدم .

- كتاب الخراج (طبعة القاهرة) .

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ – ١٢٣٨ م) علي بن أحمد بن أبي الكرم .

- الكامل في التاريخ (القاهر ة ١٣٠٢ هـ) .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة (طبعة المعارف ١٢٨٦ هـ) .

أحمد أمين :

- فجر الإسلام (الطبعة السابعة ، القاهرة) .

ارفنج : (واشنجتون) .

- حياة محمد ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي (دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ .

أرنولد : (توماس) .

- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي (دار النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية) .

الأزرقي : (٢٣٣ هـ) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد .

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (طبعة مكة المكرمة ١٣٥٢ هـ) .

الاصطخري : (٣١٨ – ٣٢١ هـ – ٩٤٣ م) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي .

- المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني (القاهرة ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م) .

الأصفهاني : (٣٥٦ هـ – ٩٦٧ م) أبو الفرج .

- كتاب الأغاني ، ٢١ جزءاً (مطبعة التقدم بالقاهرة ١٣٢٣ هـ) .

– مقاتل الطالبيين . (طبعة الحلبي بالقاهرة ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م) .

الألوسي : محمود شكري .

– بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (القاهرة ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٤ م) .

أوليري : (دي ساسي) O'Leary : De Sacy

– الفكر العربي ومكانه في التاريخ . ترجمة الدكتور تمام حسان (طبعة وزارة الثقافة بالقاهرة) .

– Arabia before Muhammad (London, 1924)

البكري : (٤٨٧ هـ – ١٠٩٧ م) أبو عبيد الله بن عبد العزيز .

– معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

برير : Perier: Jean

— Vie d'Al Hadjadi Ibn Yousef, (Paris, 1904)

بركهاردت : Burkhardt: (J. J.)

— Travels in Arabia, (London, 1819)

بروكلمان : (كارل)

– تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي (طبعة بيروت) .

البلاذري : (٢٧٩ هـ – ٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر .

– فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات ، القاهرة ١٩٠١ م)

– أنساب الأشراف (طبعة فلسطين ١٩٣٨) .

البيليس : (٦٥٣ هـ) يوسف بن محمد .

– الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، جزءان ، (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٩ تاريخ) .

البيروني : (٤٤٠ هـ – ١٠٤٨ م) أبو الريحان محمد بن أحمد .

– الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزج ١٩٢٣) .

البيبقي : (٤٥٨ هـ) ابراهيم بن محمد .
– المحاسن والمساوئ ، جزءان (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٢٢٥ هـ – ١٩٠٦ م) .
الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري
– يتيمة الدهر ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٥٤ هـ) .
– لطائف المعارف ، نشرة دي جونج (ليدن ١٨٦٧ م) .
الجاحظ : (٢٥٥ هـ – ٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر .
– كتاب الحيوان (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٥ هـ – ١٩٠٧ م)
– البيان والتبيين (مطبعة الفتوح بالقاهرة ١٣٣٢ هـ)
– كتاب المحاسن والأضداد (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٤ هـ) .
جب : (هـ . ا . ر)
Gibb : (H.A.R.)
— Arabic Literature (London, 1928).
جاد المولى : محمد أحمد :
– أيام العرب في الجاهلية ، بالاشتراك مع علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة) .
الجهشياري : (٢٣١ هـ) أبو عبيد الله بن عبدوس .
– كتاب الوزراء والكتاب (طبعة الحلبي بالقاهرة ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٨ م) .
جواد علي : الدكتور
– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠) .
جورجي زيدان :
– تاريخ العرب قبل الإسلام (طبعة دار الهلال القاهرة) .
– تاريخ التمدن الإسلامي (طبعة دار الهلال بالقاهرة ، الطبعة الثانية) .
– تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة ١٩١١) .
– أنساب العرب القدماء (القاهرة ١٩٢١) .
حافظ غلام مصطفى :
— Religous Trends in Pre-Islam Arabic Poetry (Bombay 1968)

حتي : الدكتور فيليب
– تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع (القاهرة ، الطبعة الثانية .

ابن حجر العسقلاني : (٨٥٢ هـ – ١٤٤٩ م) شهاب الدين بن علي
– الاصابة في تمييز الصحابة (القاهرة ١٩٢٢) .

حسن ابراهيم حسن : الدكتور
– تاريخ الإسلام ، الجزء الأول ، (الطبعة السابعة ، القاهرة)

حمزة الأصفهاني : (٣٠٦ هـ) أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني .
– تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء .

ابن خرداذبة : (٢٧٢ هـ – ٨٩٥ م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
– مسالك الممالك (ليدن ١٨٩٨) .

ابن خلدون : (٨٠٨ هـ – ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن حمد
– مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية بالقاهرة) .
– العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤)

ابن خلكان : (٦٨١ هـ – ١٢٨١ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي .
– وفيات الأعيان (طبعة النهضة بالقاهرة ١٩٤٨) .

خودابخش صلاح الدين .
– حضارة الإسلام ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي (بيروت ١٩٧١)

دائرة المعارف الإسلامية : (مترجمة إلى اللغة العربية – طبعة القاهرة) .

دائرة معارف الحضارة العربية :
— Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization, by Stephan and Nandy Ronart, (Amsterdam, 1959).

الدينوري : (٢٧٢ هـ – ٨٩٥ م) أحمد بن داود أبو حنيفة .
– الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .
– ديوان أمية بن أبي الصلت (ليبزج ١٩١١) .

ديورانت : (ول)

– قصة الحضارة (طبعة القاهرة) .

دوتي : Doughty: (C. M.)

— Travels in Arabia Deserta, (Cambridge, 1888)

دينيه : ايتين

– محمد رسول الله ، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود (القاهرة ١٩٥٩) .

ابن رسته (٣٣٦ هـ – ٩٤٣ م)

– الأعلاق النفيسة (ليدن ١٨٩١ م)

روبرتسون : (سميث) Robertson: (Smith)

— Lectures on the Religion of the Semites, (London, 1894).

روتر : (الدو) Rutter: (Eldow)

— Holy Cities of Arabia, (London, 1949)

الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر .

– الكشاف عن حقائق التنزيل (كلكتا ١٨٥٦ م) .

– الجبال وأمكنة المياه (ليدن ١٨٥٥) .

ابن سعد : (٢٣٠ هـ) محمد .

– كتاب الطبقات الكبير (طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة) .

السمهودي : أبو المحاسن بن عبد الله .

– كتاب ألوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

سيديو : ل . ا .

– تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر (طبعة الحلبي بالقاهرة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨ م) .

سايكس : (بري) Sykes: (Perey)

— History of Persia, (London, 1921)

سيدة اسماعيل كاشف : الدكتورة
– الوليد بن عبد الملك (سلسلة أعلام العرب) .
– عبد العزيز بن مروان (سلسلة أعلام العرب) .

السيوطي : (٩١١ هـ – ١٦٠٥ م) عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
– تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٣٥١هـ) .

شكري فيصل : الدكتور
– المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري (دار الكتاب العربي ١٩٥٢) .

الشهرستاني : (٥٤٨ هـ – ١١٥٣ م) أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم
– الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .

ابن طباطبا : (٧٠١ هـ) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي .
– الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية .
(المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

الطبري : (٣١٠ هـ – ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير .
– تاريخ الأمم والملوك (المطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٤٩) .

طه حسين : الدكتور
– في الأدب الجاهلي (القاهرة ١٩٥٨) .

ابن عبد ربه : (٤٣٩ هـ) أبو عمر أحمد بن محمد .
– العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٨) .

عبد الحميد العبادي :
– صور من التاريخ الإسلامي ، (مكتبة الآداب ، الاسكندرية ١٩٤٨) .

عبد الرزاق حميدة :
– سيف بني مروان الحجاج الثقفي (طبعة دار الفكر العربي ١٩٤٧) .

العدوي : الدكتور ابراهيم أحمد
– النظم الإسلامية ، مقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الإسلام .

والعصر الأموي (القاهرة ١٩٧٣) .

عبد المنعم ماجد : الدكتور
- التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٦٠) .

العجيمي : حسن بن علي
- اهداء اللطائف من أخبار الطائف (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٧ تاريخ) .

ابن عراق : علي بن محمد
- نشر اللطائف في قطر الطائف (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ) .

علي ابراهيم حسن : الدكتور
- التاريخ الإسلامي العام (القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٣) .

علي حسني الخربوطلي : الدكتور .
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩) .
- المختار الثقفي (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٣) .
- عبد المطلب جد الرسول (سلسلة اقرأ) .
- الكعبة على مر العصور (سلسلة اقرأ) .
- الرسول في رمضان (سلسلة اقرأ) .
- الرسول في المدينة (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)
- الرسول والحرب النفسية (طبعة الأنجلو بالقاهرة) .
- الإسلام والحركة المضادة (دار الفكر العربي ١٩٧٢) .
- الحنيفية والحنفاء منذ عهد ابراهيم حتى ظهور الإسلام (القاهرة ١٩٧٣) .

عمر أبو النصر :
- العرب قبل الإسلام (طبعة بيروت) .

ابن عساكر : (٥٧١ هـ) أبو القاسم بن علي عماد الدين
- تهذيب التاريخ الكبير (دمشق ١٣٣٢ هـ) .

العمري : (٧٤٩ هـ) ابن فضل الله العمري

– مسالك الأبصار في الممالك والأمصار (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٤ م) .

أبو الفدا : (٧٣٢ هـ – ١٣٣١ م) اسماعيل بن علي عماد الدين

– المختصر في أخبار البشر (المطبعة الحسينية ، القاهرة) .

فرزنل : Fresnel: (E)

– Lettres sur L'Histoires des Arabes avant L'Islamisme, (Paris 1836)

ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن الهمداني

– مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥) .

فلهوزن :

– تاريخ الدولة العربية ، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده (القاهرة) .

ابن قتيبة : (٢٧٦ هـ – ٨٨٩ م) أبو محمد عبد الله بن مسلم .

– الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

– المعارف (المطبعة الإسلامية بالقاهرة ١٩٣٥) .

– عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .

القلقشندي : (٨٢١ هـ – ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد .

– صبح الأعشى في صناعة الانشا (المطبعة الأميرية ١٣٢٣ هـ – ١٩١٤ م)

ابن كثير : (٧٧٤ هـ) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل الدمشقي .

– البداية والنهاية (مطبعة السعادة ، القاهرة) .

الكلبي : (٢٠٤ هـ) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب .

– كتاب الأصنام (بولاق ١٣٣٢ هـ) .

كرد علي :

– الإسلام والحضارة العربية (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦) .

كوسان دي برسيفال : Caussin de Perceval

– Essai sur L'Histoire des Arabes avant L'Islamisme. (Paris 1847).

لامانس : هنري Lammens: Henry

— Le Berceau de L'Islam (Roma, 1914)
— La Cite Arabe de Taif à la Veille de L'Hegire, (Beyrouth, 1922), (Meanages de L'Université Saint-Joseph, Beyrouth tome V2).
— La Mecque à la veille de L'Hegire, (Melange de L'Université Saint-Joseph, Beyrouth tome 4).
— Etudes Sur le Siècle des Omayyades, (Beyrouth, 1936).

لينبول : ستانلي Lane-Poole: Stanly
— The Muhammadan Dynasties, (Paris, 1925).

المباركبوري : أبو المعالي أطهر

– العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين بومباي ، الهند ١٩٦٨) .

مارجوليوث : Margoliouth
— The Relations between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, (London, 1924)

المسعودي : (٣٤٦هـ – ٩٥٦ م) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي
– مروج الذهب ومعادن الجوهر – (طبعة دار الرجاء بالقاهرة)
– التنبيه والإشراف (مكتبة الشرق الإسلامية بالقاهرة ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٨ م) .

محمد جمال الدين سرور : الدكتور
– قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم (القاهرة ، الطبعة الأولى) .
– الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية (دار الفكر العربي بالقاهرة)..

محمد حسين هيكل : الدكتور
– حياة محمد (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
– الصديق أبو بكر (الطبعة الأولى بالقاهرة)

محمد عزة دروزة :
– عصر النبي عليه السلام وبيئته (طبعة بيروت) .

محمد فرج :
– المثني بن حارثة الشيباني (سلسلة أعلام العرب) .

محمد نعمان الجارم :
– أديان العرب في الجاهلية ، جزءان (القاهرة ١٩٢٣)

محمد لبيب البتنوني :
– الرحلة الحجازية (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

المقريزي : (٨٤٥ هـ – ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي .
– أمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع (القاهرة ١٩٤١)

ميور : (وليم) .
Muir: (W.)
— Life of Mahomet (London, 1858)
— The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, (Oxford, 1902)

ناجي معروف :
– أصالة الحضارة العربية (بغداد) الطبقة الثانية ١٩٦٩) .

النبهاني : يوسف بن اسماعيل
– الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية .

النجيرمي : اسحاق ابراهيم بن عبد الله
– ايمان العرب في الجاهلية (القاهرة ١٣٤٣ هـ) .

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
– نهاية الأرب في فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة)

نيكلسون :
Nicholson : (A. Raynold)
— A Literary History of the Arabs, (London, 1923).

ابن هشام : (٣١٨ هـ – ٨٣٣ م) أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب المعافري الحميري .

– السيرة النبوية (طبعة الحلبي بالقاهرة ١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م)

هل : جوزيف .

– الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور ابراهيم أحمد العدوي . (سلسلة ألف كتاب ، القاهرة) .

الهمداني : (٣٤٣ هـ – ٩٤٦ م) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف ابن داود .

– صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) .

هوجارث :

Hogarth: (N.G.)

— The Penetration of Arabia (London 1905)

هيوارت :

Huart:

— Histoire des Arabes (Paris 1912)

ولفنسون : اسرائيل

– تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٢٧) .

ياقوت : (٦٢٦ هـ – ١٢٢٩) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي .

– معجم البلدان (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ – ١٩٠٦ م)

– المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (طبعة وستنفلد ، جوتنجن ١٨٤٨) .

اليعقوبي : (٢٨٢ هـ – ٨٩٥ م) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح .

– تاريخ اليعقوبي (مطبعة الغرى ، النجف ١٣٥٨ هـ) .

– كتاب البلدان (ليدن ١٩٠٦) .

أبو يوسف : (١٩٢ هـ –٨٠٧ – ٨٠٨ م) يعقوب بن ابراهيم .

– كتاب الخراج (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ)

يوسف رزق الله غنيمة :

– الحيرة ، المدنية والمملكة العربية ، (بغداد ١٩٣٦) .

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيا: شروق - تلكس: SHROK UN 93091